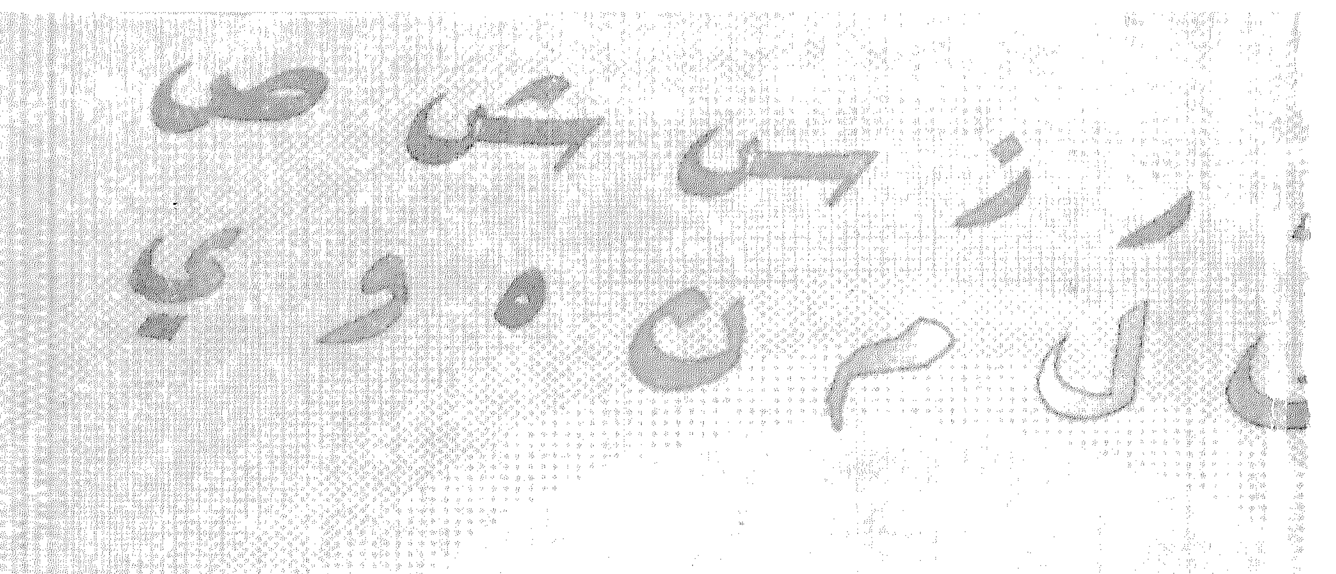
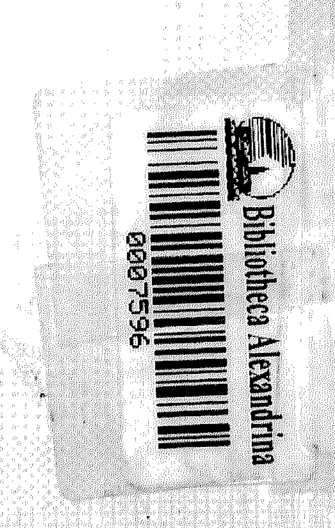


علي رضا

الإنشاء السهل





دار الشرق العربي
بيروت - لبنان ص.ب ١١/٦٩١٨
حلب - سورية - ص.ب ٤١٥


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علي رضا

الإنشاء السهل

دار الشرق العربي



الاهداء

إلى كل من أخلص في خدمة هذه اللغة العربية الجليلة ووهب حياته لرفعتها، ومكّن لها في النفوس، وألانَ لها الرؤوس...

إلى ذاك الذي يقف نهاره ويسهر ليله ليزوّد أبناء أمته بزاد هو خير من كل زاد...

إلى زميلي المعلم... أهدي هذا الكتاب.

علي رضا



مقدمة الطبعة الثالثة

أيها القارىء الكريم:

هأنذا أضع بين يديك كتاباً آخر في الانشاء، راجياً أن يكون عوناً لك مع أخيه «الإنشاء الواضح» في تذليل مصاعب الإنشاء.

كل ما أريد أن أقوله هنا في هذه المقدمة هو أنك لن تجد أية مصاعب في هذه المادة، لو أنك أصغيت إلى نصحنا، وأدمنت المطالعة، فهي المعلم الأول في الإنشاء، وهي وحدها تجعلك لا تجد أية عقبة عند معالجة أي موضوع يطرح عليك.

لا شك في أن هناك أساليبَ وطرقاً ومسالك لمعالجة الموضوعات، وعلى الرغم من ذلك كله فإن العامل الرئيسي في كل ذلك هو المطالعة العميقة الواعية، مستعيناً بالذوق المرهف والتفكير السليم، فإذا استطعت أن تتسلح بهما ضمنت لنفسك النجاح في هذه المادة العصية.

وكل ما أريد أن أضيفه إلى ما سبق، هو أن أقول: اكتب الموضوع مستوحياً مشاعرك وأفكارك وخيالك، واستعمل لذلك الألفاظ الضرورية والتعابير الملائمة، مع اهتمام بالغ بفكرة الموضوع.

وإذا عكفت على معالجة موضوع ما، فكن واضح الفكرة، طبيعياً، لا أثر للصنعة في كتابتك، فكما يستكره من المرأة الجميلة أن تضع على وجهها طبقة سميكة من الأصباغ وأن تشوّه وجهها بما تطبع عليه من مختلف الألوان، كذلك يستكره في الإنشاء ما يستكره في ذلك الوجه الجميل. فلا تحاول أبداً أن ترقّع موضوعك بأساليب سواكَ من الكتاب، بل اكتب كما يحلو لك، شريطة أن تكون

الكتابة صحيحة، والأفكار متسلسلة منسجمة، والأسلوب شيِّقاً أخاذاً لا تكلف فيه.

والله أسألُ أن يوفقك ويرعاك، ويسدِّد إلى الصواب خطاك.

علي رضا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كلمة توجيهية لا بد منها

كثرت الكلمات التوجيهية في الإنشاء إلى درجة جعلت الطالب يحار في أمره ويضيع بين الأوامر والنواهي والتحذير والترغيب، والأمر كله لا يستوجب كل هذا، بل يعتمد كل الاعتماد على مطالعة الطالب وذوقه، فما رآه حسناً مستساغاً أخذ به، وما رآه نابياً مستهجناً عافه، وذوقه خير ميزان لهذا كله.

غير أن هناك وصايا رئيسية، لا نرى مانعاً من أن يطلع عليها الطالب، لعلها نسهم في تجويد إنشائه وتحسين أسلوبه، وأغلب الوصايا معروف مكرور ولكن لا مندوحة لنا عن ذكره فيما يلي:

١ ـ لا تخرج عن الموضوع.

٢ ـ استعمل علامات الترقيم: النقط، الفواصل، إشارات التعجب والاستفهام وغيرها.

حاول الاستفادة من التعابير البليغة، والمعاني الرفيعة التي تحصل عليها في أثناء مطالعتك، ولكن إياك أن تأخذ الجملة أو التعبير أو المقطع، فتضمنه موضوعك كأنه جزء من الموضوع فإن ذلك يظهر جلياً واضحاً ويكون كالرقعة ذات اللون الصارخ في الثوب الباهت، فإذا كثرت هذه الرقع غدا الثوب ثوباً تنكرياً لا يصلح إلا لأعياد المساخر، وهكذا الموضوع إذا لم تصغه بقلمك ولم تكتبه بدمك وقلبك فإنك لا تكون قد صغت شيئاً.

٤ ـ اجعل للموضوع مقدمة ـ إذا شئت ـ تمهدُ بها للموضوع، واجعلها شيِّقة أخّاذة، فهي إن لم تكن كذلك أساءت إلى الموضوع؛ إن كثيرين من رؤساء التحرير في الصحف يضيق وقتهم عن قراءة الموضوعات المقدمة إليهم ولهذا فهم يكتفون بقراءة المقدمة وبعدها يرفضون المقالة أو يدفعون بها إلى المطبعة.

كان (كليمنصو) رئيسَ تحرير جريدة «الرجل الحر» قبل أن يصبح رئيس وزراء فرنسا، فجاءته قصة لم يوافق على نشرها، وجاءه صاحبها محتجاً قائلاً: إنك لم تقرأها يا سيدي حتى نهايتها فأجابه كليمنصو بقوله: يا سيدي، عندما أجلس إلى مائدة الطعام، وأكسر بيضة لآكلها فلا يتحتم عليَّ أن آكلها كلها حتى أعرف أنها منتنة، وكأن ضربة نزلت على رأس المسكين صاحب القصة، وخرج يتعثر بأذيال خجله وخيبته.

٥ ــ لا تعمد إلى الفاظ المعاجيم فتتفاصح بانتقاء العويص منها وتحشره في الجمل التي تكاد تقيء هذا النوع من الألفاظ السمجة الثقيلة، بل اختر اللفظ الرشيق الخفيف على السمع.

٦ ــ الترتيب حسن في كل شيء، وهو في الموضوعات الإنشائية أجمل وأحسن، فليكن موضوعك منسقاً مرتباً متسلسل الأفكار، بحيث يجد القارىء فيه بحثاً متزناً وعرضاً بديعاً رائعاً.

٧ ــ كل ما يطلب منك في الإنشاء هو إيصال ما تريده من الأفكار أو الأوصاف أو غير ذلك إلى ذهن القارىء أو السامع بحيث يستوعبه، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نقول: إن عليك أن تختار الألفاظ اللازمة والمعاني الموافقة وأن توجز إذا كان الإيجاز حسناً، وأن توسع إذا كان التوسعُ ضرورياً، وكل ذلك يعتمد على رَوِيَّتِك، وذوقك، وحضور ذهنك، وسلامة تفكيرك، فاعتمد على ما سبق، واكتب بهدوء، ولا تعجل، وحاول أن تكون عبارتك صحيحة ما استطعت.

٨ ــ اختم موضوعك بكلمة موجزة مركَّزة حول الموضوع كله تضمنها مغزى الموضوع أو فكرته الرئيسية، ولا مانع أن تضمن هذه الخاتمة رأيك الشخصي في الفكرة موضوع السؤال.

٩ ــ وفي خلال الاختبارات أو المسابقات سجِّل ما يعنُّ لك من أفكار على ورقة المسودة ولو بدون ترتيب، ثم رتبها ترتيباً جيداً، وتناول تلك الأفكار بعد ذلك، الفكرةَ تلو الأخرى حتى تستنفدها.

كيف تعالج موضوعاً إنشائياً

عندما يطرح أي موضوع إنشائي على المنشئين، يدب فيهم شيء من الاضطراب يظهر أثره قوياً في بعضهم وضئيلاً في بعضهم الآخر، ويقيني أن المنشىء لو كانت لديه الذخيرة الكافية من الثقافة التي يحصل عليها عن طريق المطالعة لما اضطرب أبداً.

وقبل معالجة أي موضوع إنشائي ينبغي أن يقرأ المنشىء السؤال مرة أو أكثر حتى يشعر أنه يعيش في جوه، وأنه يدرك تماماً أغراضه ومراميه، وأن الموضوع قد أصبح واضحاً في الذهن لا غموض فيه ولا إبهام.

فإذا تم له ذلك، وجب أن يفكر في الموضوع لمعرفة عناصره الرئيسية، فلكل موضوع عناصر رئيسية من المستحسن أن تبين، فإذا تم له ذلك تناول هذه العناصر واحداً بعد الآخر.

فلو طلب إلى أحدهم أن يكتب موضوعاً في وصف الحديقة إبان الخريف، فعليه بعد فهم السؤال جيداً أن يفكر أولاً فيما كانت عليه الحديقة قبيل حلول الخريف، حين كانت مورقة الأشجار وارفة الظلال فوّاحة الازهار، دون أن يكثر، بل يكتفي بمقدار يسير كتمهيد للانتقال إلى الخريف وعواصفه وأمطاره ورعوده والحالة التي آلت اليها الحديقة من تساقط الأوراق، وذبول الأزهار، ومغادرة الأطيار، ثم ينتهي الموضوع بعد كل هذا التصوير بوصف مشاعر الحزن والكآبة التي ترين على المرء، إذ يرى ما حلّ بالحديقة حين مرّ بها الخريف.

ومن المفيد أن يعتمد في هذا كله على مخطط إن سمح له الوقت بذلك، ففي ذلك خير وفائدة، فقراءة الموضوع أولاً. ثم التفكير فيه ثم وضع مخططه.

لنفرض أن الموضوع الذي طُرِحَ علينا هو الآتي:

قال الشاعر:

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له   إذا لم يكن في فعله والخلائق

فبعد قراءة البيت وتفهمه والتفكير فيه نجده يدور حول فكرة ملخصها: أن قيمة الإنسان ومنزلته في قومه ليست في جماله وحسن هيئته، بل هي في كماله وآدابه.

وعلى هذا تكون العناصر الرئيسية والفرعية على الشكل التالي:

آ ــ النفوس تميل إلى الجمال في كل شيء:

١ ــ الجمال في الطبيعة يريح البصر، وينعش النفس، ويستميل الفؤاد.

٢ ــ الجمال في الإنسان حلية تفتن الطرف وتعطف القلب، وتؤثر في النفس، وتمنح صاحبها سلطاناً على النفوس، وتأثيراً في القلوب.

ب ــ جمال الوجه ليس كل شيء بالنسبة للرجل:

١ ــ ليس الجمال وحده بمستطيع أن يرفع شأن الرجل ويعلي مقامه.

٢ ــ إذا اقترن الجمال بالغباوة، والعِيّ، وفساد الذوق كان كارثة على صاحبه.

٣ ــ قد يعجب المرء بجمال الأجسام والوجوه ولكنه متى عرف ما تحت هذا الجمال من قبح في الخلق وفساد في الطوية، وسوء في الطباع، تلاشى لديه هذا الإعجاب.

جـ ــ الجمال الحقيقي هو جمال الأفعال والأخلاق:

١ ــ كم من دميم الوجه ساد قومه، والأحنفُ بن قيس خير مثال على ذلك، فلقد كان الأحنف قصيراً دميم الصورة ولكنه كان سيد العرب.

٢ ــ لا يجوز أن نحكم على أقدار الناس ومكانتهم بما يتحلون به من جمال الوجه، وطراوة الجسم، ولدانة العود، بل بشرف النفس وحميد الخصال، وطهارة اللسان، والترفع عن الدنايا.

٣ ــ إذا اجتمع جمال الوجه مع جمال الأخلاق كان ذلك نعمة كبرى لا تقوَّم بمال ولا تتيسر في كل الأحوال.

وبعد وضع المخطط يحسن بنا أن نثبت بعض الأقوال التي تصلح للاستشهاد بها نحو قوله تعالى:

﴿إذا رأيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسامُهُمْ﴾ و.. قول النبي ﷺ: (إياكُمْ وخضراءَ الدِمَنِ، قالوا: وما خضراءُ الدِمَنِ يا رسولَ الله؟ قال: المرأةُ الحسناء في المنبتِ السوءِ).

وقول الشاعر:

لا تركَنَنَّ إلى ذي منظرٍ حسنٍ　　فربَّ رائقةٍ قَدْ ساءَ مَخْبَرُها

أو قول الآخر:

ولا خيرَ في حسنِ الجسوم وطولِها　　إذا لم تزنْ حسنَ الجسومِ عقولُ

وكلمة موجزة عن الأحنف بن قيس الذي كان ضئيل الجسم، صغير الرأس، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتىء الوجنة، غائر العينين، خفيف العارضين أحنف الرجل، ليس شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بحظ، تنبو عن مرآه الأحداق، وتتفادى من شخصه الأبصار، وهو مع هذا سيد قومه بني تميم فإذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب، ظلَّ اسمه علماً رفيعاً في عالم الأخلاق والشرف، ولما وفد الأحنف مع وفد البصرة إلى عمر بن الخطاب، خطب بين يدي عمر يسترعيه النظر لأهل البصرة فاعجب به عمر وقال: هذا والله السيد.

ومن الأمثال: ليس كل ما يلمعُ ذهباً.

ترى الفتيانَ كالنخلِ، وما يُدْريكَ ما الدَخلُ

وأخيراً لا بد من أن يعتمد المنشىء على ما اختزنه في ضميره وفكره من شعر وأمثال أو نوادر وغير ذلك حتى يجيء موضوعه قريباً من الكمال، وقبل كل شيء فللتأثر بالموضوع والشعور به أثر كبير في نجاح هذا الموضوع أو ذاك.

فنون الإنشاء

«الوصف»

أغراض الإنشاء أو فنونه كثيرة، أهمها: الوصف، والترسُّل، والقصة ومعالجة الموضوعات الفكرية.

أما الوصف فهو أن يذكر المنشيء أحوال الأشياء التي يراها أو التي يُطْلَبُ منه وصفُها شكلاً أو لوناً، خَلقاً أو خُلقاً، إلى غير ذلك من ضروب الوصف، بحيث إذا قرأ أحدنا ذلك الموضوع الوصفي استطاع أن يحصل على الصورة الواقعية للموصوف أو ما يقاربها. والأديب الموهوب يستطيع أن يعطيك صورة تكاد تكون حقيقة للموصوف.

يقول المرحوم بدر الدين النعساني في وصف موهبة أمير الشعراء أحمد شوقي في الوصف:

فما أبصرتُ وصّافاً كشوقي ... ولا بَصُرت بذلك مقلتان

رأيتُ بعينِهِ البسفورَ حقاً ... بما يحويه من آي حسان

ومذ أبصرتُهُ بعيونِ نفسي ... إذا البسفورُ كانَ كما أراني

إذا وصفَ الجنانَ نعمتَ فيها ... كأنكَ منه في وسطِ الجنان

وإن وصفَ الجحيمَ شقيتَ فيها ... وضقتَ من الشقاء بما تعاني

وإن وصفَ المعري وشكسبيراً ... رأيتُهما أمامَكَ يخطران

على عِطفيهما بُردا جلالٍ ... وفي قوليهما سحرُ البيان

فما المرآة أصدقُ منه نعتاً ولا أقوى على ضبطِ الكيان
تريك ظواهراً ويريك عيناً بواطنَ ليسَ تدركُ بالعيان

فالأسلوب الوصفي يعتمد على رسم صور قلمية للوصوف، سواء في ذلك الصفات الحسية التي تدركها الحواسُّ أو الصفاتُ الباطنيةُ التي يدركها العقل.

ولهذا فالواصف يجب أن يكون مرهفَ الحواس، شديد الملاحظة، حاضر الذهن، لا يترك شيئاً دقَّ أو عظُم إلا ويهتم به دون أن يكون ملزماً بذكر كل شيء، بل يذكر كل ما يهمه في الموضوع الوصفي الذي يعالجه.

وأسلوب الوصف يكون أولاً بابراز الصورة العامة للموصوف، كمرحلة أولى، ثم يُعمد إلى وصف كل جزء منه بترتيب يحفظ للموضوع تناسقَه، وانسجامه.

الموضوع الأول:

ها قد انتهت العطلة الصيفية وعدت إلى المدرسة، بعد أن أمضيت الصيف كله في اللعب واللهو، والمتعة.

تحدث عن يوم العودة وصف لقاءك الحبيب بزملائك وأساتذتك.

بسط الموضوع:

لقد انتهت العطلة الصيفية وفتحت المدارس أبوابها لتستقبل الألوف من الطلاب الذين أمضوا فترة ليست بالقصيرة في اللهو واللعب، والركض في الدروب والحقول للتمتع بمباهج الصيف.

لم أستطع خلال هذه الفترة الطويلة من العطلة أن أطالع أي كتاب من كتبي المدرسية التي أعدها لي والدي لغرض الاستعداد للعام الدراسي الجديد، بل كنت أقرأ القصص المسلية.

وفي صباح يوم الاثنين من تشرين الأول، وهو يوم افتتاح المدارس، استيقظت مبكراً وأعددت كتبي، ووضعتها في حقيبتي التي تميزت بقدمها واهترائها ولكنها على كل حال ما زالت تقاوم الفناء.

كانت الشوارع مكتظة بالطلاب من جميع المستويات والفروع، ذكوراً وإناثاً، متجهين إلى مدارسهم بحيوية ونشاط عظيمين، وكلما التقى بعض الطلاب بزملائهم تبادلوا التحيات والتمنيات الطيبة في العام الجديد.

كان اللغط يرتفع، وتتصاعد ضحكات رنانة بريئة هنا وهناك، والجميع مغتبطون قد ارتدوا أجمل وأنظف ما عندهم من الثياب، فكأنما هم ذاهبون إلى حفلة أو عرس، فالوجوه مشرقة والثغور تفترّ عن بسمات عذبة صافية، والأيدي

تمتدُّ قوية جذلة لتتصافح وتشد على الأيدي الأخرى بمرح وحبور لا يوصف ولا يحد.

اجتمعت بزملاء صفي كلهم ما عدا صديقي عماداً، لقد تأخر، أتراه لم يطّلع على موعد بدء السنة الدراسية؟ هذا مستحيل فلقد نشرت الصحف وأذاعت أجهزة الإعلام هذا الموعدَ منذ أيام بعيدة.

دخلنا المدرسة فرحين، والتقينا بأساتذتنا فحييناهم وتبادلنا حديثاً موجزاً مع أكثرهم، كانوا جميعاً في عجلة من أمرهم، فلا نكاد نحيي الأستاذ حتى نراه يمر مسرعاً فيدخل غرفة المدير ليطلع على عمله المكلف به هذا العام.

وقرع الجرس مؤذناً بابتداء العمل، فانتظمنا صفوفاً، ولم نستطع أن ننقطع عن التلفت لنستوثق من وجود زملائنا، وأقبل المدير، ومعه المدرسون وصعدوا جميعاً إلى السدة المشرفة على باحة المدرسة فحيانا وحييناه، ورحّب بنا بكلمة موجزة أشفعها بكلمة أخرى حثنا فيها على الانتظام والسلوك الحسن، والاجتهاد، ثم رجا لنا سنة طيبة سعيدة، وقبل أن نمضي إلى صفوفنا وقف الطالب الأول من طلاب الثالث الثانوي فألقى كلمة باسمه وباسمنا جميعاً، عبر فيها عما نشعر به من الحب والاحترام نحو مديرنا وأساتذتنا ومدرستنا، ووعد باسمنا أن نكون قدوة طيبة لكل طلاب هذا البلد.

وأعطيت إشارة الدخول إلى الصفوف، فوجدنا بطاقات صغيرة ملصقة بالأدراج، تحمل كل بطاقة اسم الطالب صاحب الدرج، واحتل كل منا مقعده، وأقبل أستاذ اللغة العربية مرحباً كعادته. وبعد التحية وإلقاء بعض الأسئلة العامة أخذ الأستاذ يلقي الدرس الأول بانطلاق ووضوح تتخلله الدعابة اللبقة والنكتة المهذبة، وعمت الصف فرحةٌ عارمة، واستمتعنا بهذا الجو المرح، وقبل أن ينتهي الدرس بدقائق استعاد الأستاذ حديثه المعهود، وأبى إلا أن يكلفنا بوظيفة بيتية لنبدأ عامنا بالعمل.

كنا نخاف من مادة اللغة العربية ولكننا عندما حضرنا الدرس الأول تبدد هذا الخوف وحل محله الاطمئنان والثقة والتصميم على العمل بلا هوادة ولا ونى.

تحية إلى أساتذتنا جميعاً إنهم بناة مستقبلنا وحماتنا وهداتنا وسنظل مدينين لهم إلى الأبد راجين أن نتمكن ذات يوم من تسديد بعض هذا الدين.

الموضوع الثاني:

ذهبت لتودع صديقاً لك يسافر في القطار مع أهله إلى أوربا، فوصلت إلى المحطة متأخراً، فلم تتمكن حتى من لمح صديقك في عربات القطار، ولو من بعيد...

صف شعورك وأسفك.

بسط الموضوع:

أغلقت خلفي باب الدار وأنا أتمم ارتداء معطفي، بينما كانت رجلاي تقطعان بي الطريق على عجل باتجاه محطة القطار في طرف المدينة، ولم أتعود الخروج من البيت في مثل هذه الساعة المبكرة، ولكنني مضطر اليوم إلى ذلك لأن صديقي سعيداً ينوي السفر إلى أوربا.

الشارع خال تماماً، لا تسمع فيه إلا وقعَ قدمي على الأرض. فوسائط النقل المشترك لا تبدأ السير إلا في الساعة السادسة وكنت أقدّرُ أن الوقت لم يكن ـــ عند خروجي من البيت ـــ يتجاوز الخامسة صباحاً، فأمامي ساعة كاملة أستطيع خلالها أن أصل إلى المحطة بكل تأكيد.

غير أن الساعة كانت متوقفة عن الحركة فأخذت في السير، وكنت أقف أحياناً لأسترد بعض أنفاسي، ولأنصت علني أسمع هدير محرك سيارة توفِّر عليَّ التعب والوقت، ولكن الشارع كان صامتاً لا يعكره سوى لهاثي ووقع خطاي.

وتابعتُ السير مهرولاً باتجاه المحطة، كم الساعة الآن؟ ونظرتُ إلى معصمي، فوجدتُ الساعة معطلة الحركة، وعقرباها جامدان لا يبرحان مكانها، فاشتد بي الغيظ والحنق، ودفعتني الرغبة في وداع سعيد إلى العَدْوِ، فعدوت. ولكنني ما لبثت

أن بمهلت قليلاً، فالطريق طويل، والعَدْوُ في شارع مقفر مضن وممل، كم الساعة الآن؟ إذا استطعت أن أتابع طريقي بمثل سرعتي الأولى فلن يمضي نصف ساعة إلا وأكون مع صديقي سعيد.

هنيئاً لك يا سعيد سفرتك هذه، إنك ستستمتع بمناظر رائعة، جبال ووديان، جسور وسهول، قرى وأنهار، ستستمتع بهدير عجلات القطار على الخطِّ الحديدي سترى الأطفال في القرى والمحطات وهم يلوّحون لك بأيديهم، أنت سعيد حقاً، إنها رحلة يحلم بها كل إنسان، يحلم بجزء منها، أما أنت فانك ستطوف بأوربا، بلاد الفن والجمال والمنجزات العلمية الهائلة، ستمر بالحدائق الجميلة، وتتفرج على روائع الرسوم والتماثيل وآثار الغابرين في المتاحف.

لم أكن أستطيع أن أقف هذه التخيلات، إذ كانت سرعة ورودها في خاطري تتناسب طرداً مع سرعتي في السير، نعم سأرى الآن صديقي وهو يقف إلى جانب مقطورة من عربات القطار، يشيِّع بانظاره أرض الوطن الحبيب، ويشد على يدي كما أشد على يديه بقوة وحرارة، فيها كل معاني الود والإخلاص.

لشدَّ ما سيزعجني فراقُك يا سعيد، ليس لي صديق اطمئن إلى صحبته سواك، ولكنها أيام تمر، وتعود أنت من غربتك، فنعود صديقين متلازمين، لأنني على ما يبدو لي لن أجد بين معارفي صديقاً خلوقاً تطيب عشرته غيرك.

بدا باب المحطة الكبير منتصباً أمامي، وأمامه عدد من السيارات الصغيرة، إن الناس لا يزالون يودعون اخوانهم وأقاربهم، ودوّى صفير القطار فجأة، فقفزت اجتاز ما بقي من الشارع قفزاً، ولجت الباب الكبير، واقتربت من كوّة تباع فيها تذاكر الرصيف، وهي لا بد منها لمن يريد أن يدخل رصيف المحطة، وطلبت تذكرة على عجل، ودوّى صفير آخر للقطار تبعه صوت جرس، تسارعت مع دقاته دقات قلبي، ولا يزال صاحبي بائع التذاكر يحصي غلّته، فنقرت بقطعة النقود على زجاج أمامه، وطلبت إليه برجاء أن يعطيني بطاقة، فنظر إليَّ من فوق نظارته المرتخية على أرنبة أنفه، ودفع إليَّ ببطاقة، دون أن ينبس ببنت شفة، فأخذت البطاقة وعدوت أجتاز البهو إلى الرصيف، وقاطع التذاكر قد أخرج رأسه من الكوة، وهو يهيب بي

أن أعود لآخذ الباقي، لم أكن أسمعه، أو لم أكن أريد أن أسمعه، فصوت مرجل القطار بدأ يحشرج.

دفعت بالبطاقة إلى الواقف على المنفذ إلى الرصيف، فطلب إليَّ إبراز هويتي الشخصية، وبينما أنا أخرجها من جيبي دوّى صفير حاد جديد، وهدرت محركات القطار، تفحَّص المراقب على مهل بطاقتي، ثم دفع بها إلي، وهو يقول: ألا تريد أن تأخذ (الباقي)؟ قلت له: سآخذه بعد قليل، فالقطار بدأ يسير، وأنا أريد أن أودع صديقي.

كان القطار قد بدأ السير فعلاً عندما أزاح المراقب مفسحاً لي الطريق، ودخلت الرصيف لأرى آخر عربات القطار تمر من أمامي، ركضت مع القطار علني استبين وجه سعيد من بين الوجوه المطلة من النوافذ، ولكن عبثاً فعلت، كانت هناك أيد كثيرة في القطار على الرصيف، وكلها تلوّح بالمناديل، ولكن أين سعيد! لا بد لي من إدراك عربته، فظللت أعدو عله يراني بعد أن أنفرد عن جمهور المودعين فيمد رأسه، وأرى وجهه المشرق، ولكن القطار بدأ يسرع وقدرتي على العدو بدأت تضمحل، ووقفت أخيراً وأنا لا أزال ألوّح بمنديل: مع السلامة يا سعيد ودمعتان على خدي تنحدران ببطء، وقفلت راجعاً ببطء أشد.

كان الرصيف قد أقفر إلا من بائع التذاكر وهو يحمل في يده ما بقي لي عنده، وهدأ صوته وابتلع ما بقي من كلماته بعد أن رأى تجهم وجهي واخضلال عيني بالدموع، فدفع إلي ما في يده وتابعت سيري في الطريق، وظللت أسير في الشارع الذي انبعثت فيه الحياة دون أن أفكر في ركوب أية واسطة للنقل.

كم كنت أودُّ وداعك يا سعيد، كم كنت أود أن أراك، ستقول إني مقصر، ستتخيل أني عققت الصداقة، وتقاعست عن واجبي، وظللت مع هواجسي هذه أجتاز طريق العودة إلى البيت بتثاقل وبطء شديدين، حتى وصلت بعد وقت طويل، وكاد النهار أن ينتصف، فدخلت غرفتي دون أن ألقي أحداً من أهلي، وعيناي لا تزالان نديتين بالدموع.

الموضوع الثالث:

صف يوماً في حياة نجار

بسط الموضوع:

قبل أذان الفجر بقليل أنهض من نومي، فأتوضأ، وأصلي الصبح، وأجلس قليلاً، نتحدث ـــ أنا وقرينتي ـــ فيما نشتهي أن يكون طعامنا في هذا اليوم، ثم يستيقظ أفراد الأسرة تباعاً، ليكونوا على استعداد بعد فترة لتناول الفطور الذي أحرص على أن نتناوله معاً، لأتبادل مع أولادي الحديث عما يهمهم ويعنيهم، وبعد قليل أتوجه إلى مصنعي، فأجد الصناعَ في انتظاري.

يفتح المعمل وينصرف الصناع إلى تنظيفه قبل البدء بالعمل، ثم أشرع في تقسيم العمل بين الصناع، فمن لم يتمّ عملَ الأمس أكلفه إتمامه.

بعد بدء العمل بقليل أمرُّ بالصناع، مشجعاً هذا، ومرشداً ذاك، منبهاً من انحرف أو أخطأ، حتى أطمئن إلى سير العمل سيراً حسناً، وألفت الانتباه إلى الآلات، وخطر الغفلة والسهو، وما ينتج عن ذلك من أذى، قد يصل أحياناً إلى فقدان عضو من أعضاء الجسم، أو فقدان الحياة، وإذا وجدت أن آلة من الآلات في حاجة إلى اصلاح أو شحْذٍ لم أؤجل ذلك لحظة، لأن التأجيل يؤثر في سير العمل، وقد يحمل مفاجآت غير سارة.

المصنع واسع الأرجاء، ولهذا خصصت مكاناً لبقايا الخشب، ومكاناً آخر لما تم صنعه، وآخر لما هو معد للصنع، ولا أترك شيئاً من النُجارة أو النُشارة بين أرجل الصناع، حتى لا تعطلهم عن العمل أو تعرقل حركتهم.

وهناك بجانب مدخل المصنع غرفة أنيقة جعلتها خاصة لاستقبال الزبائن، زودت بمروحة كهربائية، وثلاجة صغيرة، وفيها مكتبة تضم في جوانبها رسوماً شتى لتصاميم مختلفة، فطاقة للأرائك، وأخرى للمناضد، وثالثة للكراسي، ورابعة

للأسِرَّة فإذا حضر زبون قابلته بالبشاشة والإكرام، واتحفته بما يقدم للزائرين عادة. فإذا استراح، وعرض ما يطلبه، عرضت عليه الرسوم ليختار منها ما يشاء، وأعينه على الانتقاء، موضحاً له كل رسم مع صفاته المميزة، حتى إذا وقع اختياره على نوع معين فاوضْته في الثمن، وقلما أختلف مع زبائني، ثم أحرر عَقداً للعمل، أثبت فيه عدد القطع، ونوع خشبها، وزيها، ودهانها، وقيمتها، والمدة التي يجب أن تنجز خلالها، وبعد التوقيع على العقد آتناول العُربون، مذكراً الزبون أن يكون على صلة دائمة بي، فقد أحتاجُ إلى أن نتبادل الرأيَ فيما قد يعرض من مشاكل خلال العمل.

وفي واجهة مصنعي مكان خاص لعرض منتوجاتي، أعرض فيه خير ما أنتجت، عرضاً أنيقاً لائقاً، جذاباً، ليكون دعاية عملية حسية، تجتذب الأنظار، وتستهوي الأذواق.

والمصنع في حاجة دائمة إلى الخشب والمسامير والغراء والمِفْصلات والمغاليق والمتارس والنصال ومقابض الأ بواب، وما إلى ذلك، فأذهب بنفسي إلى بائعي الجملة، لأشتري ما أنا في حاجة إليه، بعد أن أتأكد من جودة الصنف ومتانته.

وعندما يحين موعد تسليم العمل، أكون قد أعددته قبل ذلك بيوم، وعرضته في الواجهة بأكمله. فإذا مرّ صاحبه في اليوم التالي أتيت به إلى الواجهة، وقلت: هذ ما أوصيتَ بصنعه، أهكذا هو؟ وفي الغالب يكون الجواب إيجابياً، وقد يبدو شيء لم يطابق رغبته، فيتم التعديل في الحال، ويتسلمه ممتناً، وأتناول باقي القيمة شاكراً، ثم يُحمل الأثاث إلى منزل الزبون.

وقبيل الساعة السادسة تجمع العُدد، وتوضع كل آلة في مكانها، ويجمع الخشب المصنوع فيوضع منسقاً في القسم المعدّ له، ويقفل المصنع، وينصرف الصناع محيين، وفي طريق العودة أمر ببعض الحوانيت لاشتري شيئاً من الفواكه، أو ما نحن في حاجة إليه، وحين أصل إلى منزلي أجد الجميع في انتظاري، فأنسى تعبي حين يلتف أولادي حولي، يحملون عني ما أتيتهم به، وبعد استراحة قصيرة يعرض كل منهم ما جدّ معه في يومه بإيجاز، فمنه السار المفرح، ومنه المثير المؤلم، ولكن — على العموم — تبقى هذه اللحظات ألذّ ما في العمر من متع ولذائذ.

الموضوع الرابع:

صف صيدلية ذهبت إليها لتشتري دواء ودوِّن المحادثة التي دارت بينك وبين الصيدلي.

عناصر الموضوع:

١ ــ وصف الصيدلية: موقعها، نظافتها، صُواناتها...
٢ ــ الحوار بيني وبين الصيدلي.

بسط الموضوع:

تقع الصيدلية التي أشتري منها ما أحتاج إليه من الدواء في شارع جانبي، غير مزدحم، ولكنه نظيف، والحجرة التي اتخذت صيدلية واسعة، فيها صُوانات ذاتُ رفوف زجاجية كثيرة، تقفل بأبواب زجاجية، وبجانب الحجرة حجرة أخرى صغيرة، اتخذت مخبراً لتحضير العلاج، فيها بعض الأدوات والعقاقير المختلفة، محفوظةً في زجاجات وصناديقَ صغيرةٍ وكبيرةٍ.

وفي وسط الصيدلية مما يلي غرفة التحضير منضدة عالية، وضع عليها ميزان دقيق حساس، داخلَ قفص زجاجي، ليمنع عنه الغبار، حتى لا تتأثر حساسيته، فيحدث خلل في زنة كمية الدواء.

وفي الزاوية اليمنى من الصيدلية منضدة صغيرة، عليها سجل كبير للادوية مدونةً وفق حروف الهجاء، وبجانب كل دواء بيان عن المعمل الذي أنتجه، والمستودع الذي يحويه، وقيمتِه، وعلى المنضدة ــ ما عدا هذا السجل ــ مصباح كهربائي، ومُيسرة، وسجل لتدوين الوصفات.

وأرضُ الصيدلية نظيفة، بل كل شيء فيها نظيف، ويغلب عليها اللون الأبيض، وأثاثها — وإن لم يكن ثميناً — فهو متين نظيف.

دخلت الصيدليةَ ذات مرة، ودار بيني وبين الصيدلي الحوار التالي:

— السلام عليكم.

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تفضل أهلاً وسهلاً.

وتناول الصيدلي الوصفة من يدي وأخذ يقرؤها ثم التفت إليَّ قائلاً: حسناً إن الطلب موجود فهل ترغب في أن تعرف قيمته؟

— نعم إذا شئت.

«وبدأ الصيدلاني يضع أرقاماً بجانب كل دواء في الوصفة، وكلما وضع رقماً أنظر إلى كميته، فتسرع دقات قلبي إذا كان الرقم كبيراً، وينتهي الترقيم والجمع وأتنفس الصعداء».

— ليس ثمن الوصفة كثيراً إنه إحدى وعشرون ليرة ونصف الليرة فهل أجهزه لك.

— نعم يا سيدي، ولكن ألا يمكن تخفيض المبلغ قليلاً؟

— يا ليت ذلك في حيز الإمكان يا سيدي، فالسعر محدود — كما تعلم — ونحن ملزمون بالتقيد بهذا السعر، دون زيادة أو نقصان.

— حسناً (وتمتد يدي إلى محفظتي النحيلة لتفرغ ما فيها، فاذا به لا يزيد على المبلغ المطلوب كثيراً فأحمد الله على ذلك).

وأعود إلى مقعدي، فالصيدلاني منهمك في تحضير الأدوية المطلوبة، وهو يتأكد من اسم الدواء ويقابل بينه وبين ما كتب في الوصفة، ولا يتركه من يده إلا بعد أن يتأكد من أنه هو المطلوب، ويأتي زبون آخر، فيحييه، ولكنه لا يتسلم منه الوصفة إلا بعد أن ينتهي من إعداد دوائي، وبعد لحظات يلتفت إليَّ قائلاً:

— هذا الشراب للصغير، يتناوله ثلاث ملاعق في اليوم، صبحاً وظهراً ومساءً

يتناول في كل وقت من هذه الأوقات ملعقة صغيرة منه، بعد خضّ الزجاجة طبعاً، وهذه تحميلة للصغير أيضاً توضع له قبل النوم لتخفف من حرارته الطارئة.

أما الحبوب الأخرى فهي للأم تتناولها عند اشتداد الألم عليها فقط، وهذا مرْهم يدهن به الجلد المصاب مرتين في اليوم، مرة صباحاً والثانية مساءً قبل النوم، ويجب أن يمسح المكان بالكحول قبل الدهن، أرجو لكم الشفاء العاجل وفيه العافية.

ــ عافاك الله، ولكن ــ عفواً ــ هذه الحبوب هل تؤخذ قبل الطعام أم بعده وهنا ضحك الصيدلاني ضحكة هادئة وقال:

هذا لا يهم، إنما ينبغي تناولها عند اشتداد الألم فقط، تأخذ منها حبة أو حبتين حسب شدة الألم.

ــ شكراً يا سيدي ومعذرة لكثرة أسئلتي فإنني أريد أن أتثبت من كل شيء حتى لا نقع فيما لا تحمد عقباه.

ــ هذا هو الصواب، وأرجو أن تجدوا الشفاء التام وعوّض الله عليك.

ــ أشكركم: السلام عليكم.

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

الموضوع الخامس:

تصور سفينة كنت على ظهرها، وفجأة اضطرمت فيها النار في وسط المحيط الهائج، حتى أحالتها إلى جبل من نار، ثم هوت إلى قرار المحيط.

صف ذلك.

بسط الموضوع:

لم يكن بدٌّ من ركوب السفينة «كمبوديا» على الرغم مما يبدو عليها من مظاهر الرثاثة والهرم والإعياء، فحملنا أمتعتنا، وصعدنا صفوفاً على سلم الباخرة، وبعد أن احتوتنا الغرف قليلاً، صعدنا إلى السطح لنلقي آخر نظرة على ميناء «بيروت» عاصمة القطر الشقيق لبنان الحبيب

كانت السفينة تمخرُ عباب البحر متهادية كالعروس، ولكنها تبدو عروساً متعبة، قد فاتها قطار الزواج المبكر، فهي تجري على صفحة الماء بتؤدة ورزانة، ولبثنا أياماً، ننعم بجو البحر اللطيف، ولياليه المقمرة الجميلة، تتجاذب مع المسافرين أطراف الأحاديث العذبة، ونتبادل النكات المختلفة.

ولقد أنسنا بالسفينة وأحببناها ووجدنا فيما هي عليه من رثاثة مادة للتنكيت لا تنضب، وراح بعضنا يتنبأ للسفينة أحوالاً مزعجة، ولكننا لم نكن نلقي بالاً إلى ما يعكر علينا صفو رحلتنا وضحكنا.

وآوينا في الليلة الرابعة إلى مضاجعنا، بعد سهرة ممتعة في بهو السفينة، إذ كانت الرياح في تلك الليلة باردة، فلم نستطع أن نسمر على السطح، ورحنا ننعم بدفء الفراش الناعم الوثير، تحملنا الأحلام المجنحة إلى أجواء السعادة والغبطه والاستمتاع.

واستيقظنا بعد منتصف الليل، ونحن نشعر بمثل الكابوس، يجثم على صدورنا، فيمنعنا من أن نتنفس، ونظرنا حولنا، فرأينا دخاناً يملأ الغرف، لم أر مثله في حياتي، فلقد كنت أشعر بأنني أمضغه لكثافته.

لقد هب السَفْر من نومهم مذعورين مروعين، وخرجوا إلى السطح مبهوتين، يصرخون فإذا ألسنة النار تتعالى مخترقة مستودع الأمتعة، وهي تدنو بسرعة من مستودعات الوقود وغرف البحارة.

وحاول البحارة ببطولة وبسالة أن ينقذوا الباخرة، بكل ما أوتوا من وسائل ولكنهم ارتدوا على أعقابهم عاجزين عن إخماد النار المتأججة، لقد كانت الريح شديدة، فكلما نجحت آلات الإطفاء في إخماد طرف مشتعل من أطراف السفينة أذكت الريح النارَ في أطراف أخرى، ولم يسع الربان إلا أن يأمر الركاب بالاستعداد للنزول إلى الزوارق التي أعدت من قبل وأنزلت إلى اليم.

وكانت سفينتنا ــ منذ اللحظات الأولى ــ قد استصرخت بالسفن القريبة منها، وأقبلت سفينة نحوها، وحاذتها وطلب ربانها من ربان سفينتنا أن يأمر الركاب بالانتقال إلى سفينته، فقد أفسح فيها لنا مكاناً، ولكن رباننا أبى، وطلب منه أن يبقى محاذياً سفينتنا ما أمكن، مؤملاً أن يتغلب البحارة على النيران المندلعة، وتنجو السفينة، وينجو ركابها. ولكن تقدير الربان كان خاطئاً، فلما أعطيت الأوامر بالنزول كان الهلع قد استولى على النفوس، فدبَّ الذعر، وعمت الفوضى، وأخطأ الربان خطأ ثانياً حين لم يأمر البحارة بحفظ النظام عند الهبوط إلى الزوارق، فسقط كثيرون في البحر، وابتلعتهم أمواجه الهادرة.

وكانت النيران تدنو بسرعة إلى غرفة الآلات والمراجل، والباقون على سطح السفينة لا يعرفون ما يترصدهم من أخطار، ولبثوا ينتظرون عودة الزوارق لتقلهم إلى السفينة المنقذة.

ووصلت الزوارق وأفرغت حمولتها، وعادت لتنقل مَنْ بقي على السفينة المحترقة من الركاب والبحارة، بما فيهم الربانُ، وبينا هي في منتصف المسافة بين السفينتين وإذا بصوت انفجار يصم الآذان، لقد انفجرت مراجل السفينة، ولاقى

من كانوا عليها حتفهم، وارتفع مقدمها بينا غاصت مؤخرتها في اليم، ثم هوت إلى قاع المحيط، وكان الأوامر قد اعطيت إلى الزوارق أن تبتعد، حتى لا تجذبها السفينة إليها وهي تهوي إلى القاع.

وراحت الزوارق تطوف حول المكان الذي دفنت فيه السفينة إلى الأبد، علها تجد بعض من لا يزال فيهم رمق من حياة، ولكنها عادت دون أن تعثر على أحد.

ووجدنا من ربان السفينة المنقذة وبحارتها وركابها كل عون، ومواساة، وحين ألقت السفينة مراسيها في ميناء مرسليا كنت في طليعة الهابطين إلى البر، فحمدت الله على السلامة، وآليت ألا أركب البحر ما حييت.

الموضوع السادس:

زرتَ إحدى الحدائق في أيام الربيع، صِفْها وقارنْ بينها وبين حالتها في أيام الخريف.

بسط الموضوع:

ها هو ذا الربيع تشعر به في مرح الأطيار، وعبير الأزهار، وفي الحدائق والرياض. حيث الأشجار تكللها تيجان الظلال والأنوار.

ها هو ذا الينبوع الصافي في صدر الحديقة الغناء يترنح نعومةً ووداعةً، وتتلاحق مياهه بلوريةَ الرنين، ترطب الأعشاب والأدغال في جريها الحثيث، حيث لا تدري.

إنه الربيع مرت أنفاسه الذكية بحديقة مدينتنا الناشئة، فبعثت الحياة، في كل ذرة من ذرات تربتها المعطرة، فاهتزت، وربَتْ، وأنبتت من كل زوج بهيج.

والطير على الأفنان هنا وهناك تغرد صادحةً، يختلف جمال أصواتها، ويتفاوت، كما تختلف ألوان الأزهار في بهجتها وسحرها، فتتنقل مرحةً بين الأغصان الغضة الناضرة، والأفنان اللدنة الزاهرة.

والفراشات زهرات طائرات، تحط على زهرات عطرات، فلا الأريج الفواح ولا الرحيق العذب يبرد شغفها ويروي ظمأها.

والناس منتشرون في دروب الحديقة، وعلى مروجها الخضر، يتألق في جباههم ضوء البِشْر، ففي كل قلب ربيع، وفي كل نفس روض، فالربيع قد أقبل، وها هي ذي القلوب صافية كصفاء نداه، والنفوس جميلة جمال أزهاره، والأودية ضاحكة بالورود، خفاقة النسمات، والطبيعة كلها متشحة بردائها الزاهي، وها

هي ذي السعادة تغمر النفوس جميعاً، وتنسيها ما لاقته من برد الشتاء، وأعاصيره القاسية الهوجاء.

ولقد زرت هذه الحديقة في الخريف الماضي، وكثيراً ما أزور الحدائق في هذا الفصل المعتدل فأشعر فيه بأن الطبيعة في مأتم، فالأشجار تتعرى من أوراقها ببطء، وتفقد جمالها الساحر الفتان، والكآبة بادية في كل مكان من الحديقة، في النبع الصافي الذي تحول خريره إلى لحن جنائزي حزين، في الأشجار التي تعرت من أوراقها بعد أن اصفرت وجفت، والرياح تنطلق من عقالها هادرة فترتجف الأغصان هلعاً وتتقصف مفارقةً أحضان أمهاتها، في الشمس التي ضعفت حرارتها، حتى غدت باهتةً صفراء لا روح فيها، في السماء تحجبها غيوم متقطعة، وقد تتكاثف على حين غرة، فتسكب مزنها الهتون، فتغسل الحديقة غسلاً، وتملأ ممرات الحديقة بالمياه؛ ولكن السحب سرعان ما تنقشع فتعود إلى السماء زرقتها الفاتنة وصفاؤها الجميل.

الموضوع السابع:

خسف القمر ــ ذات ليلة ــ فعمت العتمة كل مكان، بعد النور البهي الذي كان يغمر به الأرض، وتعالى الصياح، وقرعُ الأواني والصفيح، لتخويف الحوت الذي ابتلع القمر ــ على حدّ قول الجدة ــ ثم راح القمر يظهر شيئاً فشيئاً، حتى عاد إلى بهائه وتألقه.

صف ذلك كله.

بسط الموضوع:

كان ذلك منذ أربعين عاماً مضت، وفي ليلة من ليالي تموز الجميلة، حين كان الناس يفرون إلى الأسطحة، وصحون الديار، التماساً لنسمة عليلة، تجلو عن النفوس برمها، وعن الأجسام حرّها، بعد يوم قائظ لاهب، كوته الشمس بشواظها.

في تلك الليلة الآنفة الذكر كنت واحداً ممن انتشروا على السطح فوق عدد من الحصر نصف المهترئة، لا عمل لنا إلا كرعُ كؤوس الماء الثلج، والاسترخاء في مهب نسيمات تأتينا من جهة الغرب بين الحين والحين، ترطب ــ على جفافها ــ أجسامَنا، والتمتعُ بنور القمر البديع الذي ينساب عذباً لطيفاً رقيقاً.

الكل سادرون في استرخائهم وتأملاتهم، لا تسمع حركة، ولا ضجة إلا بعض قهقهات، تعبر السكونَ رشيقة من بعيد، تختلط بها أحياناً صيحات زاجرة، يصدرها الآباء إلى نفر من الصبيان الصغار الذين يفسدون هدوء الليل بحركاتهم ووشوشاتهم، صيحات كلها دعوة إلى الهدوء والسكينة، كيلا يتعكر جو المتعة

الذي يلفء الكون في مثل تلك الليالي، فالنسمات عليلة، والقمر بدر، والأجسام منهكة، والسماء صافية مرصعة بالنجوم المتلألئة، وليس امتع من أن يرسل الإنسان بصره إلى السماء، حيث لا حدّ ولا نهاية، نجوم ونجوم، وفضاء واسع كبير، والقمر يرسل ضوءاً بهياً تنعم به النفس، ويرتاح اليه البصر، ويسرح عبره الخيال محلقاً حتى يتيه في البعيد البعيد، ويجول معه الفكر في آفاق هذا الكون العجيب.

كنت على وشك الاستسلام لغفوة لذيذة ناعمة حينما هممت جدتي تستعيذ بالشيطان الرجيم. ثم تبسمل (تقول: بسم الله الرحمن الرحيم) وتحوقل (تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله)، وبدأت حركات نشيطة تصدر، من نهوض المضطجعين، ودبيب خطى سريعة كانت تهبط السلم بخفة إلى أسفل، كان صوت الدبيب من كل جهة ومن كل مكان، والناس في حركة ونشاط، هذا يهبط وذاك يصعد، والأصوات تعلو وتعلو متلاغطة، لا تتبين من الكلام إلا بعضه: الحوت... القمر... الخسوف... مسكين...

لقد التقمه الحوت.. يا حرام.. يا لطيف..

جو من الرهبة والفزع غريب، لم أعرف له سبباً، جعلني أميل على صدر جدتي، أسألها عن سبب هذا النشاط المفاجىء ما الذي حدث؟ وبصوت متهدج ممزوج بالفزع والايمان والرجاء، قالت جدتي: الحوت!!

ورددتُ بصوت واجف: الحوت؟!!

وأضافت جدتي بصوت مضطرب: الحوت سيبتلع القمر، ان لم تتداركه رحمة الله وعنايته.. يا لطيف.. وحبات السبحة الطويلة تتلاحق، وتتساقط من بين أناملها المعروقة.

كان إخوتي قد عادوا إلى السطح، وقد أخرجوا كل ما في المطبخ من هواوين وقدور وصحون وصفائح وآنية نحاسية، ليضربوا بأيديهم وبالعصي، وليضربوا بعضها ببعض.. القرع عنيف ليس على سطحنا فقط بل على الأسطحة كلها ومن الشوارع والأزقة، الأبصار شاخصة إلى السماء، والأيدي تهوي على الهواوين والصفيح.

كان أبي قد تسمَّر بصره في البدر، وقد غاص قسم منه بين شدقي الحوت، بينما كانت أمي تحملق فزعةً مشفقةً وهي تردد: يا لطيف.. يا لطيف.. لقد تغلب الحوت على القمر!!

ولفَّ الكون ظلام رهيب وعتمة حالكة، أو هكذا خيل إليَّ يومئذ، وغاص القمر الجميل في جوف الحوت، فلا ترى إلا جزءاً محمراً قاتماً معتماً، ووجوهاً علاها الفزع، وارتسمت عليها معاني الرجاء، حقاً إنه رهيب.. هائل هذا الحوت!! إنه يمتد من آخر الأفق، له رأس واحد، وذيول متعددة، له فم كالمغارة، يستطيع أن يبتلع القمر وعشرة رجال أيضاً!!

كان القرع العنيف يصمُّ أذنيَّ ممزوجاً ــ كما كان يخيل إليَّ ــ باستغاثات القمر وهمهمة أمي، وعربدة الحوت وألمه من وقع الأصوات على مسمعيه، وبتسبيح جدتي.

المزيدَ من الطرق، المزيدَ من الصياح والقرع! لقد لاحت هزيمة الحوت! مزيداً من الصلوات والدعاء، مزيداً من العون، شددوا الطرق، وارفعوا الأصوات أكثر، إياكم أن تعطوا الحوت فرصة يستجمع فيها قواه، فقد بدأت نهايته، انه النصر، ها قد بدأ القمر يخرج من جوف الحوت، وها هو النور يتسرب من جديد ناحلاً باهتاً منهكاً.

الموضوع الثامن:

رأيتَ فتى ينهالُ بفأسه على جذع إحدى الشجيرات، وأنت جالس على مقربة منه، في يوم ربيعي جميل.

بيّن المشاعر التي كانت تعتمل في نفسك حيال بهاء هذا اليوم، واذكر الحديثَ الذي وجهته للفتى عن ضرورة المحافظة على الشجرة.

بسط الموضوع:

كان ذلك في يوم من أيام الربيع الضاحكة، السماء صافية الأديم، فلا ضباب يحجب العين عن التمتع بهذا الجمال الطبيعي الرائع، ولا غيوم تحجب أشعة الشمس الدافئة، وكانت مياه الغدير القريب تتدفق صافية باردة، لتشيع الخضرة الزاهية، والنماء، والخصب فيما حولها. وكان الهواء العذب النقي المعطر بأريج الأقحوان يملأ الصدور صحة، وينعش الأرواح والأجسام.

الطبيعة في عيد، وقد أغدقت على السهول والجبال أجمل ما عندها من روائع الحسن، ومفاتن الجمال، ففي كل مكان زهر فواح العبير، ينبعث عن الأزهار النضرة التي تملأ الأجواء أريجاً عطراً، والأرض بساط سندسي رائع، يستلب الألباب، ويستهوي القلوب.

وقد رقّ النسيم وراق ورقصت له أغصان الأشجار، وصفقت له أوراقها، تحية له وترحيباً به، والناس قد تفرقوا في هذه السهول، وعلى منحدرات الجبال، يتمتعون بخرير الغدير، وجمال الزهور، وأريج العطور.

كانت الشمس ساعتئذ تتعالى متهادية تيهاً ودلالاً، وكنت أرقب مسيرها، وانعكاس أشعتها الزاهية على الخضرة الناضرة. في تلك اللحظة وعلى مقربة مني كان فتى، لم يتجاوز الخامسة عشرة، يهوي بفأسه على أصل شجرة صغيرة غضة، دون أن يدرك مبلغ الضرر الذي سيلحقه بهذه الشجرة التي لم يكتمل نموها بعدُ.

وهنا أسرعت إليه، وصحت به، فأمسك عن الاستمرار في عمله التخريبي الشائن، ولكنه — وهو يرى أنه حر فيما يصنع، فالحقل يخص أسرته — رمقني بنظرة فيها كل معاني الاستياء، فما هي صفتي بالنسبة إليه، حتى أحشر نفسي فيما يعنيه هو، وأفراد أسرته، دون سواهم.

ودنوت منه، وكأنني شعرب بما يجول في نفسه من امتعاض، واهتياج، وبادرته بقولي: إنني لا اعترض على عملك، لأنه أمر خاص بك، فإذا شئت أن تتلف هذه الأشجار، وتعري هذه السفوح من خضرتها، وتذهب بجمالها، وبهائها، وروعتها، فهذا شأنك أنت يا بني.

هدأ الفتى قليلاً، وطرح الفأس جانباً، فأخذته من يده وجلسنا على صخرة قريبة من الغرسة المصابة وقلت: هذه الغرسة ألم يدفن معها والدك قطرات من عرقه ودمه، لتكون ذات يوم مصدر ثروة لك، ولأ بناء أمتك؟

قال: بلى.

قلت: أليست هذه الشجرة بالإضافة إلى غيرها من الأشجار التي أراها أمامي تملأ السفوح، والوديان، هي زينة بلادنا ومصدر خصبها ونضرتها؟

قال: بلى، إنها لكذلك..

قلت: وهذه الشجرة الصغيرة المبللة بندى الصباح، والمجللة بالنور، أليست بهجة وجمالاً لهذا الوطن الذي يؤمه الأغراب من كل مكان ليتمتعوا بجمال سحره؟

قال: إنه لكذلك.

قلت: فكيف تكون حال بلادنا، لو أن سهولها وجبالها وأوديتها خلت من هذه

الثروة والجمال؟ هل يؤمها أحد، وهل ينعم أهلها بالثروة والرخاء والعيش الهنيء؟

قال: لا، أبداً.

قلت: لقد قرأت فيما قرأت دون شك أن هذه الأشجار تلطف الهواء وتأتي بالسحب، لتملأ أوديتنا وسهولنا بالمياه، فيعم الخصب والنماء جميع الأرجاء هذا عدا عما نحصل عليه من ثروة وغنى، عندما نستثمر هذه الأشجار، فثمرها اللذيذ يدفع عن المواطنين غائلة الجوع والمرض، وخشبها نستعمله في بناء بيوتنا ومعاملنا وجسورنا، فهل يحق لنا أن ندمر هذا كله؟

قال: يقيناً لا.

ووجدت الفتى قد آلمه جداً ما بدر منه، وبدت إمارات الندم والأسف على محياه، وشعر بأنه أتى أمراً تخريبياً كبيراً، والتفت إلي يقول: أعدك بأنني لن أقترف ذنباً كهذا ما حييت، ونهض ونهضت، وسرنا معاً خطوات، يحدثني عن جهود أبيه المضنية في هذه الحقول، ثم ودعته، وهو يشد على يدي بمودة وحب وإخاء.

الأسلوب القصصي

إن الحياة في ذاتها قصة، أو هي مجموعة قصص منها المشرق الوضاء، ومنها القاتم الكالح، قصص مختلفة متباينة لا حصر لها، ولهذا فإن أدب القصة له المكانة الأولى في فنون الأدب، لأنه أدب الحياة، يعبر عنها ويقص حكايتها ويترجم عن مآسيها وأفراحها ومباهجها وأتراحها.

ولقد احتلت القصة اليوم مكانتها الرفيعة في الأدب العالمي، وغدا القصاصون أرفع الأدباء شأناً وأعلاهم مكانة، وأبعدهم ذكراً، وأبقاهم أثراً.

وحين تقدمت صناعة (الأفلام) وجدت نفسها في مسيس الحاجة إلى القصص الرائعة التي تمتاز بالواقعية والتعبير عن أدق خوالج النفس ومشاعرها، فبرز قصاصون عالميون فحول، وصلوا بأدب القصة إلى مكانة لم يبلغها أحد من قبل، وأقبلت دور النشر تشجع هؤلاء القصاصين، وتشحذ هممهم وتوري زندهم، وتغريهم بالأموال الطائلة، حتى اكتسحت القصة كل نشاط أدبي آخر.

إن ما تمتاز به القصة الناجحة هو الواقعية، وحسن التعبير والصدق، فكلما كانت القصة قريبة من الواقع، وشخصياتها من أولئك الذين نلتقي بهم في حياتهم اليومية، أو نقرأ عنهم في الصحف كان نصيبها من النجاح عظيماً.

والقصة تعتمد فيما تعتمد على وصف الأشخاص، والأماكن، والألوان، وغير ذلك، بدقة متناهية، بحيث تعطي صوراً واضحة، تمكن القارىء من أن يرى القصة وكأنها شريط صوتي ملون يمر أمامه.

ولكل قصة ثلاثة عناصر أساسية:

١ ــ الموضوع. ٢ ــ الشخصيات. ٣ ــ الحوار.

١ ــ **الموضوع:** هو «الفكرة» التي تدور حولها القصة، أو «المبدأ» الذي نريد إبرازه للقارىء عن طريق هذه القصة.

٢ ــ **الشخصيات:** تتألف شخصيات القصة من «البطل» وهو الذي تدور حوله أعظم حوادث القصة وأخطرها، وينبغي أن يذكر في كل مناسبات القصة، حتى يبقى بارزاً في ذهن القارىء، فلا ينقطع عن التفكير فيه، والتأثر به، أو النقمة عليه حسب موضوع القصة، وأما الشخصيات الأخرى فيجب كذلك أن يكونوا ممن نصادفهم في حياتنا اليومية ولا نجد في تصرفاتهم ما يستحيل أن يقع في عالمنا.

٣ ــ **الحوار:** قد نحتاج إلى إقامة حوار بين شخصين أو أكثر من أشخاص القصة فيجب أن يكون الحوار واضحاً بسيطاً.

وتمر القصة بالمراحل التالية: التمهيد، العقدة، الحل.

فالتمهيد: يكون في مطلع القصة ليهيء الآذان إلى وقائعها، ويعرِّف القارىء بأشخاصها.

والعقدة: هي الجزء الهام من القصة، وفيه تصل حوادثها إلى المشكلة التي تثير في نفس القارىء التطلع والقلق والاضطراب، والأمل أو اليأس، وكلما كانت العقدة مغلقة أثارت نفس القارىء، وحفزته على التفكير في الخاتمة، والتلهف لمعرفة النتيجة.

والحل: ويكون قوياً موجزاً، مرتبطاً مع ما مرَّ من حوادث القصة منتهياً بها إلى الغاية التي أرادها القصاص من وضع قصته.

الموضوع التاسع:
قصة

الصيادان

بسط القصة:

كان أبو سعيد يسكن في قرية قريبة من مستنقع العمق «حين كان هذا المستنقع مع منطقة اللواء كلها جزءاً من سورية الأم» وكان له ولد يعمل معه في الحقل للمستنقع الواسع.

ومرت سنة عجفاء بأبي سعيد، فباع كديشه وحماره، ونفق ثوره وباع كل ما يملكه حتى المحراث.

غير أن أبا سعيد لم يفقد كل شيء، إنه صياد ماهر، فهو عندما يتكاثر البط والإوز البري يمضي في الأمكنة الضحلة من المستنقع، مستصحباً ابنه سعيداً إذ كان الآخر صياداً ماهراً.

فإذا كثرت طيور المستنقع أكل العيال لحماً طرياً، واستطاع أن يبيع مما يزيد على حاجة العيال ما يستطيع أن يشتري به صفيحة من الزيت السلقيني الممتاز. لتكون مع البرغل غذاء الشتاء المقبل.

وكان سعيد فتًى خفيف الحركة جم النشاط، يحبه أبوه حباً جماً، وبخاصة بعد أن أصبح شاباً يستطيع أن يحمل عن أبيه بعض العبء الذي أثقل كاهليه.

وكان الذي يشاهد سعيداً يلمح على وجهه كل ملامح الخير والطيبة، إلاّ أنه كان قد أصيب في طفولته بحمى أفقدته السمع، والنطق، فلم يعد يصلح لأي عمل سوى الأعمال المنزلية البسيطة، والذهاب مع أبيه إلى الصيد.

وفي ذات يوم سمع أبو سعيد أن الإوز يملأ جو المستنقع، وأن عليه أن يقوم برحلة صيد فقد كانت هذه الفترة من العام خير وقت لصيد الإوز.

وركب أبو سعيد قارباً صغيراً كان يستعمله لصيد السمك أحياناً، أو لنقل الحنطة إلى المطحنة في القرية المجاورة، وأتى سعيد بعدة الصيد، وما تيسر من الزاد، واتخذ له مكاناً في القارب الصغير.

سار القارب ببطء، يتهادى فوق المستنقع، يمخر مياهه الضحلة الظليلة، وبين لحظة وأخرى كانت الأسماك تتراءى للصيادين، وفي لمح الطرف كانت الطيور تغوص بمناقيرها لتحصل على قوتها، فلا تكاد تنقض حتى ترتفع، وفي منقارها سمكة صغيرة تختلج ثم تسكن في لحظات.

هذه هي الحياة، طائر ينقضُّ على سمكة فيزدردها، وصياد يسدد بندقيته إلى الطائر فيهوي مضرجاً بدمائه، ليكون بعد قليل طعاماً لذيذاً يملأ بطنه وبطون أطفاله، والصياد نفسه لن يكون في منجاة من هذا كله، فإن الموت يترصده أنّى ذهب وحيثما حلّ.

النزاع في كل مكان، في الجو والبحر والبر، فوق الأرض وفي جوفها، لا فرق. إنه النزاع الأزلي من أجل الحياة.

وكان القارب قد توغلّ في المستنقع، منساباً على الماء الضحل، فكلما أراد الصياد أن يسرعه ضرب أرض المستنقع بعصا طويلة، فيمضي القارب في الممرات المليئة الضيقة، بين القصب ورؤس الأوراق النامية وهذه الممرات الضيقة يعرفها أبناء المنطقة من الفلاحين أو الصيادين، وهم يمرون خلالها بقواربهم بمهارة فائقة، دون أن يضلوا طريقهم.

ويمتد القصب، يكثف في بعض البقاع من المستنقع، حتى يصبح المرور بالقارب صعباً شاقاً، إلى أن يصل إلى بقعة مكشوفة فيعود إلى استوائه وتهاديه.

وكان القارب قد وصل إلى مكان ضحل من المستنقع، فانتحى به أبو سعيد، وثبت العصا في قاع المستنقع، بحيث صار القارب بينها وبين دغل من القصب.

ولبث برهة ينتظر مرور الإوز فلم يطل انتظاره، ومرت إوزة، فأطلق أبو سعيد النار عليها فسقطت فوق مياه المستنقع، وفي لحظات كان القارب بجانب الأوزة التي تناولها سعيد ووضعها في مكان من القارب معد للصيد.

واستأنف أبو سعيد الترصد واصطاد ثانية، واصطاد سعيد أوزة سمينة، وفرح بها لدسمها ولحمها، وظلا هكذا مدة تجاوزت الساعتين، وأقبل الظهر، وطلب أبو سعيد من ابنه أن يعد لهما الزاد.

واضطجع أبو سعيد على طرف القارب، ينظر في السماء الغائمة، التي بدت مثل قبة من الزجاج العتم، ولم تكن ثمة سحب، وإنما هي غلالات قاتمة مسدلة على السماء، كأنها غلالات الضباب المتصاعد من الماء، وهكذا استحال على الصيادين أن يتبينا موضع الشمس.

وأعد سعيد الطعام، ودعا أباه، ولكنَّ أبا سعيد كان في شغل عن ابنه. كان يسمع خوار جواميس، نظر إلى الخلف فرأى قطيعاً من الجواميس، يتجه نحو المكان الذي هم فيه بسرعة ووحشية مخيفة، وفوق أحدها أحد الرعاة قد انتصب على جاموسه أشعث الشعر كريه المنظر يزعق زعيقاً وحشياً.

وكانت الجواميس تتقدم من القارب، وما هي إلا لحظات حتى اجتاحته، وحطمته تحطيماً وسقط الأب وابنه في المستنقع، وسقط معهما كل ما كان في الزورق من أدوات وزاد وصيد، أما الجواميس ومعها راعيها المتوحش فقد مضت دون أن تعير أي التفات لما حصل.

وكانت المياه ضحلة في تلك البقعة من المستنقع، ولكن القارب لم يعد يصلح لشيء أبداً، كانت السماء محتجبة ولو لا ذلك لكان من السهل معرفة مكانهما من المستنقع أو الجهة التي ينبغي عليهما أن يتجها إليها.

وأمر أبو سعيد ابنه أن يتبعه، ومضى يتحسس الممرات، ليختار أسلمها وأسهلها وأضحلها ماء، وكانت الأسماك الوحشية ذات الشارب تمرق من جانبهما أو من بين أرجلهما ولم يستطيعا التقدم كثيراً خشية أن يضلا الطريق، ولو كانت

الشمس بادية للعيان لاستطاعا أن يتخذا سبيلهما إلى أقرب قرية على ساحل المستنقع، غير أن المكان الذي هما فيه لا تظهر منه أية قرية قريبة أو بعيدة.

ودب الذعر في نفس سعيد، وأخذ بدنه يرتعد، إنه غلام لم يقو عوده بعدُ على تحمل مثل هذا الخطر الداهم، كانت الريح تهب دافئة في أول النهار، ولكنها الآن وقد اقترب المساء ابتردت، وأخذت تؤلم الصيادين، وكان السكون سائداً، فلا صوت سوى خشخشة الأسماك والحيوانات المائية الأخرى بين القصب.

وأشار أبو سعيد إلى ابنه أن يتبعه ليعودا إلى البقعة المكشوفة من المستنقع فقد يريان قارباً، يمر من هناك، كما أن الحيوانات المائية لا تلبث أن تخلي المكان لتذهب إلى وكناتها بين القصب والأعشاب النامية.

وشعرا بالفزع يرعد جسميها، كما أنهما شعرا ببرودة الماء تزداد فتؤثر فيهما تأثيراً مؤذياً فلقد كانا قد أصيبا بالبرداء، وعولجا طويلاً حتى شفيا، أو هكذا خيل إليهما، وها هي ذي تعود وفي هذا الظرف العصيب.

وبدت بوادر الظلام، فظلال الأشياء على سطح المستنقع تزداد قتاماً، وقواهما تنفد بين ساعة وأخرى.

وكان أبو سعيد قد احتفظ ببندقيته سليمة، أما سعيد فقد أفلتت منه، ولا يدري أين غاصت ولكن ما نفعها؟ واشتد الجوع بهما لكن الرعب قد طرد شهيتهما إلى الطعام.

وأقبل الليل وكان رهيباً قاتماً، غير أن السحب أخذت تنزاح قليلاً، فتبرز نجوم هنا، ونجوم هناك، يتلألأ ضوءها متراقصاً في أعماق مياه المستنقع، واستبشر أبو سعيد خيراً وقال لابنه: إن استطعنا أن نصبر ونقاوم سواد هذا الليل فإننا سننجو في الغد إن شاء الله.

ووجد أبو سعيد مكاناً أكثر ضحالة، وأشار إلى ابنه أن يتبعه، وانحسر الماء عنهما إلى منتصف الفخذين، فاستراحا قليلاً، ثم شرعا يحومان مده دون أن يتجاوز الماء ركبتيهما، وحذاؤهما الطويل كان يقيهما برودة الماء، وقد يدخل بعض الماء من

رقبة الحذاء، وكان سطح الماء هادئاً فليس ثمة ريح تستطيع أن تحيل المياه الضحلة إلى أمواج عالية.

وكان أبو سعيد يخشى على ابنه أن تخور قواه، فيفقد توازنه، ويهوي، فقد يغرق لفرط الإعياء ولكنه أمسك به، وكان يحاول جهد طاقته أن يعثر على نَشْزٍ في المستنقع، يريح عليه ولده ولكن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح.

وفكر في أن يجلس على ركبتيه، فوصل الماء إلى عنقه، وكاد يعيقه عن التنفس، وكان يرجو أن يريح سعيداً على جسمه، ليتمكن من الظفر ببعض الراحة، فلما لم يستطع آثر أن يقف ليبث فيه الشجاعة والتجلد والثبات.

وانتصف الليل وكان الجوع يفري أحشاءهما، والبرد يهرأ جسميهما، وضعفت مقاومتهما ضعفاً كبيراً، بل كانت في سبيلها إلى التلاشي، وأخذ أبو سعيد يفكر في الأسرة التي تركها خلفه، تنتظر عودته بالصيد الكثير واللحم والشحم كيف ستقضي ليلها؟ وغداً عندما يصلها نبأ غرقه مع ابنه ماذا سيكون حالها؛ وفكر في الفقر والتشريد والجوع فكر في كل ذلك، ولكن ما الفائدة؟ إنه الآن في مكانه، بين أعواد الغاب، لا يستطيع أن يغادره، وهو منذ مدة يحاول أن يمسك بسعيد، فلا يهوي إلى قاع المستنقع.

كانت النجوم تلتمع في السماء وتقشعت الغيوم. آه لو أن السماء كانت صافية الأديم في النهار إذن لكان الآن ينعم بالدفء والأمن والراحة مع ولده سعيد وبقية أفراد الأسرة، وماذا يهمه لو خسر القارب والصيد، إنه خسارة تافهة لا تذكر.

وبدت تباشير الفجر، والتفت أبو سعيد إلى الجهة التي ينبعث منها الضوء الشاحب، لقد عرف الآن مكانه من المستنقع وعرف كذلك الجهة التي تقع فيها قريته، واستحث سعيداً على الصبر والمقاومة، وكان نور الفجر قد أحيا فيهما ميت الأمل، فانتعشا، ونسيا ما هما فيه من جوع وإعياء، وكان أبو سعيد طوال الليلة يحمل بندقيته على عاتقه، لئلا تمس الماء فتتعطل الذخيرة، فقد يحتاجان إليها، وبدت تباشير الصباح، ودبت الحياة في المستنقع من جديد، وأخذ أبو سعيد يحدق في الأفق الوردي، إن منزله هناك، وأمسك البندقية بيد، وأمسك سعيداً باليد الأخرى.

وظهرت أشعة الشمس من خلال القصب، وبدت الألوان مختلفة زاهية، وأخذ الصيادان يشقان الماء خائفين، ولم يعثرا على قارب بل لم يصادفا أي قطيع من الجواميس.

إنهما يتجهان إلى القرية، ولكن المسافة التي قطعها القارب في ساعات كيف يقطعانها؟ وهما في منتهى الإعياء والجوع، وخطر لأبي سعيد أن يصطاد شيئاً، أي شيء، لأنهما شعرا بأن الجوع سيقتلهما وسارا مدة، ودخلا في ممرات ضيقة، كانا قد مرّا بها على قاربهما الصغير البائس، ولم يجتازا مسافة تذكر.

رأيا قارباً يجري في غير اتجاههما، فصرخ أبو سعيد، ولكن دون جدوى، فالقارب كان موسوقاً بحمولة من القمح، وهو في طريقه إلى المطحنة، فلم يلتفت صاحبه إلى صياد متسكع!..

وانتصف النهار، وهما يسيران ببطء شديد، تغمرهما المياه في بعض الأماكن إلى العنق، وفكر أبو سعيد في أن يلقي البندقية، ويريح يديه وعاتقه، ولكنه كيف يتخلى عنها، وقد يمر الآن قارب فيندم حينئذ على تركها.

ومرت في تلك اللحظة إوزة فأطلق عليها النار، فسقطت على مقربة منهما. ومضى أبو سعيد فأتى بها، ونتف ريشها وراح يقتطع من لحمها ويعطي ولده شيئاً يأكله ومضغ هو قطعة من الفخذ لم تزل دامية، فشعر ببعض الراحة، ولكنه وجد مزاق اللحم مرّاً، ثم ألقى الباقي وقذف بالبندقية وتخفف منها.

وأخذت الشمس تميل إلى المغيب، وكانا قد تخففا من ملابسهما خلال النهار فكانا إذا وصلا إلى مكان عميق القعر سبحا قدر طاقتهما، ثم استويا بأرجلهما على القاع من جديد.

وخشيا أن يضطرا إلى قضاء ليلة أخرى في المستنقع وفي هذا هلاكهما المؤكد، فأغذا السير. دون تمهل، ولكن سعيداً لم يعد يحتمل، فهوى، وأنهضه أبوه، وأسنده على كتفه، ولكنه لم يسر سوى مسافة قصيرة حتى سقط ثانية، ورجا أباه أن يتركه حيث هو، وتوسل أبو سعيد إلى ابنه أن يتجلد فلم يعد يفصلهما عن المنزل إلا مسافة قصيرة ولكن عبثاً فعل.

وبدأت أذنا أبي سعيد تطنان، وبصره يزوغ، أهو الجوع، أم البرد، أم الإعياء، أم البرداء الخبيثة عادت إليه، أم هي كلها معاً، إنها ساعة ويصل إلى الشاطىء، ويلقى الأحبّة، فليمض إذن دون تباطؤ، أو انحراف، فهو في طريقه الذي يعرفه معرفة تامة.

ومرَّ بمنطقة ذات قصب كثير، ولكن الشاطىء لا يزال بعيداً، غير أنه كان يشاهد الدخان الذي كان يتعالى من مداخن القرية، فإذا لم يحد عن الدرب، وإذا بذل مجهوداً مضاعفاً وصل في ساعة متأخرة من المساء.

وبدأ ينهج، إنه يكاد ينوء بحمله، كان يخشى أن يقبل الظلام فيعوقه عن التقدم، أتراه ضلّ الطريق، أنه يعرفه جيداً وقد قطعه بقاربه مرات ومرات، ولكنه في هذه المرة يجده طويلاً، فليغذ السير، لا بأس، إنه ينهج، وقد تحول تنفسه إلى فحيح، والفحيح إلى صفير

رباه إن يشعر بصدره يكاد يتمزق، هل يلقي حمله؟ الله أكبر إنه ولده حتى لو كان ليس كذلك كيف يرمي به في فكي الموت، ولكن ماذا حلَّ به هو، إنه لم يعد يقوى على التقاط أنفاسه.

وأزاح ابنه عن ظهره وأسنده لئلا يهوي واسترد أنفاسه قليلاً وكان سعيد فاقداً الوعي تماماً.

وامتد رواق الظلام، ولم يعد يرى سوى بصيص ضئيل منبعث من قريته التي أضحت قريبة منه ولكنه لا يرى أحداً، لقد كانت أسرته تظن أنه في إحدى تلك القرى المنبثة حول المستنقع، ومن عادة هؤلاء جميعاً ألاّ يفسحوا لضيفهم طريق العودة إلا بعد ثلاثة أيام على الأقل.

واشتد بالأسرة القلق طوال الليلة الثانية، وبعيد الفجر، خرج الأولاد إلى شاطىء المستنقع فلم يجدوا شيئاً، وجاءهم أحد الرعاة يقول إنه شاهد شبحاً يقترب من القرية، ولكنه اختفى بعد ذلك بين القصب وكان هذا الشبح يحمل شيئاً قد يكون جثة وأشار إلى الجهة التي لمحه فيها.

واستعاروا قارباً، ومضوا في الاتجاه المشار إليه، ولم يبتعدوا طويلاً حتى لمحوا جثة طافية، لم يظهر منها فوق الماء سوى الرأس والقسم العلوي من إحدى الذراعين، إنه أخوهم سعيد وأسرعوا، ويا لهول ما رأوا!!

كان أبو سعيد قد شعر، وهو يقترب من الشاطىء، بأنه لن يقوى على الوصول إلى الشاطىء حياً، وأن كل جهد يبذل في هذا السبيل سيضيع دون جدوى، وقد يفوت على نفسه إنقاذ ولده من الموت، فلما لم يعد في قوس التَجلدِ منزع، هوى بحمله إلى القاع جاعلاً من نفسه وسادة لولده يبقى بواسطتها رأسه فوق مستوى سطح الماء.

واستيقظت القرية باكية لتشيع أبا سعيد إلى مثواه الأخير.

السراب

الكاتب الهندي: رابندرانات اشك

راح «بكر» المزارع القادم من قرية «بي سكندر» يتأمل الناقة بعينين نَهِمتين، حتى زجر أخيراً «تشودوري ناندو» وهو مضطجع تحت الشجرة: «ماذا تفعل عندك يا هذا؟...» فازداد «بكر» اقتراباً وأومضت عيناه لحظة في محجريهما الغائرين، وأشرق وجهه بابتسامة واهنة وقال: «كنت أتأمل ناقتك... ما أبدعها من ناقة!».

وارتاحت نفس «تشودوري» عندما سمع أطراء لأحد حيواناته، وقال: «أية ناقة تعني؟» فأشار «بكر» نحوها قائلاً: «الرابعة من اليسار».

وازداد «بكر» اقتراباً وقال: أصارحك يا تشودوري أنني لم أرَ أجمل من ناقتك في السوق كلها! فقال «ناندو» بزهو: ولماذا هي وحدها؟ كل إبلي تعادلها جمالاً، لأنني أعنى بتغذيتها.

فسأله «بكر» في صوت خفيض متردد: هل تود أن تبيعها؟

ــ لهذا جئت بها إلى هنا.

ــ إذن فاذكر لي سعراً معقولاً.

وتفحص «ناندو» ــ بعينيه الثاقبتين ــ بكراً من رأسه إلى قدميه، ثم قال مبتسماً:

ــ هل تريد شراءها لنفسك أو لصاحب الأرض التي تعمل عليها؟

فأجابه «بكر» وهو يضغط على كلماته لتزداد وضوحاً:

«بل أريدها لنفسي بكل تأكيد».

وهز «ناندو» رأسه، وقد أبى عقله أن يتصور أن عاملاً زراعياً فقيراً كهذا يملك شراء جمل، وقال في جفاء: «أخشى أنك لا تستطيع شراءها يا صاحبي».

فصاح «بكر» وهو يتحسس جيبه، حيث كانت ترقد مئة وخمسون روبية: «ليس من شأنك أن تسألني عمن أودُّ شراءها له، كل ما عليك هو أن تذكر الثمن».

وعاد «ناندو» يتفحصه متأملاً وجهه الذي لفحته الشمس وثيابه القذرة، ولكي يتخلص منه؟ رأى أن يطلب سعراً عالياً فقال في عدم احتفال: «ابحث عن جمل عادي.. أما هذه فلن أبيعها بأقل من مئة وستين روبية».

وسرت في جسد «بكر» اختلاجة ابتهاج، إذ كان يخشى أن يطلب «تشودوري» سعراً فوق طاقته... أما الآن فلم يكن ينقصه سوى روبيات يستطيع أن يستمهله أداءها، وكان ساذجاً خجولاً، يجهل أساليب المساومة، فأخرج الأوراق المالية من جيبه ودفعها إلى تشودوري قائلاً: أتسمح بأن تعد هذه، أنها كل ما أملك والصفقة الآن متوقفة عليك.

شرع «ناندو» يحصي النقود في غير اكتراث، ولكنه لم يأت على آخرها حتى أبرقت عيناه كان قد اشتط في السعر ليصرف عنه بكراً، فمثل هذه الناقة كانت تباع بمئة وأربعين روبية على الأكثر... ومع ذلك فإنه قال في لؤم: «كان من السهل أن أحصل على مئتي روبية ثمناً لناقتي ولكني سأعطيكها مقابل المئة والخمسين» وفك مقود الناقة وأسلمه إياه.

ومع أن بكراً كان ظمآن، فإنه لم يجد فسحة من الوقت للشرب، فلا بد من بلوغ القرية قبل هبوط الليل... وفي رفق راح يقود الناقة.

كان أسلاف «بكر» من صناع الأوعية الفخارية، ولكنَّ بكراً حذا حذو أبيه فاشتغل عاملاً زراعياً لا يكاد يكسب سوى النزر اليسير، وكان كسولاً بطبعه، ولكنَّ أيام الخمول ولّت حين ماتت زوجته منذ خمس سنوات، مخلفة له ابنة كأنها

الدمية جمالاً، فقد همست له زوجته وهي على فراش الموت: سأترك راضية لرعايتك، فأرجو أن تجنبها كل عناء... وقد غيرت هذه الوصية حياته كلها، فأقبل يعمل دائباً كادحاً من أجل ابنته، ليبتاع لها كل طيب، وليجعلها سعيدة، وكانت تتمسح فيه كلما عاد من السوق وتسأله: ما الذي أحضرت لي يا «أبا» فكان يجلسها على ركبته، ويعطيها لعباً وحلوى.

وفي ذات يوم ــ وقد بلغت الثامنة من عمرها ــ قالت له: أريد ناقة يا «أبا» فمتى تشتريها لي؟... يا للطفلة البريئة الساذجة!

كان جلياً أنها لم تتبين يوماً أن أباها عامل فقير معدم... ولكنه ابتسم لكي لا يؤذي مشاعرها، وقال: وماذا تودين أن تفعلي بالناقة يا عزيزتي؟

كانت «راضية» قد رأت صاحب الأرض يعتلي ناقة، وأمامه ابنته فاصبحت تتوق إلى أن تركب ناقة هي الأخرى.

ومع أن بكراً حوَّل ذهنها عن الموضوع، إلا أنه عاهد نفسه على أن يحقق للطفلة أملها، وأن يكسب ما يفي بذلك فراح يطوف بالقرى بحثاً عن مزيد من العمل، وأخذ يحصد ويدرس ويذري ويغربل ويعد علف الماشية في موسم الحصاد... ويحرث الحقول، ويؤدي عديداً من الأعمال في موسم البذر، وهو لا يفتأ يذكر وصية زوجته، فيتأمل ابنته في عطف... وبعد جهاد دام عاماً ونصف العام استطاع أخيراً أن يحقق رغبتها، وها هو يشد يده على مِقوَد الناقة في طريقه إلى القرية.

بدأت الشمس تجنح للمغيب وشاعت في الجو ريح ندية، وكان بكر يسرع الخطى ليصل إلى داره قبل أن تنام «راضية»... وما لبثت القرية التي يقيم فيها صاحب الأرض أن لاحت له، فخفف من إسراعه وانطلق خياله جامحاً وهو يتصور راضية أمامه على ظهر الناقة، ثم يتمثل نفسه وقد اصطحبها إلى سوق «بهاوال ناجار» والفتاة تنظر مبهوتة إلى أكوام الحنطة، ثم يتصور أنه سار بها إلى حانوت به جهاز للحاكي يرسل الأنغام في الجو.. يا للصغيرة الساذجة! وتمثل نفسه وهو يشرح لها، والانفعال والسرور يتجليان في حركاتها...

وكفَّ ذهنه عن الأحلام فجأة، إذ دخل قرية صاحب الأرض، وكان بكر قد أوصى النجار بأن يصنع له سرجاً للناقة، قبل أن يذهب إلى السوق، فعرج على بيته فعلم أنه ذهب إلى السوق... وأسقط في يده... لن تستطيع «راضية» أن تركب الناقة ثم أومضت في ذهنه فكرة... أن صاحب الأرض يملك إبلاً، ولا بد أن لديه رحلاً يعيره إياه.

ووجده «بكر» في فناء داره يدخن غليونه... وعندما رأى الرجل «بكراً» مغبراً مُترباً، وفي يده مقود الناقة سأله: من أين جئت يا بكر؟ فانحنى بكر قليلاً تحية له وقال إنه عائد من سوق الماشية.

ــ لمن هذه الناقة؟

ــ لي يا سيدي، ابتعتها هناك.

ــ وكم دفعت ثمناً؟

وشعر بكر يميل إلى الكذب، فالناقة تستحق مئتي روبية، ولكنه اكتفى بأن قال مرتبكاً في سذاجة: إن صاحبها يطلب مئة وستين، ثم أعفاني من عشر.

فألقى صاحب الأرض نظرة فاحصة، وودَّ أن تكون له هذه الناقة الجميلة، كان برغم ما يملك يجد في ناقة بكر ما يستهويه، وما لبث أن قال: خذ مني المئة والخمسين روبية فقد كنت أبحث عن ناقة لنفسي.

فسَرت في جسد بكر قشعريرة خوف وهو يبادر قائلاً: آسف يا سيدي فقد ابتعت الناقة لأحقق رغبة غالية لابنتي... وحاول أن يصطنع الابتسام، بينما نهض صاحب الأرض فاقترب من الناقة، وربت عنقها برفق وقال: ما أجملها! سأعطيك خمس عشرة روبية فوق ما دفعت يا بكر.

وقبل أن يسمع رداً نادي خادمه «نور» وقال له: خذ هذه الناقة واربطها هناك.

وجذب «نور» مقود الناقة من يد «بكر» الذي جمد في مكانه مشدوهاً آسفاً... بينما أخرج صاحب الأرض ستين روبية من جيبه، ودفعها إلى بكر وهو

يبتسم بلؤم قائلا: لقد أعطاني أحد مستأجري الأرض هذا المبلغ منذ لحظات، ولعله مقسوم لك فخذه، وسأرسل لك باقي الثمن بعد شهر أو اثنين.

وتحوّل دون أن يرتقب رداً ثم صاح في «نور» لا تنشغل بإطعام الجاموس الآن، بل اذهب فدبر للناقة غذاء فلا بد أنها جائعة.. ثم اقترب من الناقة فراح يتأملها ويربتها بإعجاب.

ولم يكن القمر قد بزغ بعدُ حين بلغ بكر قريته... وتلكأ عند مشارفها، ثم توارى وراء طائفة من الأشجار، وراح يحملق في بصيص الضوء المنساب من كوخه... كانت ابنته «راضية» مستيقظة تترقب عودته في تلهف، ودَّ أن يطير إليها ولكنه تذكر الناقة فجثم في مكانه مرتقباً أن يخبو الكوخ إيذانا بأن راضية قد آثرت النوم أخيراً، كي يتسلل ويدخل مرقده.

الموضوعات الفكرية

لعلَّ معالجة الموضوعات الفكرية أصعب فنون الإنشاء، لأنها تتطلب ثقافة جيدة، وأسلوباً يعتمد على قوة الإقناع، وإيراد الحجة والبرهان، والاستعانة بالشواهد، لدعم الفكرة التي يدور حولها الموضوع أو لنقضها وإبراز زيفها وبطلانها.

فالثروة الفكرية ــ بوجه عام ــ تساعد أعظم المساعدة على معالجة مثل هذه الموضوعات وتجعلها سهلة مطواعة، فإذا فهم الطالب الموضوع فهماً صحيحاً استطاع أن يضع له تصميمه أو مخططه، ثم يضيف إلى ذلك ما يحفظه من الشواهد المختلفة التي تثبت صحة ما ذهب إليه في معالجة الموضوع.

وأول ما يجب على المنشىء في معالجة الموضوعات الفكرية أن يكون صادقاً فيما يقول، إذ مهما كان الكاتب فصيحاً بليغاً ومهما كان بارعاً فإنه لا يستطيع أن يصل إلى قلب القارىء إلا بالصدق فيما يكتب، فإذا أضاف إلى الصدق قوة التأثير، وبلاغة العبارة، وجودة التعبير، وحسنّ العرض استطاع أن يملك المشاعر، وأن يستولي على القلوب.

فالموضوع الفكري إذن يتطلب منا أن نقنع القارىء بصواب ما نراه، وما نعرضه، ولذا كان لزاماً علينا أن تكون حججنا دامغة، وبراهيننا ثابتة، وآراؤنا فيما نعالجه لا تقبل الشك.

وحذار من السخف والإسفاف في معالجة هذا النوع من الموضوعات، فكل كلمة يجب أن تكون في موضعها، كما يجب أن تحل كل فكرة محلها بعد التأكد من صحتها وسلامتها، وموافقتها للمنطق والصواب.

ولا يصعب على المرء أن يميز بين الصالح والطالح، والحق والباطل، والخير والشر فكل منها ظاهر بيّن، لهذا لن يجد المرء أية صعوبة في معالجة الموضوعات الفكرية إذا هو حَكَّم المنطق والعقل فيا يقول، ويبقى بعد ذلك أن يكون أسلوبه مؤثراً أخّاذاً قادراً على السيطرة على العقول واحتلال القلوب.

الموضوع العاشر:

قال الشاعر:

مَنْ يَسْتعِنْ بالرِفقِ في أمرِهِ يَسْتَخْرِجِ الحيةَ من وَكْرِها

تكلم على الرفق وأثره في النفوس، واذكر ما يستطيع الإنسان أن يصل إليه حين يتخذ الرفقَ عوناً له وعضداً.

بسط الموضوع:

قال أحد الأدباء:

«اطلب ما تريد بابتسامتك فذلك خير من أن تشق طريقك إليه بسيفك»، وهذه ــ لعمري ــ هي القاعدة الأخلاقية التي تستطيع أن تجعلنا محبوبين محترمين ممن حولنا، وتستميلهم إلينا، ونجتذب بها محبةَ الناس جميعاً وإخلاصهم، فليس في الدنيا شيء كالرفق يفعل في النفوس فعل السحر، وقد يستعصي أمر من الأمور على الإنسان فلا يصل إلى حله إلا عن طريق الرفق، فمن اتخذه وسيلة له تمكن من تذليل أشد المصاعب، وفاز بما يطلب ولو عز الطلب.

وربما صادفْنا في حياتنا رجلاً يحترمه الناس ويجلونه وقد لا نجد نحن ــ في نظرنا ــ ما يبرر ذلك من علم أو مال، أو منطق، أو جاه أو غير ذلك وحين نمضي في استكشاف السبب نجده الرفق، فالرجل الرفيق يستطيع أن يستولي على العقول، وأن تعنو أمامه النفوس وتغدو طوع إرادته.

وحين يعتمد الإنسان على الرفق في معالجة شؤونه يستطيع أن يقنع أصلب العقول بوجهة نظره، فبعض المحامين يعمدون في مرافعاتهم إلى يكون دفعهم قانوني المنطق ولكن بأسلوب رقيق لين، لا عنف فيه ولا إيماء بالتطاول ولا تجاوزاً للحدود، وإذا بالمحكمة ترى رأيهم وتنزل في غالب القضايا على حكمهم، لأنها ترى فيه الصواب، فالمحامي اللبق الرفيق لا يعجزه أن يثبت بمنتهى السهولة أن الحق بجانبه.

قصَّ أحدهم القصة التالية:

عثرت في إحدى زياراتي للريف أيام طفولتي على سلحفاة، فأخذت أقلبها بين يديَّ ولكنها أغلقت درعها عليها إغلاقاً محكماً، فلما رآني عمي أجهدُ في فتحها بِعَصاً قال لي:

«لا، لا ليس هذا هو السبيل إلى ما تريد».

وأخذ السلحفاةَ إلى المنزل ووضعها قرب المدفأة، وبعد دقائق جعلت تشعر بالدفء وأخرجت رأسها وأرجلها وزحفت نحوي هادئة.

فقال عمي:

«الناس يا بني كالسلحفاة فلا تحاولنَّ أن تقسر انساناً على فعل شيء، بل أدفئه بشيء من عطفك، فذلك أحرى أن يجعله ينزل على ما تريد.

ولسنا نعني بالرفق أن يكون المرء ليناً لا يحتمل اللمس، كلا، فالأمر ليس كذلك فالرفق في غير وقته أو في غير موضعه سبب من أسباب الفشل فليس في كل حين ينفع الرفق، بل لا بد للمرء من أن يستعمل الحزم والشدة إذا كان ذلك ضرورياً.

وَوَضْعُ الندى في موْضعِ السيفِ بالعلى
مضرٌ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى

وعلى كل حال فسلوك طريق الرفق مع بعض التيقظ أسلم عاقبةً، وأقوى تأثيراً في النفوس. قال الله تعالى:

﴿ ادفعْ بالتي هي أحسنُ، فإذا الذي بينك وبينهُ عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم، وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقاها إلا ذو حظٍ عظيم ﴾.

وصفوة القول: قد يدرك المرء بالرفق ما لا يدركه بالعنف، فبالرفق تكثر الأنصار، ويدفع المرء عن نفسه أذى الأشرار. قال الأحنف بن قيس:

ما آذاني أحد إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث: إن كان فوقي في المنزلة عرفت فضله، وإن كان مثلي تفضلت عليه، وإن كان دوني أكرمت نفسي عنه.

الموضوع الحادي عشر:

قال الشاعر:

صُنِ النفس واحملها من ما يزينها   تعش سالماً والقول فيك جميلُ
ولا تريَنَّ الناسَ إلا تجملاً   نبا بك دهرٌ أو جفاك خليلُ

اكتب موضوعاً حول هذين البيتين، وبين أن على المرء أن يصون نفسه عن كل ما يشينها، وأن يصبر ولا يكثر التشكي مما يصيبه به الدهر، بل عليه أن يتحلى بالصبر والثبات.

بسط الموضوع:

إن النفس التي تتكوّن وتنمو فتسمو أو تنحط، وتخبث أو تطيب، هي التي تعيش معك وتحيا حياتك، فهي سبب شقائك إن تهاونت في أمرها، وألقيت زمامها متخلياً عنها، وتركتها للنزعات والأهواء تفعل بها ما تشاء، كما تكون مصدر سعادتك إذا صنتها مما يشينها، ونأيت بها عما يعيبها، فهي صنع يديك ومرآة تنعكس عليها إرادتك.

لهذا فإن أعظم عمل يقوم به المرء هو أن يعنى بهذه النفس، فيرتفع بها إلى المستوى اللائق، وينقيها من أدران الغرور والحقد، ويسمو بها إلى ذرا المثل العليا، ويكون بذلك قد ظفر بالسلام والسعادة، لأن كل ما نقوي به أنفسنا من طيب العادات وكريم الأخلاق والصفات يعود علينا بالفائدة العظمى مادياً ومعنوياً.

وكيف لا نعنى بأنفسنا والواجب الإنساني يقضي علينا بذلك، لأن النفس التي نعيش معها لن يكون أثرها مقتصراً على ذاتنا بل يتعداه إلى الآخرين، إلى المجتمع الذي نعيش فيه، فالنفس الشريرة لن يقتصر شرها على صاحبها أبداً، إن

شرها يمتد فيصيب الكثرة الكاثرة من الناس، فالمرء إذن ملزم بتقويم نفسه إذا اعوجت، وليس ذلك لمصلحته فحسب بل لمصلحة الناس جميعاً وإن الذي يعجز عن تقويم اعوجاج نفسه جبان رعديد، أو لئيم دنيء، وكلاهما مخلوق لا خير فيه.

إن النفس الكريمة هي التي ترفع شأن صاحبها وتعلي مقامه، وتجعله إنساناً سوياً، يحترمه الناس، ويرون فيه المثل الأعلى، فيتخذونه قدوة لأنفسهم وبذا ينتشر الوئام ويعمّ السلام، ويسود الوفاق جميع الآفاق.

أما النفس اللئيمة فهي التي نتنت رائحتها بما حملته في طياتها من أدران الرذيلة وهي التي تنحدر بالإنسان إلى حضيض الهوان، فيتخذه الفاسدون قدوة لأنفسهم، فتسوء الحال، ويتردى الكون في بؤرة الشر والفساد.

لهذا وجب على كل امرىء أن يعلم أن النفس التي ينميها في ذاته هي التي تقرر مجرى حياته، فاما إلى النعيم المقيم، وإما إلى سوء الجحيم.

وليعلم المرء أيضاً أن ضبط النفس، وأخذها بالحزم، وكبحَ رغباتها الشريرة يُؤهّل المرء لحياة ناعمة رغيدة فضلى، ويمتعه بسمعة عاطرة مثلى.

والشاعر في البيت الثاني ينتقل إلى فكرة ثانية، ولكنها على كل حال ذات علاقة كبيرة بالفكرة الاولى، أو هي متممة لها، فما الفائدة من الشكوى إلى الناس، إنها صرخة في واد، أو نفخة في رماد، لا تعود على صاحبها إلا بالاستخفاف والهوان.

قال الشاعر:

ولا تَشَكَّ إلى خَلْقٍ فتُشْمِتَهُ
شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

فاصبرْ على ما أصابك، وتجلد في مجابهة ما يأتيك به الدهر من تنكر الاخوان وتوالي الحدثان، وحذار أن تشكو إلى الناس فلن تجد منهم إلا الشماتة والارتياح بما أصابك، فالناس في هذا كالغراب الذي ينتظر على مقربة من الجريح في الفلاة

يعد عليه أنفاسه فإذا فاض نَفَسُه الأخير انقض عليه يُعمِل منقاره في لحمه فيمزقه تمزيقاً، ولو استطاع الغراب أن ينقض على الجريح قبل أن يسلم روحه لفعل، فهل يعقل أن يتوجه هذا الجريح بالشكوى مما يعانيه إلى الغراب القابع قريباً منه، ينظر اليه ويتطلع إلى جراحه بوحشية ولؤم.

من الخير إذن أن يكتم المرء آلامه وأحزانه، وأن يكفكف دموعه، وأن يخرج إلى الناس طلق المحيا منفرج الأسارير، طاوياً ضلوعه على الهم مهما عظم، مغلقاً قلبه على الألم مهما أمضّ، فذلك خير ألف مرة من الشكوى إلى لئيم يشمت به، أو صديق يأسى عليه، إلا شكواه إلى صديق ذي مروءة فهذا ــ في نظري ــ لا يجافي المنطق أبداً.

ولا بدَّ من شكوى إلى ذي مروءةٍ
يُسَلِّيكَ أو يُسْليكَ أو يتَوَجَّعُ

الموضوع الثاني عشر:

قال أحد المفكرين:

الغضبُ ريحٌ تهُبُّ فتُطْفِيءُ سراج العقلِ

ناقش هذه الفكرة وبين أن الغضب يُوَرِّثُ العداوة، ويورِثُ الكراهية، وينتهي بالمرء إلى سُوءِ المصير.

بسط الموضوع:

الغضب حالة من الحالات المرضية النفسية، فهو الذي يجعل المرء كثير الخطأ، مضطرب الفكر، شديداً في المعاملة، قاسياً في المعاشرة، لا يعرف التسامح، فظاً، غليظ القلب، جافياً كريه الجفاء، مستبداً، أمرُهُ الأمرُ، يكره من يخالفه في الرأي كرهاً أعمى، ولا يتسع صدره لأحد، لهذا يجفوه الناس ويبتعدون عنه، ويتحامَوْن لقاءه، فإذا كان رئيساً أطاعه مرءوسوه مكرهين ونزلوا على حكمه مضطرين.

إنه يبدو مخيفاً دائماً، عنيفاً قاسياً عنيداً في معالجة ما يعرض له من مشاكل، فيثير حوله النقمة والعداوة وتمتلىء القلوب غيظاً منه وتغلي بالحقد عليه، وهو لا يقل عمن حوله غيظاً وحقداً، ويظل الجو الذي يعيش فيه خانقاً مقيتاً، فإذا استطاع من حَولهُ أن يجدوا لهم مفراً منه لم يتركوا الفرصة تفوتهم، أما إذا أمكنتهم الظروف منه فالويل له منهم.

والغضب يحمل على أن يتطبع المرء بطباع فاسدة، كالكذب، والادّعاء، والغرور، والعنف والتسرع، والعناد، وطباع فاسدة أخرى لا حصر لها.

والغضوب لا يؤذي الآخرين أكثر مما يؤذي نفسَهُ، ولا ينغص عيشهم وحياتهم

أكثر مما ينغص على نفسه عيشَها وحياتها، لأن الغضوب يعيش على أعصابه، ولن تصمد هذه الأعصاب طويلاً ولا تلبث أن تنهار، فتصاب بالشلل أو ما يشبهه من الأمراض العصبية.

ولا يقتصر أذى الغضوب على من يعمل معه، أو يحتكُّ به من الناس، بل هو بين أهله وذويه وزوجه وأولاده أسوأ سلوكاً وأردأ معاشرة، فهو في البيت ظالم غشوم، يميت في أسرته عادةَ الصدق خوفاً من ثورته، ويحيي فيهم عادة الكذب تهدئة لغضبه، ومع مرور الأيام تصبح الأسرة قطيعاً من الماشية، لا يعرف أفرادها سوى الخنوع والكذب والرياء، ولا يفهمون من المثل العليا والمزايا السامية شيئاً، فإذا طولب بحاجة من حاجات الأسرة أرغى وأزبد، وأقام الدنيا وأقعدها، فإذا سها أحدهم فاعترض ــ بكثير من الاستكانة ــ على والده صبَّ جام غضبه عليه، فلا يترك شيئاً أمامه إلا ويقذفه به، وليكن بعد ذلك ما يكون.

فالغضوب إذن لا يستطيع أن ينشىء أسرة سوية، لانه لن يخرِّج على يديه سوى آلات صمَّاء وعقول متحجرة بكماء، ذلك لأنه عوَّد أفراد أسرته أن يكونوا كذلك، وربّاهم على أن يكونوا خُشُباً مسندة، والويل لمن تحدثه نفسه منهم بسؤال أو استيضاح.

وإذا كان الغضوب من الناس الذين يمارسون البيع فأصنافه دائماً منبوذة، ولو كانت خير الأصناف، ومحله لا يقصده إلا قلة من الناس ممن لا يعرفون طباعه، فكم نسمع ممن حولنا بأنهم لا يغشوْن محل فلان ولا يقصدون فلاناً لأنه غضوب، لا يتسع صدره لطلباتهم وأسئلتهم، ومساومتهم، ولهذا فهم لا يقصدونه ولو كانت بضاعته خيراً من بضاعة الآخرين، وقد سألت صديقاً: لِمَ لا يذهب فيشتري بضاعته من محلٍ ذكرته له فقال: إنني كلما ذهبت إليه نغَّص عليَّ يومي بغضبه المستديم، ألا تراه ثقيل الظل جامداً مكروهاً، لم أذهب إليه مرة إلا وخرجت بإحدى النتيجتين، فاما أن أحصل على فاكهة لا أريدها، ولا تعجبني، أو على مشادة تنغص علي بقية يومي كله، دعنا منه لا أريد رؤيته.

وكان أحد الصيادلة يضع أمامه على المنضدة تحت الزجاج ورقة من المقوى الأبيض الجميل كتبت عليها كلمة واحدة هي «لا تغضب» فسألته عن سرها فقال: وقعت حادثة كدت أفقد فيها حياتي وكان سببها سرعة غضبي، ولهذا وضعت هذه الكلمة أمامي، فلم أغضب بعدها قط.

قال النبي ﷺ: ليس الشديدُ بالصُرعَةِ، إنما الشديدُ من يملِك نفسَهُ عندَ الغضبِ.

والمثل يقول: الحِلْم سيّد الأخلاق.

الموضوع الثالث عشر:

قال الشاعر:

لا يبلغُ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

اكتب موضوعاً حول هذا البيت، وبين أن الجاهل هو أشد على نفسه من أعدائه بل هو أعدى عدوٍّ لها، يؤذيها أكثرَ من أذاهم، وينال منها أعظمَ مما ينالون.

بسط الموضوع:

الحياة خضم عظيم حافل بالمتناقضات، فيه الصديق والعدو، والعاقل والأحمق، والذكي والغبي، والسعيد والشقي، ويعيش الإنسان في هذا الخضم قلقاً مضطرباً، يسعى ليحصلَ على لقمةِ العيش فلا ينالُها إلا بالجهد المضني والألم الشديد، وخلال سعيه وكدحه وعلاقاته بالناس تقوى صلاته ببعضهم، وتنشأ الصداقة والإخاء والتعاطف، ويشتد النفور من بعضهم الآخر فيكونون له أعداء.

وكأن الانسان لم تكفهِ مصائبُ الدهر وكوارثهُ، فناصب أخاه الإنسان العداء، وولج وإياه أبواب الشر، فلم يخل إنسان من عدوٍّ يترصدُ له، أو خصم يحقدُ عليه، إلا من رحمَ ربك.

ومهما بلغ العدوُّ من عدوِّه، ومهما أنزلَ به الأذى، فان الرجل الأحمق الجاهلَ يُنزل بنفسه من الأذى ما يعجز عن مثله العدو، فهو يسعى دائماً إلى ما يدمر حياته، وينغص عيشه ويؤدي إلى هلاكه، ذلك لأنه لا يفقه الحياةَ ولا يقدرُ أن يفرق بين الصالح والطالح، والخير والشر، والضار والنافع.

والجاهل الأحمق يتورط في أمور وخيمة العواقب تقوده إلى المهالك والمعاطب،

دون أن يحسبَ لهذه العواقب حساباً، بل هو لا يراها وخيمةً كما نراها نحن، لأن الجهلَ غشّى على بصره وبصيرته، فلم يعد يرى أبعد من أنفه.

حياتُه ظلماتٌ متراكمة، بعضها فوق بعض، لا يجد خلالها بصيصاً من نور، فيتخبط تخبط العشواء في الليلة الظلماء، فإذا نهض من عثرة سقط في أخرى أشد منها إيذاء، وأبلغ أثراً، لا تردعه العبرُ، ولا تجديه العظاتُ، لا يستجيبُ إلا لصوت عقله الكليل، وفكره العاجر، فهو أعمى ولو كانت له عينان سليمتان:

﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾

صدق الله العظيم

والأحمق الجاهل مريض يصعب شفاؤه ويعز دواؤه، فلا تنفع فيه الرقى والتعاويذ ولا تجديه الأشربة والمصول.

لكلِّ داءٍ دَواءٌ يُسْتَطبُّ به إلا الحماقةَ أعْيَتْ من يداويها

وقد نحاولُ في بعض الأحيان أن نصلح من أمر الجاهل وأن نأخذ بيده إلى جادة الصواب والتعقل، فلا يجديه ذلك نفعاً إذ يذهب عناؤنا عبثاً.

ومِنَ البليةِ عذلُ مَنْ لا يرْعوي عن غيِّهِ وخطابُ مَن لا يَفْهَمُ

ولسنا نعني بالجاهل ذلك الأميّ الذي لا يحسن القراءة والكتابة، فكم من أميٍّ فاقَ كبار المثقفين عقلاً ورزانة وتفكيراً، وأعرف عمالاً وباعة يعالجون الأمور ويتحدثون في عظيمها ودقيقها، ولهم آراء صائبة قلما نجدها عند كثير من المتعلمين المثقفين.

وخير ما نفعله لمحاربة الجهل، والتخلص من الحمق والحمقى هو أن نكافح الجهل بكل الوسائل التي نملكها، لأنه هو وحده عِلّتنا، وهو خطر جدُّ عظيم علينا، في حاضرنا ومستقبلنا، انه أشد الأمراض فتكاً، فإذا فشا الجهلُ في أمة كان أخطر عليها من الحريق المخوف، ذلك لأن الجاهل، كما قال ابن المقفع:

«إنْ جاوَرَكَ أنْصَبَك (أتعبك) وإن ناسَبَك جنى عليك، وإن أَلِفَكَ حمل عليك ما لا تُطيقُ، وإن عاشركَ آذاك وأخافَكَ، فأنت بالهربِ منه أَحقُّ منكَ بالهربِ من سُمّ الأساودِ، والحريقِ المخوف، والدينِ الفادحِ والداءِ العَياءِ».

ومهما كان الأمر فالعلمُ وسيلةٌ عظمى وسلاح ماضٍ في مكافحة الجهل والحمق، فإذا انتشر العلم في أمة واستنار الناس بنوره قلّ فيها الجلاء والحمقى الأغبياء، وعاشت حياة كريمة لا ينغصها عليها أحمق، ولا يكدرها جاهل غبي.

جاء في المثل:

(كما لا يَتبَدّلُ لونُ البشرةِ السوادءِ بالصابونِ كذلك لا يرعَوي الأحمقُ بالنصيحةِ).

الموضوع الرابع عشر:

قال الشاعر:

إذا ما أرادَ اللهُ ذلَّ قبيلةٍ ... رماها بتشتيتِ الهوى والتخاذل

وأوّلُ عجزِ القومِ فيما ينوبُهم ... تخاذُلُهمْ عنه وطولُ التواكلِ

اكتب موضوعاً حول هذين البيتين، وبيِّن أن القوة في الاتحاد، والضعف في التفرقة والتخاذل.

بسط الموضوع:

حينما تجتمع كلمة الأمة تأتلف قلوب أبنائها، وتتوثق عرى الإخاء بين أفرادها، ويشيع الخيرُ في جميع أرجائها، فلا تجد في البلاد من يَكرهُ الآخر أو يحقد عليه، أو يطوي بين جوانحه الشرَّ للآخرين، وبذا تغدو الأمةُ قوية مرهوبة الجانب، مسموعة الكلمة، لا تجرؤ الأمم الأخرى على النيل منها، أو التحرش بها، وهي إن حدثتها نفسُها ذات يومٍ بالتجرؤ والعدوان فإنّ الأمة المتحدة الكلمة تعرف كيف تصرع البغيَ والبغاة.

وأما إذا كانت كلمةُ الأمةِ متفرقةً، فالتصدع يمزق صفوفها، والتنافر يفرق قلوب أبنائها، فتنفصم عرى الألفة، ويسودُ التشاؤم، وتنهار العزائم، وتتلاشى الهمم، وتتخاذل النفوس، وتتباين الآراء، ومتى وصلت الأمة إلى هذا الدرك من التفسخ تهافت عليها الأقوياء، كل منهم يريدها لنفسه لقمة سائغة، وصيداً هيناً سميناً.

قال الله تعالى:

﴿ ولا تنازَعوا فتفشَلوا وتذهبَ ريحُكم ﴾.

فالنزاع يعقبه الفشل والضعف، كنتيجة حتمية لا مفر منها، وهذا يتنافى مع رغبات النفوس وأمانيها، فالإنسان ــ كل إنسان ــ يرغب في النجاح، في كل ما ينصرف إليه من أهداف، ولن يصل إلى هذه الأهداف إلا بتعاونه وتآزرِهِ مع أبناء أمته، إذن فلا مناص من التقاء الصفوف واجتماع الكلمة، وتوحد الاتجاه، مع صفاء النوايا وسلامة القصد، وعند ذلك يغدو البعيد قريباً، والصعب من الأمور سهلاً هيناً.

ولا يجوز أن تجتمع القلوب وتتآزر القوى وتتحد الأيدي في سبيل أعمال لا تنفع الأمة في شيء، كما لا ينتفع منها أحد أو أنها لهدف العدوان والإفساد، كلا، لم نذهب في معالجتنا هذه الفكرة هذا المذهبَ، بل يجب أن يكون الخير رائد كل اتحاد، فإذا داهم الخطر بعض أبناء الأمة هبت الأمة جمعاء، ترد عنه الضر، وتدفع الشر، لا يصرفها عن ذلك عذر، ولا تصدها عن نصرة الآخر المنكوب قوة.

والأمة العربية قبل ألفي عام كانت خاضعةً للاستعماريين الفرس والرومان، ثم هبتْ من رقدتها، وسارت تطوي مستعمريها تحت أقدامها، وظلت تنتقل من نصر إلى نصر، ومن ظفر إلى ظفر حتى حررت البلادَ العربية من سلطان المستعمرين، وراحت تتقدم في مضمار الحضارة وتخوض ميدان السبق العلمي، فتبلغ القمة، ولا يستطيع الآخرون أن يلحقوا بغبارها، كل ذلك مع وحدة كلمتها، ووقوفها أمام أعدائها كالطود الراسخ، لا تزعزعه العواصف، مهما اشتدت، ولا تؤثر فيه الأحداث مهما عظمت، وغدت منذ ذلك اليوم الدولةَ العظمى ولا نزاع، ولا خلاف ولا تصدع، ولا تفرق ولا اختلاف.

ومتى ساد التخاذل في أمة مهما كان عددها عظيماً، فإن كثرتها لا تغني عنها ــ مما سيحل بها ــ شيئاً، ولا تدفع عنها سوءاً، إن كثرتها كغثاء السيل لا غناء فيه، ولا فائدة منه.

لقد أقامَ العرب في إسبانيا ثمانمئة عام، فنشروا الحضارة، وشيدوا المدارس، وجعلوا مدن الأندلس كعبة لرواد المعرفة، ومع ذلك، وبعد كل هذه القرون خرجوا منها، لأن العرب فيها تفرقوا ــ في آخر أيامهم هناك ــ شِيعَاً في كل مدينة

أمير، وعلى كل مقاطعة أمير للمؤمنين، والشعب ضائع بين هؤلاء جميعاً، لا يدري أين يسير، ولا ماذا يفعل.

ولهذا فإن العرب هناك واجهوا النتيجة الحتمية للتفرقة، بعد أن ذُبِّحوا وقُتِّلوا تقتيلا، ولم ينج من القتل والحرق إلا أقلُّ القليل، وهم أولئكَ الذين خَرُوا إلى المغرب العربي فأقاموا هناك.

أتى على الـكـلِّ أمـرٌ لا مَـرَدَّ لـه
حتى قَـضَـوْا فـكـأنَّ الـقـومَ مـا كانوا

وصـارَ مـا كـانَ مِـنْ مُلْكٍ ومِنْ مَلِكٍ
كما حكى عَنْ خيالِ الطيفِ وَسنَانُ

فإلى جمع الكلمة، وضم الصفوف، ولَمِّ الشمل، وتآلف القلوب، هذا هو السبيل وتلك هي الطريق، والحياة والفوز لمن اعتبرَ بما مضى، واتعظَ بمن تقدموه من الأولين السابقين.

الموضوع الخامس عشر:

قال الشاعر:

إذا بَلَغَ الرأيُ المشورةَ فاستعِنْ   برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تجعلِ الشورى عليكَ غضاضة   فريشُ الخوافي قوةٌ للقوادمِ

تحدث عن فائدة المشورة، وبين أن الإنسان مهما بلغ من سعة الفكر ورجاحة العقل، قد يحتاجُ إلى استشارة من سواه من العقلاء، في معالجة مشاكله.

بسط الموضوع:

يقول أحد المفكرين: «إذا شاورت العاقل يصير عقله لك» فالمرء قد يعجز عن اكتناه الأمور، وعجم عودها، ومعرفة غامضها، وقد يغيبُ عنه الحل الصحيح الذي يحتاج إليه في معالجة مشاكله، فليس أمامه في مثل هذه الحال إلا المشورة، يلجأ اليها عند مَن يصلحُ لها من العقلاء والمخلصين الأصفياء.

وما كلُّ ذي لبٍ بمؤتيك نُصْحَهُ   وما كلُّ مؤتٍ نُصحهُ بلبيب

لهذا وجب أن يعمد الإنسان إلى الأمناء يستشيرهم، وإلى العقلاء الأذكياء يعرض عليه ما تعقَّدَ لديه من الأمور، فعقل المرء قد لا يقوى على الإحاطة بكل شيء ولقد قيل: «إذا صدىء الرأي صقلته المشورة».

وفي القرآن الكريم حثٌّ على المشورة، قال تعالى: (وشاورهمْ في الأمر) وقال في موضع آخر: (وأمرهم شورى بينهم) لأن الفرد قد يخطىء في تقدير الأمور، وتقويم الحوادث ولكن الجماعة لا تخطىء في الغالب، وهي إذا أخطأت

ـان خطؤها يسيراً محمولاً، لا يستدعي الغم ولا الندم، ولقد قيل: «ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار».

ولرب إنسان يلجأ إليه الناس يستشيرونه، ويستعينون برأيه إذا ساءت ظروفهم، وأظلمت سبلهم يتعالى عن الاستشارة بدعوى أنه هو الذي يستشار، فما حاجته إلى آراء الآخرين فيما يعرض له من مشاكل، وقد يبدو هذا صحيحاً أول وهلةٍ ولكنه في الواقع خلاف ذلك، ومثل من هم كذلك مثل العين، إنها ترى البعيد والقريب، وتستجلي الدقيق من الأشياء، وتستشف الخفيَّ وهي مع ذلك تعجز عن أن ترى نفسها، إلا إذا استعانت بمرآة تعكس لها صورتها وما احتجب عليها منها.

شاورْ سواكَ إذا نابتْكَ نائبةٌ ... يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ
فالعينُ تُبْصِرُ منها ما دنا ونأى ... ولا ترى نفسَها إلا بمرآةِ

والإنسان مهما بلغ من سعة الإدراك، والإحاطة بالأمور، فإن ثمة أموراً قد يخطىء فيها، ولا يتمكن من حل عصيها، وإدراك غامضها، فإن هو استعان بآراء الآخرين أمِنَ السقوط والخسران، وضمن لنفسه السداد والصواب، والاستشارة أليقُ بالعاقل، وأجدر بالحصيف، مهما أوتي من رجاحة العقل وحسن التدبير.

وليس في المشورة معرة، أو غضاضة تلحق بالمستشير، لأن ما قد يلقاه المستبد برأيه من الخطوب والكوارث، وما قد يصادفه من المفاجآت والنوازل، وما يحل به من الندم على تقصيره في استشارة سواه لا يحدُّه حدٌّ ولا يحصره حساب.

وقد يسلك امرؤٌ مسلكاً يظنه سليماً، أو قد ينهض بعمل يرجو منه الربح الوفير، فيمضي في هذه الطريق لا يلتفت إلى الوراء، كأن فارساً خلفه يلهب ظهره بالسوط، فهو يمضي بكل قواه إلى ما يظنه أنه هو الهدف المنشود، وإذا به لا يجد سوى السراب بعد أن تَتقطَّعَ به الأسباب.

وقد يقوم المرء بمشروع زراعي كان غيره قد قام به من قبل، فيأنف أن يستفيد من خبرة زميله وتجاربه، ويأبى أن يستشيره فيما يأخذ به أو يدعه، فيفشل في

مشروعه ويضيع أمواله، فقد يكون قصَّر بعض التقصير، أو لم يحسن السقاية أو غير ذلك مما لو سأل عنه لما أصابه ما أصابه من الفشل والخسارة.

وخلاصة القول: فالاستشارة مصباحٌ سحريّ يضيء أمام المرء الطريق المظلمة، ويرشده إلى السبيل الصحيح، دون أن يكلفه ذلك جهداً أو عناءً، ولا تتقاضاه المشورة نفقة أو مالاً.

الموضوع السادس عشر:

قال أحد الحكماء:

إن الراحةَ لا تأتي إلا بعد التعب، وإن النعمةَ لا تهبطُ على المرءِ من السماء، فإنَّ السماء لا تمطرُ ذهباً ولا فضةً، وإنما هي وليدة الكدح واحتمال البؤس...

اكتب موضوعاً حول هذا القول.

بسط الموضوع:

عندما فتح المعتصم عَمُّوريّة، وكسر جيوشَ الروم شر كسرة، قال أبو تمام من قصيدة يمدحه فيها:

ظَفِرتَ بالراحةِ الكبرى فلم ترَها　　　تُنالُ إلا على جسرٍ من التعب

وقد تناول أمير الشعراء أحمد شوقي هذا المعنى بقوله:

أُعِدَّتِ الراحةُ الكبرى لمن تَعِبا　　　وفازَ بالنصرِ من لم يألُهُ طلبا

وهذا هو ناموسُ الحياة، فلا راحة إلا بعد التعب، ولا ثمرات يانعة نقطفها ونتلذذ بمذاقها وأشربتها، إلا إذا غرسنا وسقينا وقطفنا، وبعد ذلك كله نستطيع أن ننعم بلذة الطعم وحلاوة المذاق.

والعربي بطبيعته يدرك هذا المبدأ أكمل الإدراك، فهو من خير العاملين الكادحين، سواء في ذلك أكان مقيماً في وطنه، أم كان في بلد أجنبي، فهو هو ذلك العامل المجد المخلص الذي يتميز بميل فطري إلى العمل، حتى لا يعيش عالة على سواه، لأنه يعتقد أن أشنع ما يتصف به المرء هو أن يعيش على فُتاتِ موائد الآخرين.

والإنسان السويّ الذي يملك ذهناً نيّراً يدرك كذلك أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأنه لا سبيل إلى العيش الكريم إلا بالعمل الدائب المثمر، والكدح الطويل، واحتمال ما قد يلاقيه من عقبات ومصاعب قد تقف حجرَ عثرةٍ في سبيله، وتحول بينه وبين التمتع بثمرات كدحه وتعبه.

فليعمل المرء في السير نحو هدفه بقوة، ولْيَسِرْ حثيثاً دون هوادة، وليتعب في سبيل ذلك، لأن التعبَ هو المفتاحُ العجيب الذي يفتح لنا مغاليقَ الرزق وأبواب النجاح.

إن جميع المخترعات الحديثة التي يتمتع بها الإنسان المعاصر ليست إلا وليدة التعب الطويل، فإذا نعمنا اليوم وظفرنا بواسطتها بالراحة والمتعة فالفضل في ذلك كله لأولئك الذين واصلوا ليلهم بنهارهم، وهم يكدون ويتعبون، حتى أخرجوا لنا هذه المخترعات العجيبة.

إن الحياة صراع دائم، سواء أكان هذا الصراع للحصول على القوت اليومي وهو الأعم الأغلب، أم كان للحصول على نجاحات أدبية، أو علمية، أو غير ذلك، لهذا يجب على المرء ألا يتقاعس عن المضي في مضمار الحياة، لا تثنيه العقبات، فالويل كل الويل لمن يلقي السلاح يائساً مستسلماً.

والسر في نجاح كثير من الناس أنهم آمنوا بأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وانهم أدركوا أنهم إذا عملوا اليوم وكدوا، وتعبوا، استطاعوا أن يظفروا بالراحة والأمن، والدعة التي كفلها لهم كدحهم وتعبهم.

والمجتمع الصالح هو مجتمع مبني على أساس الجد والكد، وبه وحده يصبح العيش الكريم مضموناً للجميع.

وكما يكون التقاعس مضراً بالفرد، فهو مضر أيضاً بالأمة، فالأمة الضعيفة المتواكلة التي تهوى الراحة دون العمل، وتجنح إلى الركون دون الحركة مقضي عليها بالتخاف والتقهقر، مهما كان ماضيها عظيماً مشرقاً، فالنجاح والفوز بالحياة الكريمة الفضلى لا يكونان إلا بالعمل الذاتي والتعب والنصب.

ولهذا وجب على الأمة أن تتجه بمجموعها نحو العمل، وأن تندفع نحو الإنتاج، لتصل إلى ما تصبو إليه من رغاب، فليس في الحياة شيء يمكن الحصول عليه بلا كد.

بقدر الجد تكتسب المعالي ومن طلبَ العلا سهر الليالي
ومن طلب العلا من غير كدٍ أضاع العمر في طلب المحال

الموضوع السابع عشر:

قال أحد المفكرين:

العمل في كل الحالات ضروري لرفع كرامة الإنسان، ولإنماء شخصيته، ولضمان مستقبله، ولتقدم البلاد وازدهارها.

ناقش هذا القول.

بسط الموضوع:

العمل في جميع الأحوال محور الحياة، عليه يتوقف مسيرها وتقدمها واستمرارها.

وهو ضروري لأن كرامة المرء تصبح مهددة، إذا صد عن العمل والجد، وأخلد إلى الراحة والكسل، فالفلاح إذا لم يعمل في أرضه فلن تنبت له شيئاً، ولو كانت تربتها أخصب تربة، ولو عمل هذا الفلاح وكد لأحيا موات الأرض ولجعل الأرض الجدبة تنبت وتثمر.

فكل من في الوجود ملزم بالعمل، ليصون بذلك كرامته، ويحتفظ بماء وجهه من أن يريقه على أعتاب المتصدقين والمحسنين، وهل يكون في عداد الرجال من يمد يده بالسؤال، أو يبيع ماء وجهه لقاء دريهمات، يقذفه بها المترفون المنعمون، ومعها كل صنوف الاحتقار والازدراء.

أية نفس تلك التي تقبل أن تعيش على فتات موائد العاملين، أو الأغنياء المترفين؟! وأي شرف يبقى لمن يتقاعس عن العمل، ليمضي إلى العاملين، يشحذ لقمة العيش، ويلتمس حفنة الطعام؟ وأية كرامة لمن يظل يتمرغ في وحل العوز والفاقة، من جراء كسله وخموله، وابتعاده عن ميدان العاملين الشرفاء.

وبعد ذلك فلكل إنسان شخصية يتميز بها، وتنمو هذه الشخصية كلما تقدم الإنسان في عمله، وبدأ يقدم ثمرة جهده إلى المجتمع الذي يعيش فيه، وكلما تقدم الإنتاج واشتهر، وارتفع كمية وكيفاً، ارتفعت بذلك شخصية هذا العامل ونمت، واحتلت مكان الصدارة في المجتمع، لأن قيمة الإنسان فيما يحسنه، وفيما يقدمه من خير وفير، وثمرات يانعة، وعمل مفيد، وبذلك يكون المرء عضواً نافعاً وإنساناً خيراً، ومواطناً كريماً.

والإنسان منذ يصبح مدركاً بعض شؤون الحياة نراه يفكر في مستقبله، ويشغله هذا التفكير، بل هو لا يهدأ له بال حتى يرسي قواعد هذا المستقبل الذي يحاول جاهداً أن يكون مستقبلاً سعيداً زاهراً، وعلى هذا فلا بد إذن من العمل لضمان هذا المستقبل، وتحقيق ذلك الآتي الرغيد، ومن يحاول أن يكون ذا مستقبل كريم دون أن يعمل فهو يحاول اصطياد النجوم أو النفخ في قربة مثقوبة.

وأيُّ مستقبل لمن لا يعمل؟ إن مستقبله ليس خيراً من حاضره بل هو أسوأ بكثير، إنه المرض والفقر، والمذلة والهوان، والعذاب والشقاء، إنه التشرد والجريمة، أو هو كلها معاً.

أية حياة بائسة كئيبة تنتظر الكسول الخامل في مستقبله التعس، ومن كان هذا شأنه لفظته الحياة واجتواه المجتمع، وعاش ذليلاً مهيناً ثقيلاً على العاملين الشرفاء.

وهل لمثل تلك الحياة أية قيمة؟ وهل فيها أي خير؟

ومـا للـمـرء خـيـرٌ في حـيـاةٍ إذا مـا عُـدَّ مـن سَـقَـطِ المـتـاعِ

وفي يقيني أن الفقر لا يستطيع أبداً أن يقترب من باب العامل المجد النشيط، لأنه يخشاه، فلا تحمله إليه خطاه، ولكنه يعشش ويفرّخ في أكواخ الكسالى، والمتواكلين، ومدمني البطالة الذين لا يعملون ويكرهون أن يعملوا، مهما عضَّهم الفقر بنابه، وطوتهم الفاقة في مرقعتها القذرة، وأسمالها البالية.

ومن حق الوطن على أبنائه أن يعملوا لرفعته، ويجدّوا لتقدمه وازدهاره فأية

جناية يرتكبها القاعد عن العمل في حق وطنه!؟! إن ازدهار هذا الوطن يعتمد أول ما يعتمد على سواعد العمال والفلاحين، فأية كارثة يمكن أن تنزل بالوطن حين يتخلف المرء عن عمله بدون سبب، ويتنكر لواجبه، ويعمل على هدم الوطن، وجعله هيناً على أعدائه، ضعيفاً أمام المتربصين به من الخصوم القادرين؟

إن الوطن لا يرتفع شأنه بما يضم بين جنباته من ملايين الناس، بل بما يضم من العاملين الكادحين، والمنتجين المبدعين، وبذلك يظفر بالإكبار والإجلال، ويغدو علمه خفاقاً في كل مكان، وتجوب تجارته الآفاق، وتغزو الأسواق، ويعود ذلك على الوطن بالخير العميم والنفع الجسيم.

فإلى العمل، إلى الإنتاج والإبداع، لنصون بذلك كرامتنا، ونضمن مستقبلنا، ونعلي شأن بلادنا وأمتنا.

الموضوع الثامن عشر:

الوحدة العربية هي المصير الحتمي الذي سيعم دنيا العرب.

تحدث عن الوحدة العربية الشاملة.

بسط الموضوع:

إن كل عربي في دنيا العروبة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي مؤمن كل الإيمان بأن الأمة العربية هي في طريقها الحتمي إلى الوحدة العربية الشاملة، وأمة مثل أمتنا حَرِيَّةٌ بأن تصل إلى ما تبغيه من وحدة وحرية واشتراكية، ذلك لأنها أمة عريقة في الحضارة الإنسانية، بل هي في طليعة الأمم التي دفعت بالركب الإنسانيّ إلى الأمام، بل نحو حياة كريمة فضلى.

إن معظم بلادنا قد نجا اليوم من سيطرة الاستعمار الغاشم، وأصبح حراً، يستطيع أن يتصرف بمقدراته تصرف الأحرار بمقدراتهم، لا يحد من تقدمه حد، ولا تصده عن مثله العليا قوة.

والشعب العربي في جميع أقطاره مصمم على أن يبني الوحدة الكبرى، ولن يقوى الاستعمار، ولا الصهيونية ولا من يسير في ركابها على وقف هذا التيار الجارف، فالعرب اليوم هم سادة مصيرهم، والوحدة مطلب أساسي لهم، وهي في قرارة نفوسهم المصير الحتمي لأمتنا الخالدة.

وها هو ذا شعبنا العظيم يتقدم بملايينه المئة والخمسين لاحتلال مكانه بين الأمم العظيمة، ليقوم بما يجب عليه نحو هذه المنطقة العربية كلها، ونحو الإنسانية جمعاء، إنه يريد أن يكتب بيده تاريخه الخالد، وقد اقتحم، وسيقتحم الأخطار بإرادة تخضع عناد الدهر، لا يبالي بالتضحيات مهما عظمت، ولا بالبذل مهما غلا.

إن شعبنا شعب صادق في عواطفه، مخلص في نواياه، شجاع، باسل، يسير إلى أهدافه وهو مؤمن بهذه الأهداف، مدرك لما يبغيه من الغايات، معتقدٌ اعتقاداً جازماً بأن الغدَ المشرق له ولكل شعب حر أبي كريم.

إن شعبنا يؤمن بأن الوطن العربي وطن واحد، وأن هذه الحدود المصطنعة لن تعوقه عن تحقيق هدفه في الوحدة الخالدة، لهذا فهو يتفانى أكثر فأكثر في سبيل تقدم أمته وبلاده وازدهارهما، لتكون وحدته قوية كالإعصار، راسخة كالطود، وإنه لن يحيد عن أمنيته هذه مهما عصفت به حوادث الزمن وعاديات الأيام.

فالمجد لشعبنا الشجاع، والعلاء لرايته الظافرة الخفاقة، والخلود لوطننا العربي الكبير.

قريتنا بين الأمس واليوم

يتطور ريفنا متأثراً بنهضتنا الثورية المباركة، ويتقدم أشواطاً بعيدة إلى أمام، يقوده وعيٌ جماهيري مبدع، وتوجيهٌ إداري وفني مخلص، وهو يتفاعل مع الانطلاقة الهائلة التي فجرها شعبنا العظيم السائر بلا هوادة إلى تحقيق حياة كريمة فضلى.

ليست المدن فيما يبدو عليها من جمال وعظمة وتنسيق دليلاً صحيحاً على رقي الأمة رقياً كاملاً، فالمدن بطبيعتها تتبدى في هذه المظاهر، نظراً لما تتمتع به من دوائر تسهر على تنظيمها، وتجميلها، وما تحويه خزينة بلديتها من المال الكثير.

ولهذا فلسنا نحكم على تقدم الأمة أشواطاً في طريق حضارتها ورقيها، إلا بالنظر لتقدم الريف، وانتعاش الفلاح، وازدهار الثقافة في ربوع القرى.

قريتنا بالأمس أسوأ مثال يمكن أن تكون عليه القرية، فالفلاحون في أكثر القرى محرومون من العلم، ولكل مئة قرية أو أكثر طبيب يقيم في مركز القضاء، فلا يرى القرى مطلقاً، وهو طبيب رسمي، لا يعالج إلا القضايا الصحية الرسمية، ولا يقوم إلا بالكشف عن الجرائم وغير ذلك، أما المعالجة، والإشراف الصحي، والإسعاف، وغير ذلك من الأمور فلا يمكن أن تجد لها طبيباً.

فإذا مررت بقرية يستقبلك جيش من البعوض والذباب، لا ينفك عنك، ولو استعملت في دفعه يديك ورجليك، ويظل كذلك حتى تغادر القرية بعد أن يكون قد زودك بأكره الزاد، من مكروبات الحمى، أو جراثيم الملاريا.

وأذكر أننا حاولنا آنذاك أن ننهض بالقرية، فكان مشروع إنعاش القرى واستفادت قرى عديدة من الخدمة الطبية، والتعليمية والفنية التي كانت تقدم إليها مجاناً، ولكن الاستعمار الفرنسي آنذاك وقف في وجه هذه الحركة، وحاربها حتى تمكن بما يملك من وسائل التحكم أن يقضي عليها، فقد خشي أن تتنبه أفكار

الفلاحين إلى واقعهم المؤلم، وأن يتطلعوا إلى حياة أكرم، وتستيقظ فيهم روح التمرد على الاستعمار وأذنابه من الإقطاعيين والاستغلاليين.

ومضت الأيام، واستقلت البلاد، ولكن القرية بقيت على ما كانت عليه إلا في النواحي التعليمية، فلقد انتشرت المدارس في القرى بشكل يدعو إلى الارتياح، وأقبل أبناء الريف على ارتشاف العلم إقبالاً منقطع النظير.

ثم تفجرت ثورة الشعب، فكان أول ما فعلته حكومة الثورة هو أن أعارت الريف أعظم اهتمامها لأنها قدرت أهميته، والمدى الحضاري الذي يمكن أن تبلغه البلاد إذا ما عني بالريف، ورأت قبل كل شيء أن تبدأ بمعالجة الموضوع جذرياً فألغت الإقطاع، ووزعت الأرض على الفلاحين، وقضت بذلك على فقر الفلاح، هذا الفقر الذي هو أصل كل الشرور والأخطار.

وبعد أن تم لها ذلك بنجاح عمدت إلى الناحية العلمية، فزودت القرى بالعدد الكافي من المعلمين والخبراء والمرشدين والممرضات، ثم أسالت مياه الشرب النقية، وأنارت تلك القرى بالكهرباء وصرنا نشهد في كل يوم مشروعاً جديداً من هذه المشاريع يفتتحه وزير مختص.

وانتعش الريف في هذه المرة بشكل لم يسبق له مثيل، فقد تبنت الدولة قضيته، وعملت وتعمل على ازدهاره، ولم يعد ابن القرية يذهب إلى الطبيب، بل الطبيب هو الذي يذهب إليه توفيراً للجهد، وتيسيراً للأعمال، وحرصاً على صحة المواطنين وسلامتهم، وحذت سائر الوزارات حذو وزارة الصحة، وإذا بالفوارق الهائلة التي كانت قائمة بين القرية والمدينة أخذت تتلاشى، ولم يبق سوى الطابع القروي الجميل الساحر الذي يتفرد به ريفنا الحالم السعيد، وسوى السذاجة البريئة، والوداعة الفاتنة اللتين ينفرد بهما ريفنا الطيب الكريم.

وهكذا كانت الثورة المباركة نعمة وارفة شملت الأرياف والمدن، فلم يعد يجوز أن تسعد المدن بنعمة الحضارة ورقيها على حساب شقاء الريف وحرمانه فلتمجد ثورتنا البناءة العادلة، ولتعش إلى الأبد جليلة الأهداف كريمة الغايات.

الموضوع التاسع عشر:

قال الشاعر:

تكَثّرْ من الاخوانِ ما اسْتطَعْتَ إنَّهمْ ... عماَدٌ إذا استَنْجَدْتَهُمْ وظَهيرُ
وما بكثيرٍ ألفُ خلٍّ وصاحبٍ ... وإنَّ عدواً واحداً لكثيرُ

اكتب موضوعاً حول هذين البيتين، وبين أن على المرء ألا يفرَقَ من الإكثارِ من الأصدقاء، فكلما زادَ عددُ أصدقائهِ ومحبيه ازداد تكريماً وعلاً شأناً.

بسط الموضوع:

لست أريد أن انْحُوَ نَحْوَ ابن الرومي في قوله:

عدوُّكَ من صديقِكَ مستفادٌ ... فلا تَسْتَكْثِرَنَّ من الصحابِ
ولكنْ قلّما استكثرتَ إلا ... وقعتَ على ذئابٍ في ثيابِ

فهذا شأن المتشائم الذي لا يرى الدنيا إلا بمنظار حالك السواد، فيرى المشاهد الزاهية الفاتنة سوداء قاتمة، وأنا أقول: إن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ضعيف وحده، قوي بأصحابه وأصفيائه، إذا كَرَبَهُ أمْرٌ لجأ اليهم، وإذا اشتدتْ الأزماتُ فأطاشت أعصابه، وطوَّحت به لقي عندهم الأمان من صروف الحدثان، فهم الأمل بعد اليأس، والملجأ عند الكرب، والعون عند الشدة.

وكيف تطيبُ حياةُ المرء بالاعتزال، وهل هو إلا إنسان ـــ ككل الناس ـــ يألفُ ويؤلف، ويجد اللذة التي لا تَعدلها لذة في ساعة يقضيها إلى جانب صديق مخلص وفيّ يفضي إليه بذات نفسه، وينفض بين يديه جملة حاله، وما يلاقيه من

عنّتِ الأيام، فيخفف بذلك عن صدره بعض ما يجثم عليه، فليكثر المرء من الأصدقاء ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فليس في الإكثار منهم أي ضرر أو ضير، وإنما الضرر في العزلة والانفراد، ولا يكون الضير إلا إذا عزَّ الصديق، ونأى الصاحب، وانقطع النصير.

قال الله تعالى:

﴿ يا أيها الناسُ إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ﴾.

فالتعارف والتقارب بين الناس هو الأصل في الحياة الاجتماعية الصحيحة، وأما التناكر والعزلة والانفراد، فشذوذ يخالف طبيعة الحياة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الغريب من ليس له صديق» فالصديق بمنزلة الأخ والأهل والولد، والأصفياء من الاصدقاء يشدُّ بهم المرء أزرَهُ، ويشرح بقربهم صدره، ومهما كثروا كانت كثرتهم مجلبة للخير، وأنساً في الرخاء، وعوناً في البلاء.

والعداوة مجلبة للشر، مهلكة للنفس، مُعطِّلَةٌ للنشاط، فالعاقل الحصيف هو الذي يحاول جهده ألا يكون له عدو، لأن العداوة تشغل المرء عما ينفع الناس، وتجعله يصرف همه وتفكيره في القضاء على عدوه، وإنزال أفدح الأذى بخصمه، وهذا يكلفه الكثير من الجهد ويستغرق منه الكثير من المال، وهو لن يجني من هذه العداوة إلا الأذى، ولو كان على خصمه من الظافرين.

فعدو واحد يكفي لتنغيص العيش، وجلب الشر، والمقت، وتشويه وجه الحياة، فما بالك إذا مني المرء بعدد كثير من الأعداء، كل منهم يريد هلاكه، ويتمنى دماره، ويرجو انهياره، إنها الطامة الكبرى والبلية العظمى! والبلاء الذي لا يَعْدِلُهُ بلاء.

غير أن كل ما قلناه لا يعني أننا ملزمون بغض الطرف على القذى، والسكوت عن العدوان، والاستذلال للسفيه الشرس اللئيم، كلا فليس هذا ما نريده، وإنما

نرى أن يحاول المرء ــ قدر استطاعته ــ الإكثارَ من الأصدقاء، إكثاراً لا يسيء إلى كيانه، بل يجلب له المسرة والهناء والخير والفلاح، ويتجنب إثارة العداوة بينه وبين الآخرين، طالما كان ذلك في حيز الإمكان، فإذا لم يكن من مقابلة العدوان بالعدوان بدٌّ، فليكن ذلك دون شطط أو تطرف.

وأما بالنسبة لأعداء الوطن كالمستعمرين مثلاً، والصهاينة الغادرين، فهذه العداوة ليست مدار بحثنا، لأن هذا النوع من الاعداء الألداء لا يمكن مصافاتهم حتى ولا مجرد التفكير في ذلك، لأنهم أعداء من طراز خاص، إنهم جاؤوا إلى أرضنا يريدون انتزاعها منا، وتشريدنا وسلبنا أعز ما نملك وهو الوطن، ولهذا فإن مراجل حقدنا عليهم لن تهدأ، حتى يولي آخر مستعمر عن دنيا العروبة، جاراً معه آخر صهيوني من أولئك الصهاينة الغادرين الدخلاء.

الموضوع العشرون:

قال الشاعر العربي:

وغلى الدم العربيُّ فيَّ فواجبي   تضميخ مجدي بالدم المهراق
هبْ أنَّ رحمةَ آسري ستفكني   أوَ لستُ أحملُ منةَ الإطلاق
وأشدُّ من أسري عليَّ بأن أرى   يدَ آسري يوماً تفك وثاقي

تصورُ هذه الأبيات صورة صادقة للعزة القومية، فحللْ هذا اللون من العاطفة، وبين أثره في حياة الشعوب الحرة.

بسط الموضوع:

لا يجهل أحدٌ أن العرب كانوا ولا يزالون في طليعة الأمم التي تبذل كل ما تملك من غال ونفيس لصيانة كرامتها وعزتها، والذود عن حرماتها ومقدساتها والعربي أبي عزيز النفس، تتأجج نيران الثورة في كيانه، إذا مست عزته القومية بسوء:

يهونُ علينا أن تصابَ جسومُنا   وتسلمَ أعراضٌ لنا وعقولَ

فلا شيء عنده أغلى وأرفع من عزته، وهو يأبى أن يساوم عليها ولو كان الثمن حياتَه، فعزته فوق حياته، وما هو إلا أن ينالها أحد بسوء حتى يفور الدم في عروقه، فلا يقنع بغير الدم يغسل به العار الذي لحق به.

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى   حتى يُراقَ على جوانبهِ الدمُ

وهذا عمرو بن كلثوم، يحاولُ الملكُ عمرو بنُ هندٍ النيل من عزته، فيوعز إلى

والدته أن تستخدم والدة عمرو، في شأن من شؤونها، فتستنكر أم الشاعر عمرو ذلك، وتصرخ «واذلاّه يالتغلب» فيسمع ابنها الصراخَ، فيتناول سيفاً للملك، كان معلقاً فوق رأسه، ويقطع به رأس عمرو بن هند، ويرتجل معلقته المشهورة التي يقول فيها:

تهـددُنـا وتـوعـدُنـا رويـداً   متى كنا لأمِّكَ مقتوينا (خدماً)

فإن قَنـاتـنـا يـا عـمـرو أعْيَتْ   على الأعـداءِ قـبـلـكَ أن تـلـينا

ألا لا يجـهـلَـنْ أحـدٌ عـلـيـنـا   فـنـجـهـلَ فوق جـهلِ الجاهلينا

هذا هو العربي في كل زمان ومكان: أبيٌّ لا يقبل الضيم، عزيز يأنف العارَ، ثائر بطّاش إذا مُست كرامته، لا يرضى المهانة ولو بذل حياته ثمناً وفداءً، ومهما اشتد به الضيق فهو يؤثر الاحتفاظ بكرامته وعزته على أن يعيش في رغادة وهناءة، يلازمهما الضيم والهوان.

مرَّ أحد الناس ببدوية في الصحراء، فقال لها: ألديك طعام يا أختاه، قالت: نعم، وكانت قد اصطادت حية قبل لحظات، فاشتوتها، وقدمتها مع خبز من دقيق الشوفان الأسود، فأكل شيئاً يسيراً، يدفع عنه به ألم الجوع، وطلبَ الماء فأشارت إلى مكان الماء، فمضى، وجرع منه جرعة، فاذا هو مرٌّ فعادَ إليها وقال: يا أختاه أليسَ في الأرض عيش هو أفضل من عيشك هذا؟ قالت: «بلى، ولكن أليس هناك حكامٌ يحدون من حريتكم ويستذلون كرامتكم، ويطؤون عزتكم، لا والله إن هذا الطعامَ وهذا الشراب مع العزة والكرامة خير ألف مرة من طعامكم وشرابكم، أمسك عن نصحك أرشدك الله».

ويعبّرُ أحدُ الشعراء عن هذا المعنى بقوله:

واستفُّ تربَ الأرضِ كيلا يرى له

علـيَّ مِـنَ الـطـوْلِ امرؤٌ مُـتَـطـَـوِّلُ

والعربي قائل الأبيات الواردة في السؤال أسيرٌ، والأسير يتمنى الإفلات، لأن

الأسر عذاب وهوان، ولكنه يرى في إطلاقه هواناً آخر، يضاف إلى هوان الأسر، فهو يأبى إذن أن يتحمل هذه المنة، بل هو يرى أن مذلة الاسر أهون عنده من مذلة إطلاق سراحه، وفك وثاقه من قبل آسره، إن أمله عظيم في أن يتمكن من تحطيم سلاسله بيديه، وأن ينطلق حراً عزيزاً كريماً، لا تنغص عليه حياته منةُ إطلاقه من الأسر، ولا يمس كرامته أنه مدين بحياته وحريته لآسريه.

ومن أجل هذا كله فإن العربي يفخر بأنه من القوم الذين لا يعرفون الموت على الفراش فلا يموتون إلا صرعى، كفنهم غبار المعارك، ولحودهم بطون النسور.

تسيلُ على حدّ الظباتِ نفوسُنا   وليستْ على غيرِ الظُّباتِ تسيلُ

(الظبات: السيوف)

الموضوع الحادي والعشرون:

قال الشاعر:

وأحـزمُ الـناسِ مَنْ لو ماتَ مِنْ ظمأٍ
لا يـقـربُ الـوردَ حتى يعرفَ الصَدَرا

اكتب في معنى هذا البيت، وبيِّنْ أن الإنسانَ العاقلَ هو الذي لا يمارس أمراً من الأمور إلا بعد درسه، وتقليب وجوه الرأي فيه، ولا يقدم على عمل إلا وهو يعرف طريقه إلى النجاح فيه.

بسط الموضوع:

حين يقوم الإنسان بمشروع ما، أو يُقْدِمُ على عمل من الأعمال، فإنه يرجو النجاح فيما يقوم به والحصول على الفائدة المطلوبة، وقد تكون هذه الفائدة مادية أو معنوية، وهي على كل حال الهدف الذي يسعى إليه المرء من وراء عمله.

ولكنَّ بعضَ الناس قد يتعجل في أمره، ويقدم على العمل في تسرع دون أن يكون قد درس المشروع دراسة وافية ودون أن يحسب حساباً لما قد يصادفه خلال عمله، فيقع في مشاكل ويتردى في مآزق، كان يمكنه أن يتفاداها، لو أنه حسب لكل خطوة حسابها، وعرف طريقه تمام المعرفة، وقدر بحذق وخبرة كل ما سيعترضه، وما سينتهي إليه.

فإذا حسب الإنسان العواقب، وفكر فيما تنتهي إليه الأمور، وعرف ما يمكن أن يحدث قبل أن يقدم على هذا العمل أو ذاك، وقبل أن يدخل في أي مشروع، وجد حينئذ طريق المضي فيه واضحة وعرف أيضاً طريق الخروج منه.

وإذا هَـمَـمْتُ بوُردِ أمرٍ فالتمسْ   من قبـلِ موردِهِ طريقَ المصدرِ

وبهذا يكون قد أمن شر الفشل، وتفادى عواقب الغفلة، والرجلُ هو الذي لا يدخل مكاناً لا يعرف طريق الخروج منه، فالعاقل يدرك الأمور على حقيقتها، ويقدر عواقبها، كما يكون على بينة من أمره، في كل الظروف والأحوال.

ولكنْ أخو الحزمِ الذي ليسَ نازلاً   به الخطبُ إلا وهو للخطبِ مُبصرُ

فالطيار مثلاً يكلف بمهمة ما، فيحسبُ أول ما يحسب الوقود الذي ستحرقه الطائرة في الذهاب والإياب، ويضيف إليه كمية إضافية للطوارىء، فإذا أقلع كان مطمئناً إلى النتيجة، فيمضي في مهمته ويعود، وما يزال بعض الوقود في مستودع الطائرة؛ أما الطيار الأرعن فقد لا يقدر ذلك تقديراً رياضياً دقيقاً، وقد يضيف إلى مخطط رحلته مسافات أخرى، لم يكن لها وجود في المخطط، وإذا بالوقود ينضبُ وهو بعيد عن قاعدته، فيضطر إلى الهبوط، وفي أكثر الأحوال تحترق الطائرة مع ملاحيها وركابها.

وقد يعمد بعض الناس إلى دخول مخاطر وخيمة العاقبة، بدافع الطمع والجشع أو الغباوة والبلادة، فينتهي بهم الأمر إلى أسوأ ما يتصوره المرء، وحينئذ يُدْمون أناملهم ندماً، ولكن لاتَ ساعة مندم.

وقد يخوض قائدٌ معركةً ضاريةً، فإذا كان قد أعد لكل أمر عدته، وحسب كل احتمال يمكن وقوعه، وقدر كل مفاجأة يمكن أن تحدث، فإنه في الغالب يفوز بالظفر، وتكون الدماء التي سفكت والأرواح التي أزهقت لم تذهب أدراج الرياح.

فالعاقل إذن هو الذي لا يخطو خطوة إلى هدف ما، إلا وهو يعرف طريق العودة معرفة تامة.

والأمة كالفرد في مثل هذه الأحوال، فإذا كانت الأمة طائشة متسرعة عجلة، لا تتدبر عواقب أعمالها، فإنها تتردى في مآزق رهيبة، قد تفقدها كرامتها وحرمتها واستقلالها.

قبل نشوب حرب السبعين التي اشتعلت في عام ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا، استعدت المانيا لهذه الحرب استعداداً كاملاً، وقدّرت أن الحرب لا بد واقعة بينها وبين فرنسا، ففي ذات يوم سأل رئيس الوزراء (بسمرك) وزيرَ حربيته عن استعداده لحرب قد تكون طويلة الأمد، فاجاب وزير الحربية أنه على استعداد، ولا ينقصه ولا رباطة حذاء، حينئذ أوعز (بسمرك) إلى إحدى الصحف في برلين أن تكتب في صحيفتها الأولى «إن العاهل الألماني العظيم طرد السفير الفرنسي من حضرته» وحين وصل النبأ إلى باريس غَلَتْ مراجلُ غضب الفرنسيين وتبارى الخطباء النواب في المجلس النيابي، داعين إلى الحرب، فوافق المجلس، وأعلنتْ الحربُ، وخرج النواب ينشدون النشيد الوطني هاتفين: إلى برلين، إلى برلين.

وفي تلك اللحظة بالذات كان الجيش الألماني قد اجتاز الحدود، وراح يحتل المدن الفرنسية الواحدة تلو الأخرى، بينما ذهب الفرنسيون ليبدؤوا بالاستعداد للحرب، وليعدوا السلاح والعتاد، وخسر الفرنسيون الحرب، ودخل الإمبراطور الألماني باريس منتصراً.

فالواجب إذن ألا نقدم على عمل إلا بعد أن نتخذ له الأهبة الكاملة، وألا ندخل في أمر إلا بعد أن نهيء لأنفسنا طريق الخروج منه.

الموضوع الثاني والعشرون:

قال شوقي:

وإذا النساء نَشَأْنَ في أميَّةٍ رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخُمولا
ليسَ اليتيمُ من انتهى أبواه مِنْ هَمِّ الحياةِ وخَلَّفاهُ ذليلا
إن اليتيم هُوَ الذي تلقى لهُ أمّاً تخلتْ أو أباً مشغولا

اكتب موضوعاً في معنى الأبيات السابقة، تُبَيِّنُ فيه أثر ثقافة النساء في تربية النشء، ونهضة المجتمع، وتحدث عن واجبات الأمهات والآباء نحو أولادهم.

بسط الموضوع:

المرأة هي نصف المجتمع، وبديهي أن هذا النصف هو الذي يقوم بمهمة تربية الطفل، وتنشئته، وتلقينه المبادىء، وتأصيل العادات فيه، فالمرأة من هذه الوجهة ذاتُ أثر عظيم، لا حدود له في حياة الجيل حاضراً ومستقبلاً، والرجل لا يعدُّ شيئاً مذكوراً إلى جانبها.

وما دام الأمر كذلك، فإن كل نقص في تربية الطفل مَرّده نقصُ الأم، وكل شذوذ يظهر في الغلام واليافع يعود إلى شذوذ في الأم، أو تقصيرها في معالجة شؤون الغلام. فإذا وجدنا غلاماً صادقاً أميناً، طاهر الأخلاق، عالي النفس عفيفاً، فعلينا أن نعلم أن وراء كل ذلك والعامل الأساسي في كل ذلك هو الأم.

ولا يزال كثير من الأمهات أميات جاهلات، والأميةُ سبب البلاء وأصْلُ

الشر، والعامل الرئيسي في تأخر الأمهات، فالأم الجاهلة الغبية لا تستطيع أن تعطي أولادها شيئاً غيرَ الجهل والغباوة، لأنها لا تملك غيرهما.

وعندما ننادي بمحو الأمية واستئصالها من بين صفوف الأمة، ونشر التعليم، وتعميمه، فما ذلك إلا لأننا ندرك تمام الإدراك مدى ما تتركه الأم من أثر في نفس الطفل، فإذا وجِدَتْ الأم المثقفة الصالحة المتحلية بالصفات الرفيعة، وُجِدَتْ الأمة المجيدة الخالدة، بمآثرها وحضارتها ومدنيتها.

قال حافظ إبراهيم:

الأمُّ مدرسة إذا أعْدَدْتَها أعْدَدْتَ شعباً طيبَ الأعراقِ

فالأمُّ صانعةُ الأ بطالِ الأشاوسِ إذا كانتْ صالحةً كريمةَ المزايا.

واللطيم كما نعلم هو الذي فقد أبويه، وتركاه يستقبل متاعب الحياة ومصائبها وحيداً لا سندَ له، ولا عضد، فيلاقي من صنوف العذاب، وألوان الهوان، ما يزهق النفس، ويروِّع الفؤاد، وقد يجد هذا اللطيم يداً رحيمة، تمسح عن نفسه بعض الشقاء الذي ألَمَّ بها، ولكنَّ كثيرين من الناشئين ممن ابتلوا بأبوين فاسدين، لا همَّ لهما إلا فيما لا علاقةَ له بالاسرة والبيت، فينشأ الأطفال في مثل هذه البيوت كالأ يتام بل هم أسوأ حالة منهم وأظلم مصيراً.

فالنبي ﷺ نشأ يتيماً فكان سيدَ المرسلين، ومرشدَ الإنسانية جمعاء إلى سبيل الخير والفلاح.

فاليتم ليس شراً أبداً إذاً إذا وُجدت اليدُ الحانية، والعينُ الساهرة، والقلب الرحيم، أما الطفل الذي انصرف أبواه عن رعايته وأهملا تربيته، وتخليا عن العناية به فهو المخلوق الضائع وهو بمنزلة من فقد أبويه كليهما.

وسواء أكان الطفل يتيماً وهو من فقد أباه فقط، أو عجياً وهو من فقد أمه، أو لطيماً وهو من فقد أبويه، فإنه يجد في أغلب الأحوال مدرسة تضمه إلى صدرها، أو جمعية خيرية ترعاه، وكثيرون من هؤلاء هم اليوم في أعلى المناصب، وأحفلها

بالمسؤوليات الجسام، وقد غدوا أعلاماً في صفوف الأمة، مخلصين أوفياء، عاملين، بينما ترى كثيرين ممن نشأوا ولهم أمهات وآباء يتسكعون اليوم في الطرقات ينشرون المفاسد والرذائل في كل مكان.

ولذا أوجد الله تعالى ــ في المرأة بخاصة ــ كل صفات الصبر والإخلاص، ورقة القلب، والوداعة، ولهذا رأيناها قد أوكل إليها القيامُ بشؤون أطفالها، لشدة حاجتهم إلى العناية الكبرى، لضعفهم في كل شيء كما فرض فيها أن تلقنهم إلى جانب ذلك المبادىء الأخلاقية، كحب الفضيلة، واحترام الحق، وكره الرذيلة ومقت الباطل، وأن تدربَهم على الصبر ومجابهة متاعب الحياة، مما يساعدهم في مستقبل أيامهم على الصمود في وجه أخطار الحياة ومصاعبها.

الموضوع الثالث والعشرون:

قال الرصافي:

لَعمْرِكَ ما هذي الحياةُ بمَلْبَسٍ لِمَن حيكَ من عجزٍ نسيجُ شعارِه
ولكنْ لمن أمسى بأيدٍ وقوةٍ يَجُرُّ على الأيامِ فضلَ إزارِه

اكتب موضوعاً في معنى هذين البيتين، مُبَيّناً أن حياة القوة والعظمة هي التي يجب أن تكون هدفَ المرء في دنياه.

بسط الموضوع:

إن الغلبة ـــ في هذه الحياة ـــ للأقوى الذي يستطيع أن يثبت أمام خصمه، وأن يردَّ له الضربات مضاعفةً، فيقضي عليه قضاء مبرماً، أو يلحق به هزيمة منكرة.

والإنسان الذي يستهين بهذا القانون الطبيعي، ولا يقيم له وزناً، يعرض نفسه للتمزيق والفناء، لأن هذا القانون لا يرحم أبداً، إنه قاس كالصخر، ماض كالبرق، واقعيٌّ كالشمس؛ ولذا فإن كل من تحدثه نفسه بمقاومته يلاقي شرّ الجزاء.

فلنكن أقوياء اذاً، أقوياء في كل شيء، في سلاحنا وعلمنا وأخلاقنا وإيماننا وفي أشياء أخرى كثيرة، ومتى استطعنا أن نكون أقوياء فإن قدرتنا على العمل والإنتاج والإعمار تزداد على الأيام وتنمو، أما إذا كنا ضعفاء فكل من في الوجود يتجرأ علينا، ويؤذينا، ويغتصب مالَنا، وما صنعته أيدينا.

والناسُ بطبيعتهم لا يقتربون من الشوكِ لخوفهم على أنفسهم من وخزه وأذاه،

ولكنهم بطبيعتهم العدوانية لا يتورعون أبداً عن تمزيق أجمل زهرة، ذلك لأنهم مطمئنون إلى أن الزهرة لا تملك من السلاح ما تدافع به عن نفسها، ولهذا حين أتي إلى أبي المعري بفرخة مطهية ليأكلها خلال مرضه خاطبها قائلاً:

«استضعفوك فوصفوك فلِمَ لا وَصفوا الأسد»

فكل مستضعف في هذه الحياة مأكولٌ، وكل مسكين فيها مغلوب على أمره، ولا يجني الضعيفُ في مجتمعنا المبني على تغلب الأقوى إلا الاحتقار والهوان.

وليس ينال الضعيف الذليل سوى أن يُحقَّر أو يزدرى
فهل ترحمُ الحملَ المستضامَ ذئابُ الفلا أو أسودُ الشرى

هذا هو قانون تنازع البقاء، فلا بقاء للضعيف ولا حياة للعاجز في مجتمع لا يختلف كثيراً عن مجتمع الغاب. فالحيوان القوي في الغابة يسطو على الضعيف ويمزقه، والدموع ليس لها أي اعتبار في هذا الميدان بل الأظافر والمخالب والأنياب والقوة العضلية الكاسحة.

فلنكن أقوياء فالناس لا يرهبون إلا القوة في عصر لا تعترف فيه الجماعات إلا بالقوة أساساً لتنظيم علاقاتها وإحكامِ صلاتها، والحق يعترفون به حقاً ما دام يستند إلى القوة وهو عندهم باطل ــ وأي باطل ــ إذا لم تكن القوة تدعمه وتحميه.

هذه الدول الاستعمارية في تاريخها الأسود الطويل لم تعترف ــ ولا مرة واحدة ــ بحق الشعوب في حريتها واستقلالها إلا بعد ثورات سالت فيه الدماء كالأنهار.

فالشعار الصالح لهذه الحياة هو: كن قوياً، لأن الحياة علمتنا أن من لم يكن ذئباً أكلته الذئاب، فكن قوياً تكن عظيماً فحياة القوة هي التي تجعلنا عظماء وتبعد عنا أذى البغاة والمستعمرين الطغاة.

فكـن يابس العود صُلبَ القناة　　قـويَّ المـراس مـتين الـعرى
ولا تـتـطـامـن لـبـغـي الـبـغـاة　　وكـن كـاسـراً قـبـل أن تكسرا

وإذا كنا نريد القوة، فاننا نريدها قوة خيرة بناءة تنصر الحق وتدعو إليه وتحارب الباطل والمبطلين، تحمي الكرامة وتصونها وتذود عن الأرواح والمقدسات.

كن قوياً تكن عظيماً هذا هو الشعار الذي يجب أن يرفع اليوم وكل يوم.

الموضوع الرابع والعشرون:

قال أحدهم:

من ابتغى حسنَ المعاشرة والاحتفاظ بمودة الأصدقاء، فلا يكثرن من عتابهم، وتحري هفواتهم، لأن المرءَ مهما سما خلقه لا يسلم من ارتكاب الهفوات والزلات، إذِ الإنسانُ مخلوقٌ لا يُعْصَمُ من الخطأ.

اكتبْ في هذا الموضوع، مُبَيِّناً أن الصديق كالسهم يخطىء ويصيب، وأنَّ أعجز الناس من يعجز عن اكتساب الأصدقاء، وأعجز منه من ضَيَّع أصدقاءه بعد حصوله عليهم.

بسط الموضوع:

التآلف بين الناس أمر طبيعي تمليه الضرورةُ وتتحكَّم به الغريزة، فالإنسان اجتماعي بطبعه، لهذا فهو يقبل على اتخاذ الأصدقاء، ومعاشرة الآخرين من الناس، معاشرة تختلف باختلاف نوع العلاقة، كالقرابة والزمالة والصداقة وغيرها.

وطبيعي أيضاً أن يحرص المرء على أصدقائه وإخوانه بحسن معاشرتهم، وأن يحاول جهد طاقته أن يحتفظ بمودتهم؛ فالمرء العاجز هو الذي لا يستطيع أن يجد له أصدقاء، وأعجز منه هو من ضيع من ظفر به منهم، والحياة بلا صديق جحيم لا يطاق، يقول الشاعر:

وكنتُ إذا الصديقُ أرادَ غيظي ... على حَـنَـقٍ وأَشْـرقني بـريقي

غـفـرتُ ذنـوبَهُ وكظمتُ غيظي ... مخـافـةَ أن أظَـلَّ بـلا صـديـقِ

فالعاقل إذاً هو من يغضي عن هفوات الأصدقاء، ويصفح عن عثراتهم، وليس من الإنصاف في شيء أن يترك المرء صديقه لأول هفوة تصدر عنه، فما من إنسان في الوجود مبرأ من الخطأ، والصديق كالسهم يخطىء ويصيب، فإذا أكثر المرء من العتاب، وألحّ في المؤاخذة، انحلت عرى الروابط بينه وبين أصحابه، وتغيرت القلوب، وحلّت القطيعة محل الإخاء والمودة.

قال الله تعالى:

﴿والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن الناسِ والله يحبُّ المحسنين﴾.

فإذا رأيت من صديقك أمراً تكرهه، أو عادة لا تحبها، فلا تبادر إلى قطع حبل المودة، بل عالج هذا النقصَ الذي وجدته فيه بكل طاقتك، دون أن ترهقه بالعتاب، أو تؤذيه باللوم، لأن كثرة العتاب سبب من أعظم أسباب القطيعة.

في الحياة حقيقتان ثابتتان: الأولى هي أن الصديقَ الذي لا عيبَ فيه لم يخلق بعدُ، والثانية هي أنه ليس في الوجود من يستغني عن الأصدقاء. وما دام الأمر كذلك فأولى لنا ثم أولى، أن نتغاضى عن زلات الاخوان، ونتغافل أحياناً عما يبدر منهم من الهفوات.

ومن ذا الذي تُرْضى سجاياهُ كلُّها
كفى المرء نبلاً أنْ تُعَدَّ معايبُه

والعتاب إذا كان رقيقاً دون إكثار فقد يجدي في إصلاح تصرفات الصديق، إذا كانت هذه التصرفات سيئة حقاً، فالعتاب قد يصلح ليكون علاجاً نافعاً ولكنه يجب أن يؤخذ كما يؤخذ الدواء، فمقدار قليل منه كافٍ لمعالجة الصديق، فإذا زادت الكمية تلاشى النفع، بل قد يتعرض المريض للأذى والهلاك.

وكثيرون من الأصدقاء إذا عوتبوا ركبهم العناد، وانتابهم الغيظ، وظنوا أن هذا العتاب مؤذٍ لكرامتهم مهين لشخصيتهم مذلٌ لعزتهم، فتحل القطيعة، ويسوء الحالُ، ويشتد التباغض وتنتهي الصداقة، ولا يبقى أي أمل في عودة المياه إلى مجاريها.

والإنسان نزّاع بطبيعته إلى البساطة، فهو يكره التشدد في الأمور، والتزمت في الأحكام والآراء، فإذا وجد المرء من صديقه شدة وغلظة وتزمتاً، فضّلَ الانصراف عنه إلى غيره، فقد يجد عنه هذا الأخير جنباً ليناً، وخلقاً سهلاً، وصدراً رحباً. فيصفو الجو، وتسود المحبة، وتقوى الروابط على الأيام والأعوام.

ويقول بشار بن برد الشاعر في هذا المعنى:

إذا كنتَ في كلِّ الأمور معاتباً
صديقَكَ لم تَلْقَ الذي لا تعاتِبُه

فعشْ واحداً أو صِلْ أخاكَ فإنهُ
مقارفُ ذنب مرة ومجانِبُه

الموضوع الخامس والعشرون:

اكتب في الموضوع الآتي:

قال أحد الحكماء لابنه:

«يا بني! إن أحسنت فانسَ إحسانك، وإن أحسِن إليك فلا تنسَ أنه دين ويجب أن يؤدى».

بين قيمة هذه الوصية واذكر أثرها في حياة الأمة.

بسط الموضوع:

إن الإحسان إلى من هم بحاجة إليه عمل نبيل، في مجتمع لم تتح الفرص فيه للجميع، على حد سواء، ففي مجتمع كذا يجب على من أوتي بسطة في الرزق أن يحسن إلى من حرموا الكفاف، أو انسدت في وجوههم أبواب العيش، أو انعدمت لديهم وسائل السعي.

وقد يأتي الإحسان عن يد فرد، وسّع ا لله عليه في الرزق والجاه، أو عن يد جماعات تؤلف فيا بينها جمعيات، تقوم بأعمال البر والإحسان، وهؤلاء جميعاً مطالبون بأن ينسوا إحسانهم، فلا يحملهم الإحسان على الزهو والخيلاء، أو النظر إلى المحسَن إليهم نظرة فيها الاحتقار والتعالي، فيشعر هؤلاء المساكين بعجزهم، ومهانتهم، وصغارهم وهوان أمرهم.

وأشنع بأن يقرن المحسن إحسانه بالمنة المقيتة فيفسد الإحسان، قال الله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُبْطِلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى كالذي ينفقُ ماله رئاءَ الناسِ، واتقوا الله ﴾.

أو أن يحاول المحسن أن يشعر المحسَن إليه بأنه مدين له مدى الحياة، وأنه لا بد من وفاء هذا الدين في مقبل الأ يام، وبها يبطل الخير الذي قصده والجميل الذي صنعه، فلا شيء آذى لنفس الإنسان من ذكر الإحسان، فإذا ما تكرر وتردد وقعه على آذان المحسَن إليهم، كرهوا الإحسان والمحسنين وكرهوا الساعة التي تلقوا فيها نعمة الإنسان، وانقلبوا ناقين، واعتقدوا ذلك الإحسان كان نقمة عليهم، إذ سلبهم كرامتهم وعزتهم، وجعلهم أرقاء يخضعون الرقاب للمنعِم، يسبحون بحمده دون الله العلي القدير.

ويحدث في مثل هذه الحالة أن يثور المحسَنُ إليه لكرامته، فيتمرد على المحسن ويتنكر له، وينفر منه، فيظن المحسنون أن تلك سجية هؤلاء البؤساء، فيدعون إلى الحذر من شر المحسن إليهم، وإلى اتقاء خبثهم وأذاهم.

إن اللئيم وحده هو الذي يقابل الإحسان بالجحود، أما إذا وجدت الكريم يتنكر للمحسن، ويحمل عليه، ويجتويه فالسبب واضح، إنه يكمن في تجبر المحسِن، وكبره، وزهوه وخيلائه، وتعاليه على من أحسن إليهم، ومطالبتهم بالوفاء في كل لحظة يلقاهم فيها.

يقول الحكيم:

«وإن أحْسِنَ اليك فلا تنسَ أنه دين ويجب أن يؤدى».

وهذا حق، فالإحسان دين، فإذا كان المحسَنُ إليه إنساناً نبيلاً شهماً ذا مروءة ردَّ هذا الدين، أو رده مضاعفاً إذا أيسر، وصلحت حاله، ونعم باله، قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ ﴾.

وعندما يجازى الإحسان بالإحسان، ويقابل المعروفُ بالمعروف، فإن ذلك يذكي الهمة في نفوس المحسنين، ويحفزهم إلى تنظيم الإحسان، وتعميمه، حتى يصبح شاملاً، فلا يبقى محتاج يتضور جوعاً، ولا ذو فاقة يتألم سغباً، وتسود

الإنسانية دفقةٌ من الرحمة والتعاطف، لا تقف عند حد.

فلنحترم المحسنين إذاً، ولنكافئهم على إحسانهم أضعافاً مضاعفة، حتى لو كانت هذه المكافأة معنوية، ففي ذلك تشجيع لهم على الاستمرار في الإحسان، لأنهم يجدون في ذلك لذة معنوية هي لذة القيام بالواجب، وهي لذة تقصر عنها سائر اللذات في هذه الحياة.

الموضوع السادس والعشرون:

قال الشاعر:

لا تَحْقِرَنَّ صغيراً في مخاصمةٍ إن البعوضةَ تُدْمي مقلةَ الأسدِ
وفي الشرارةِ ضعفٌ وهي مؤلمةٌ وربما أضرمتْ ناراً على بلدِ

اكتبْ موضوعاً في معنى هذين البيتين، وبيِّن أن على المرء ألاّ يستهينَ بصغائر الأمور التي ينتج عنها أخطار كبيرة، إذا لم تُتَدارَك في أول ظهورها.

بسط الموضوع:

قيل في المثل:

«إنَّ معظم النار من مستصغر الشرر»

ذلك لأن كل أمر من الأمور يبدأ أول ما يبدأ صغيراً ثم يكبر ويكبر حتى يصبح أمراً جللاً وخطباً جسيماً.

وربَّ حادثة صغيرة لم يُؤْبَهْ بها، ولم تنل من الانتباه واليقظة والتفهم ما تستحقه تمخضت عنها أخطار، لا توصف ولا تحد، فالحرب العالمية الأولى التي حصدت الملايين، ودمرت المدن، وأشاعت الخراب والموت، وأهلكت الحرث والنسل، كان سببها اغتيال طالب بلقاني حياة رئيس إحدى الدول، ولم يكن من الصعب تفادي نيران هذه الحرب، لو جعل العقل حكماً في مثل هذه الأمور.

وكثيرون هم الذين لا يبالون بصغائر الأمور، ولا يتنبهون لخطئهم وغفلتهم إلا بعد أن ينزل بهم الأذى، وينتابهم الضُرُّ، فيسارعون إلى تلافي ما فرط منهم،

وتدارُكِ ما أفلت من أيديهم، فلا يظفرون بطائل، ولا يصلون إلى نتيجة، ذلك لأنهم لم يتدبروا الأمر وهو صغير، ولم يفكروا في عواقب تهاونهم، وتشاغلهم عن هذا الأمر الصغير، لاعتقادهم أنه تافه، لا يستحق الالتفات.

قال الشاعر:

وقد يَكْبُرُ الخطبُ اليسيرُ ويجتني
أكابرُ قومٍ ما جناهُ الأصاغِرُ

وكثير من الحوادث المريرة التي تحدث بين الاخوان والأصدقاء، أو الأزواج والأقارب تنشأ في الغالب عن أسباب تافهةٍ حقيرة، لو سارع ذوو العلاقة بها إلى إخمادها قبل أن تستفحل لزالت، وتلاشت دون أن تترك أي أثر أليم، أو تنتهي إلى شر جسيم.

إن استصغارنا لبواعث الشر، واستهانتنا ببوادر الحوادث ينشأ عنها في الغالب أخطار ماحقة، تشيب لهولها الولدان، فقد يستهين أحدنا بخصمه، مطمئناً إلى ضعفه وقصوره، وعجزه عن أن يقوم ضده بعمل يذكر، فتجر علينا غفلتنا هذه من الخسائر ما يذهل العقل، ويحطم الأعصاب، ويوهي الهمم والعزائم:

قد يَبْعثُ الأمرَ الكبيرَ صغيرُه   حتى تَظَلَّ له الدماء تَصَبَّبُ

هناك أسطورة نظمها أحمد شوقي أمير الشعراء تحت عنوان «ملكُ الغربان وخادمُهُ نَدور» تعبر تعبيراً قوياً عما نحن في صدده.

فملك الغربان كسائر الملوك لا ينظر إلى صغار الأمور إلا نظرة الاحتقار، فلما دخلت قصرَه المبني على دوحة من أعظم الدوح سوسةٌ واحتلت لها مكاناً فيه حذره خادمه ندور من هذه السوسة، وطلب إليه أن يأمر الغربان بقتلها:

سوسةٌ كانت على القصرِ تدور   جازتِ القصرَ ودبَّتْ في الجذور
فابعثِ الغربانَ في إهلاكِها   قبلَ أن نَسْقُطَ في أشْراكِها

ولكن الملك العظيم لا يبالي بخطر يأتي من سوسة حقيرة، ومرت الأيام وتكاثرت السوسة، وأتلفت مع نسلها اللعين جذع الشجرة، فهوت وهوى معها القصر، وانقض السرير، حين هبت الرياح العاتية، إبان ذلك الشتاء العاصف.

إنها أسطورة، ولكن مشابهها في الحياة كثيرة، تقع كل يوم، بل كل لحظة، فقد يصاب المرء بمرض يولده جرثوم ضئيل الشأن، فإذا بادر المرء إلى التخلص منه بالعلاج، نجا من شره، وأما إذا أهمله استصغاراً لشأنه تكاثر الجرثوم، واستشرى المرض، واستفحل الداء، واستعصى على الطب شفاؤه، لأنه بات داء عضالاً لا يرجى برؤه.

والأمة كالفرد، إذا أهملت شؤونها الصغيرة، ولم تنتبه للدقيق من المشاكل التي تواجهها، أضحت هذه المشاكل الصغيرة كبيرة، فساد في صفوفها الاضطراب وتفاقمت عليها الأخطار، وطمع فيها الضعيف، وغدت عرضة لتسلط المستعمرين الذين يتربصون بها.

الموضوع السابع والعشرون:

قال أحدهم:

إن الاسترسال في الملذات، والانغماس في الترف يوهي العزائم، ويفسد الخلق، ويؤدي بالأمة إلى الضعف.

اكتب في هذا الموضوع.

بسط الموضوع:

الحياة عمل تعقبه راحة، وجدٌ يعقبه تمتع بثمرات هذا الجد، وتعب في الوصول إلى الأهداف المثلى يعقبه التمتع أيضاً باللذات التي تتاح لنا عقب تحقيق آمالنا وأهدافنا.

هذه شريعة الحياة، عمل وكدح وعناء ونصب، يعقبها نعيم ولذات وراحة وهناء.

فالجسم بعد التعب يطلب الراحة، وبعد الشقاء والحرمان يطلب اللذة والتمتع بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى. والنفس كذلك، فإذا طال عناؤها واستمر عذابها وشقاؤها وحرمانها كفرت بأنعم الله، ولم تصلح الحياة.

إن للجسم حقاً لا يجوز أن نقصر فيه، كما أن للنفس حقاً يجب أن تناله، فحق الجسم الراحة بعد التعب والتمتع بالملذات المشروعة وهي كثيرة موفورة، وحق النفس الترويح عنها بعد العناء، بما في هذه الدنيا من متع ومسرات بريئة ومشروعة، وكلها ميسور وموفور.

فالجسم إذا ظل محروماً من فرص الراحة واللذة حلّ به الأذى وانتابته

الأسقام، والنفس إذا حرمت من مباهج الحياة ومسراتها صدئت، وانتابها الغم والهم، وحلّ بها البوار.

وخير الناس هو الذي يستطيع أن يجمع بين الأمرين فيعمل ويلذ، ويتعب ويتمتع، ويكد ويستجم، ويسهر لينام بعد ذلك نوماً هنيئاً، ويواصل العمل لينتج ما يستطيع أن يجتني منه أينع الثمرات، وأوفر الغلات.

لكن الأمور ـــ في الأغلب ـــ تسير على غير ما بسطنا فما هو إلا أن يجد المرء في كفه فيضاً من المال حتى ينغمس في ملذات تفسد الخلق، وتوهي العزائم، وتفلج الضمائر، وتميت الوجدان، ومتى وضع المرء قدمه في أول هذه الطريق الزلقة فلن يقف فيها عند حد، ما دام منتفخ الجيب بالنقود، فتذوب قواه بأسرع مما تذوب هذه النقود، ويضمحل خلقه، وهو كلما امتدت به الأيام يزداد إمعاناً في الانغماس في الملذات، واسترسالاً فيها، ويغرق في الترف، فتسقط مروءته، وتتلاشى منزلته، وينتهي حاله إلى أسوأ الأحوال.

فالترف مدمر النفوس، مُوهٍ للعزائم، مفسدٌ للخلق، قال الله تعالى:

﴿ وإذا أَرَدْنا أن نُهْلِكَ قريةً أَمَرْنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القولُ فدمرناها تدميرا ﴾.

والأمة بمجموعها تتألف من أفراد، فإذا كثر في الأمة المترفون في ملذاتهم وشهواتهم، السادرون في غواياتهم، العاكفون على دور الملاهي وبيوت الفحش، إذا كثر هؤلاء في الأمة وهت عزيمتها، وضعفت قواها، وفسدت أخلاقها. فلا هي قادرة على الكف عن موبقاتها، ولا هي تصلح للحياة، وهي على ما هي عليه من فساد ووهن وانحلال.

وإنما الأمـم الأخلاقُ ما بَقِيَتْ   فإنْ هُمُ ذهبتْ أخلاقهمْ ذَهبوا

فإذا انصرف همُّ الأمة إلى الملذات والشهوات، لم تعد قادرة على حماية الثغور وصيانة الحدود، والنهوض بالمسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقها، فتهوي في

ظلمات من الجهل والبؤس والانحطاط، فتتفرق كلمتها، وتنهار مقاومتها، ويطمع فيها الضعيف الجبان، وتصبح في خبر كان.

وخير ما نختم به موضوعنا هو أن ندعو الناس إلى القصد في كل شيء، والاعتدال في كل الأحوال، فلا إفراط ولا تفريط، وخير الأمور أوساطها، فليعمل المرء ما استطاع العمل، على ألا ينسى نصيبه من الدنيا، وليعلم أن كل ما يتمتع به من ملاذ الحياة يجب ألا يعقبه الندم، وألا ينتهي به إلى الفاقة والعُدْم.

الموضوع الثامن والعشرون:

قال الشاعر:

إذا تضايَقَ أمرٌ فانتظرْ فَرَجاً ... فأضيقُ الأمرِ أدناهُ مِنَ الفرجِ

اكتب موضوعاً حول هذا البيت، وبَيِّنْ أن الصبر هو طريق الظفر، وأن الأمور كلما ضاقت، والأزمةَ كلما اشتدت كان الفرج أقرب.

بسط الموضوع:

الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، يوم تتذوق فيه حلاوة الفوز، وتقطف فيه ثمرة النجاح، ويوم آخر تذوق فيه ما هو أمر من الحنظل، فلا شيء يدوم، النعيم والبؤس يتعاقبان علينا تعاقب النهار والليل، والحزنُ والسرورُ يتداولان حياتنا تداولاً رتيباً لا خلل فيه، ودوام الحال من المحال.

ومن عاشَ في الدنيا فلا بُدَّ أنْ يرى

مِنَ العيشِ ما يَصْفو وما يتَكَدَّرُ

وعلى هذه القاعدة التي ذكرناها، وهي «دوام الحال من المحال» فكل ضيق ينزل بنا سينتهي إلى فرج، بل كلما اشتد هذا الضيق كان الفرج أقرب، إذ لكل شيء نهاية، فكلما ازداد الأمر تأزُّماً وشدة كان أقرب إلى نهايته وانفراجه.

يقول الشاعر:

وكلُّ شديدةٍ نزلتْ بقومٍ ... لها مِنْ بَعْدِ شِدَّتها رَخاء

فالإنسانُ العاقل هو الذي يوطِن نفسه على لقاء المكاره، ويعودها مجابهة الخطوب، ويأخذها بالصبر والثبات حيال نائبات الأيام، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته مصيبة صبر وصابر وجاهد وجالد حتى تنقشع الغمة، وتنكشف الكربة، فكل ما يجده المرء اليوم صعباً عسيراً سيغدو في اليوم التالي سهلاً ميسراً.

إذا الأمرُ أعيا اليومَ فانظُرْ به غداً
لعلَّ عسيراً في غدٍ يتَيَسَّرُ

وكيف يستسلم المرء لليأس إذا دهمه خطب، أو تعقدت الأمور لديه، وهو يعلم أن الحياة لا تدوم على حال، وأن تقلبها متواتر، وتنكرها قريب، وكدرها مرتقب، والإنسان فيها لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فهو في الغالب ريشة في مهب الريح، وإن حاول جهد طاقته أن يكون في منتهى الحكمة، وأن يتجنب كل هفوة، وينأى عن كل ورطة، ومهما أوتي من العلم النافع والرأي الثاقب، والوعي الواسع، والمنطق السديد، فإنه لن يدوم له الصفاء، ولن يستمر في ساحته الهناء.

هِيَ الأمورُ كما شاهدتَها دولٌ   مَنْ سرَّه زَمنٌ ساءتْهُ أزمانُ

والإنسان يحاول جهده أن يجعل حياته كلها مَسرَّة متصلة، وبهجةً دائمة، ونعيماً لا تكدره الأيام؛ وقد يوفق في ذلك إلى حد ما، ولكننا لم نعرف فيمن سبق من الناس، ولا في الأحياء منهم من استطاع أن يحقق هذا الأمل، أو أن يحول دون الكثير مما حلّ بساحته من النوائب والأرزاء.

وليس هذا مما يثبط الهمم، ويوهي العزائم، ويدعو إلى اليأس، بل هو في رأيي تعزية عظمى لا تطالها تعزية، إذا أيقن المرء أن الدهر ذو غِيَر، وأن الأيام قُلَّب، وأن الويل كلَّ الويل لمن يبطر، ويسترسل في الملذات في أيام نعيمه دون أن يحسب حساباً لتبدل الأحوال.

ومتى آمن المرء بكل هذا وأيقن بواقعيته لم ييئس في الشدة، ولم يبطر في الرخاء، بل عاد إنساناً سوياً في الحالين، فلا تستطيع الحوادث مهما عظمت أن

تلعب به، ولا تتمكن النوازل مهما اشتدت أن تتصرف بذاته كما تريد، بل يبقى هو الربان الذي يدير دفة سفينته، فيعلو تارة، ويهبط أخرى، ولكنه على كل حال سيصل إلى شاطىء السلامة.

والواقع الذي لا شك فيه هو أنه كلما اشتدت الأزمة كان الفرج قريباً، وكلما تعقدت الأمور كان حلها أقربَ وأسرعَ.

وَلَرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بها الفتى ذَرْعاً وعندَ اللهِ منها المخرجُ

الموضوع التاسع والعشرون:

قال الشاعر:

وأغْـزَرُ الـنـاسِ عـقلاً منْ إذا نَظَـرَتْ
عـيـنـاهُ أمـراً غَـدا بـالـغـيـرِ مُـعْـتَـبِرا

اكتب موضوعاً حول هذا البيت، وبيِّنْ أن الإنسان العاقل هو من ينتفع بتجارب غيره، ويتعظ بما يحل بسواه.

بسط الموضوع:

إذا كان المرء يتمتع بعقلٍ واعٍ، وبصيرة ثاقبة، وفكر نيّر، فإنه يستطيع بهذا كله أن يَجِدَ له طريقاً أمينة، يسير فيها فتستقيم أموره، ويحالفه النجح في كل أعماله ومراميه.

ولكن الأحوال قد تسوء، وقد تعترض سبيله مصاعب وأخطار، لم تكن في الحسبان، وقد يفاجأ بأمور لم يكن قد أعدَّ لها العدة، فهنا يستطيع أن يتخذ مما حدث للآخرين عبرة له، فيتجنب الأخطاء التي وقعوا فيها، ويبتعد عن المساوىء التي ترَدوا في حَمْأتها.

ومن الخطأ الفادح أن ينظر العاقل إلى الأمور التي تجري حوله، نظرَ المتفرج إلى شريط خيالي، فإنه بذلك لا يجني أية فائدة، وقد تحدث معه نفس الحوادث إن لم يتعظ بما حدث لغيره، ولم يستفد من تجربة سواه.

قال الشاعر:

فِي كُـلِّ شيءٍ عِـبْـرةٌ لِـمَنْ عَقَلْ   ما أسعدَ العيش إذا المرءُ اعْتَدَلْ

فالعِبرة للعقلاء وليست للجهلاء الأغبياء، لأن العاقل يستطيع أن يُعمِلَ فكره بما يرى، وأن يحكِّم عقله فيما يشاهد، فيخرج من كل ذلك بفوائد جليلة، تعينه على قهر المصاعب التي تعترض سبيله، وترشده إلى النهج السويّ الذي يمضي به إلى خير الأهداف والغايات.

قال الله تعالى:

﴿ واعتبروا يا أُولي الأبصار ﴾.

وكيف لا يعتبر المرء بسواه ممن حلَّ بهم الأذى، وغشيتهم الخطوب، وكلفتهم أخطاؤهم المال والأرواح؟ فالسعيد من اعتبر بغيره، والشقي من قلَّ اعتباره، فكثر عثاره، وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

﴿ السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ ﴾.

والعاقل يستطع أن يستخلص العبرة من كل شيء، فما أكثر العبر، ولكن ما أقل الاعتبار، ذلك لأن العبرَ لا يقع عليها إلا من كان له قلب واع وسمع مرهف، وعين ناظرة، وبصيرة نافذة، وعقل راجح.

إن مناهج التربية الحديثة تحث على أن يترك الناشيء لنفسه، فإذا وقع في خطأ ما فخير له أن يتحمل مغبة خطئه، وأن يذوق نتائجه المرة، وبذلك يكتسب تجربة، وحذقاً وتعقلاً ووعياً، وهذا صحيح، ولكن إلى الحد الذي يقبله المنطق، فإذا كان المرء يرى سوء حالة أولئك الذين يتعاطون المخدرات ــ مثلاً ــ وما يلاقونه من المهانة والضعة، وما يعانونه من الأسقام والآلام، ولا يتعظ بل يحاول أن يمر بتجربة مماثلة، فلا يبعد أن يحل به ما حل بعالم الآثار الدانمركي الذي أراد أن يكتب مقالة عن الحشاشين، فعزم على أن يخالطهم، ويحيا حياتهم فترة قصيرة، ليكون أقدر على الكتابة وأصدق في التعبير، فلم يمض وقت طويل حتى أصبح مدمناً، يلازم كهوف المدمنين ليلَ نهار، تاركاً وراءه زوجة وأولاداً، كما ترك عمله، فقطعت عنه دولته المرتب الضخم الذي كان يتقاضاه، وخسر علمُ الآثار عَلَماً من أعظم أعلامه.

فالتجربة التي توجبها الضرورة شيء، والتجربة التي لا تمليها الضرورة شيء آخر.

وقد يغرس أحد الفلاحين شجراً في أرض رديئة، لا تصلح لهذا النوع من الغراس فيتلف، ويخسر الفلاح قدراً كبيراً من المال، فاذا سمع بذلك قرويون آخرون عكفوا على هذه التجربة الفاشلة، قبل أن يغرسوا في الأرض نفسها أي عود آخر، فدرسوها وكشفوا السبب الذي أودى بغراس زميلهم، وتجنبوا الخطأ الذي وقع فيه.

ولو استفدنا من تجارب الآخرين لوفر علينا ذلك أموالاً طائلة، تذهب ضياعاً، وجهوداً مضنية تضيع هدراً.

وقد ينصحنا الناصح، ويضع بين أيدينا تجربته الطويلة التي كلفته الكثير، فيأبى علينا عنادنا وكبرياؤنا، واعتدادنا بأنفسنا أن نأخذ بهذه التجارب، ونصر على أن لنا رأينا، وأن ما نراه هو الصواب، وغيره هو عين الخطأ، وأن السادة المجرَّبين أناس تحجرت عقولهم، وجمدت، فلم تعد نصائحهم تجدي نفعاً، ونركب رؤوسنا، ونمضي في خط سيرنا، فتصيبنا الضربة تلو الضربة، ونعثر العثرة بعد العثرة، وفي كل ما نلاقيه نذكر الناصح، ونندم على ما صنعناه بأنفسنا، ولكن ماذا يجدي الندم؟.

قال بعض الحكماء:

«ما أكْثَرَ العبرَ لِمَنْ نظَر، وأنْفَعَها لِمَن اعتَبَرْ».

الموضوع الثلاثون:

اكتب في الموضوع التالي:

كفاءة الإنسان تقاس بما ينجزه من أعمال، لا بما يشرع فيه منها.

بسط الموضوع:

خلق الإنسان وخلق معه العمل، ولهذا فإنه يظل حياته كلها في عمل دائم وجد مستديم.

وأعمال الناس ليست كلُّها في مستوى واحد، فمنها العظيم الصعب، ومنها البسيط السهل، ولكنها في جميع أشكالها لا قيمة لها، إذا لم يتم إنجازها، وتتحقق فوائدها، وتُجتنى ثمرتها.

فتخطيط المشاريع وحده لا يكفي لإقامة نهضة، أو ازدهار أمة، بل يبقى حبراً على ورق، إذا لم يقترن هذا التخطيط بالتنفيذ والإنجاز، ولا يكون الإنسان كفؤاً إلا إذا جعل من مشروعه المخطط حقيقة، وتدفق إنتاجه، يشق طريقه إلى الأسواق، هناك يمكن أن نقول: إنه إنسان منتج، وعامل كُفء.

وقد يبدأ المرء مشروعاً فلا يمضي فيه خطوات، حتى يحل به الضجر، وينتابه الكسل، فلا يحاول أن يتمه، ولا يفكر في ذلك، فيذهب الجهد هباء، ويضيع المشروع بين الكسل والضجر.

لا تَضْجَرَنَّ ولا تَدْخُلْكَ مَعْجَزَةٌ ... فالنُجْحُ يَهْلِكُ بين العجْزِ والضَجَرِ

فعلى المرء ـــ حين ينهض بمشروع ما ـــ أن يتثبت من قدرته على إنجازه أولاً، فإذا كان موقناً بذلك، قام بتخطيط المشروع تخطيطاً دقيقاً، بحيث لا يترك شاردة ولا واردة إلا ويحصيها، فإذا تم له ذلك أخذ بتنفيذ المشروع، بهمة لا تعرف الكلل، وإرادة لا تُفَلُّ، فلا يبالي بما يمسه من عناء، ولا يأبه لما يناله من نصب، يقتحم المصاعب ويذللها، ويتخطى العقبات فلا يتهيبها، حتى يتم العمل ويكتمل، ويؤتي ثمراته اليانعة، وتعم خيراته المباركة.

وقد تكون المصاعب جمة، لا تحتمل، ولكن الإرادة المصممة تستطيع أن تتخطاها منتصرة ظافرة.

عندما تقرر مدُّ سلك برقيٍّ في قعر المحيط الاطلسي كلِّف بذلك أحد المهندسين، فاندفع في المشروع بكل ما أوتي من قوة. كانت المسافة ألف ميل بحري عدا أنَّ السلك سوف يمر في بعض طريقه بغابات كثيفة، طولها أربعمئة ميل.

وحُملت الأسلاك على بارجتين، وبعد أن مُدت خمسة أميال، انقطعت الأسلاك فأعيد مدها، وغرقت إحدى السفينتين، ولكن المهندس لم تثنه المصاعب ولم تخر عزيمته، واستطاع أن يستعين ببعض العلماء، فساعدوه في استنباط آلة جديدة لمد السلك، ولكن السلك عاد فانقطع على مسافة مئتي ميل.

وتم مدُّ السلك بين القارتين، بعد جهود مضنية لا تطاق، وبعد تبادل عدة رسائل انقطع التيار الكهربائي، فتعطل العمل من جديد.

وكان المال الذي اكتُتِب به للمشروع قد نفد، وضعفت ثقة الناس، فلم يجرؤوا على الاستمرار في تقديم أموال أخرى، وبذل المهندس جهداً جباراً في إقناع المساهمين بصحة تصميمه، ودقة تخطيطه، وما كاد يستأنف العمل من جديد حتى تعطل الإرسال، إذا انقصف السلك في مكان ما من المحيط.

تُرِكَ العمل في المشروع سنةً كاملةً، وعاد المهندس، فاستأنف العمل إذ إن كل تلك المصاعب لم تثبط من عزمه، فألف شركة جديدة، واتخذ سلكاً جديداً أمتن من سابقه، وفي مدة تقل عن السنة أرسل البرقية التالية من إنكلترا إلى نيويورك:

وصلنا إلى هنا الساعة التاسعة من هذا الصباح وكل شيء على ما يرام والحمد لله، وقد نجز مدُّ السلك وهو يعمل بنظام تام.

التوقيع

ولا يزال هذا السلك يعمل إلى اليوم.

وصفوةُ القول أنك تستطيع أن تنال ثقة الناس واحترامهم واقرارهم بكفاءتك بمقدار إنتاجك، فإن كنت منجزاً لأعمالك مجيداً لها، عاملاً على إتمامها في الوقت الذي حددته، أو جرى الاتفاق عليه، لا ينقصها الإتقانُ والإحكام، فثق بأن الناس ــ كل الناس ــ سيوفونك حقك من الإكبار والتقدير.

الموضوع الحادي والثلاثون:

الغرور مرض كسائر الأمراض النفسية، بل هو أشدها خطراً، وأسوؤها أثراً، وأكثرها ضرراً.

اكتب موضوعاً حول هذا القول.

بسط الموضوع:

الغرور آفة اجتماعية مهلكة ومرضٍ نفساني خطير، يصيب الأفراد على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم.

والمغرور إنسان مريض، ويختلف هذا المرض كمية وكيفية، فهناك من هو مغرور بحسبه ونسبه، فهو يرى أنه الحسيب النسيب، ابن العائلة، خلقه الله من طينة خاصة، لم يخلق منها ولن يخلق سوى أسلافه الآكرمين وأحفادهم إلى يوم الدين، فهو بذا مفتون، إنه لا يتحدث إلا عن أجداده العظام ومآثرهم وكراماتهم، وأياديهم البيض على هذا الشعب، وأنهم محور هذا الوجود، وخير الناس جميعاً، لا يختلف في ذلك اثنان، ولا تنتطح عنزان.

وقد يكون المرء مغروراً بذاته فهو — في نظر نفسه — قطب الرحى، وسيد الناس، وأعقل من في الوجود، لا يخطئه الصواب قط، ولا ينكر ذلك إلا جاهل منحط، إنه نسيجُ وحدِهِ، لولاه لخبا نور العلم، وانطفأت شعلة العقل، وخمدت جذوة الذكاء والفهم، غيره من الناس يخطىء ويصيب وهو منزه عن الخطأ، لا يعرفه لا في أعماله ولا في أقواله، يرى الرأي فلا يجوز لأحد كائناً من كان أن ينقده، أو أن يرى رأياً سواه، وإلا فالويل لمن تحدثه نفسه بالتجرؤ على النيل من آرائه، أو الشك في صحتها وسلامتها من كل خطل.

وبعضهم من هو مغرور بصوته، فهو يرى أنه البلبل الصداح، حديثه نغم، وألفاظه ترانيم، وصوته السحر، يستطيع أن يستلب به الألباب ويسترق القلوب، ولا يأبه أبداً لتذمر السامعين إذا رفع عقيرته بالغناء، ولا يبالي بضحكات الهازئين الساخرين فهؤلاء جميعاً يجهلون مزاياه، ويعجزون عن تذوق فنه الرفيع.

وهناك أنواع أخرى من الغرور لا حصر لها، وكلها نقائص، لا تحمل إلى صاحبها إلا الهزء والسخرية، فالمغرور في عين نفسه أعظم الناس، وأنبلهم وليس له نظير وشبيه، وهو في أعين الناس مخلوق مريض سخيف، لا وزن له ولا وجود.

وكما يكون الغرور في الفرد يكون أحياناً في الجماعة، فالألمان مثلاً يعتبرون أنفسهم فوق الجميع، وأن كل اختراع علمي أو تقدم حضاري، إنما هو الماني الجنسية، وهذا الغرور الجماعي قاد الألمان إلى إشعال نيران الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهلك فيهما ملايين البشر وخلفتا من المآسي ما ترتعد منه الفرائص، وتنخلع لهوله القلوب.

وفي بعض الأحيان يضطر أحدنا إلى مقابلة رئيس دائرة من دوائر الدولة، فيجد من هذا الرئيس لطفاً ودماثة خلق وإيناساً، وما هو إلا أن ينصرف عنه إلى أحد الموظفين الصغار لمراجعته في الشأن الذي جاء لأجله، حتى يجد هذا المرءوس وكأنه هو الرئيس، فكلمته أمر، ورأيه فصل، وجوابه حكم لا مرد له، وقد تخاطبه متسائلاً مستوضحاً فلا يرد، لأنه يكره الأغبياء الذين لا يفهمون باللفظ، ولا يفطنون بالإشارة، فإذا شكوت أمره إلى رئيسه الشيخ أرغى وأزبد، وادعى بأن رئيسه خَرِف، لا يدرك الأمور، ولا يتفهمها، كما يتفهَّمُها هو، غرور جامح قد تملك عقله الصغير، وأعصابه الكليلة، وتفكيره السقيم المعوج، فليس لك إلا أن تسلم أمرك إلى بارىء الناس، علَّه يعطف على هذا الجانح المغرور، فيدركه قبل أن يؤدي به غروره إلى سوء المنقلب، وشر المصير.

وخير علاج للمغرور هو أن يتولى رفاقه أو ذووه تقويم شذوذه بلين ورفق ويظهرونه على مدى ما يتعرض له من سخرية الساخرين، وهزء الهازئين، من جراء غروره البغيض، فلعل ذلك يعيد إلى نفسه صوابها، ويبصرها بحقيقة ذاتها، فيعود إنساناً سوياً كسائر الناس.

الموضوع الثاني والثلاثون:

قالت إحدى الكاتبات:

إن الأمم التي تريد الحياة يجب أن تدميها المصائب، وتهذبها النائبات، والأمم الخليقة بالمجد في استطاعتها أن تتحمل الآلام والأخطاء، حتى تصل إلى غايتها.

اشرح هذا القول.

بسط الموضوع:

نتحدث عن الشعوب أحياناً فنقول: إن الشعب ـ كذا ـ شعب متخلف خامل، وغيره شعب حي ذكي، ولو دققنا النظر ورجعنا إلى تاريخ الشعوب لوجدنا أن الشعوب التي نطلق عليها نحن اسم الشعوب الحية، هي الشعوب التي كابدت من المصائب وصارعت الأهوال، وتحملت الويلات وتجرعت الآلام، فصمدت لكل هذه النائبات وتغلبت على مجمل هذه الكوارث، فما من مدرسة تفوق مدرسة الألم في النتائج، وما من مارد يقوى على مصارعة الأهوال والويلات كالإنسان.

الإنسان كفرد وجماعة، هو وحده سيد الأرض التي نحيا عليها، يلجم ثورات الطبيعة إن هي حاولت الطغيان عليه، فيقيم السدود ويشق الأنفاق، ويمد الطرق ويبني الجسور، يحارب الأوبئة ويناضل ضد التخلف، وهو الذي يحقق أمنه بيده، فين[illegible] الجيوش التي تصد هجمات المستعمرين، ويحفظ للوطن عزته وكرامته، [illegible]الشرائع والقوانين التي تذود عنه الفوضى وتكفل له حقوقه، ويختار الحكام، فيبرمِم سدة الحكم، ويطلق أيديهم في مقدراته، ويقلب بالحكام العروش، ويسترد منهم السلطة إن هم جاروا وظلموا وعاثوا في مصالحه وحقوقه، وتتطوّر

وهذه الدروس، متنوعة، فهي تارة طبيعةٌ عاتيةٌ، زلازل وسيول، حرائق وبراكين، أعاصير وعواصف، ثلوج وأمطار، جراد وأوبئة، جفاف وقحط، إنها دروس عملية وتطبيقات حية ليس للنظريات فيها مجال، وعلى الأمم أن تتعلم من الدرس القاسي والتجربة المريرة، فتقيم السدود، وتختزن المياه، وتطور المباني، وهي قد تمر خلال ذلك بأخطاء فادحة، ولكن هذه الأخطاء لا تؤثر مطلقاً في خط سيرها، ولا تحرفها أبداً عن غايتها وأهدافها.

وهي، طوراً، جيوش زاحفة، وسيوف لامعة، ومدافع تقذف من أفواهها حمماً تتفجر، فتنثر الخراب والدمار، وتزرع الموت، فإن لم تقف الشعوب في وجهها جيوشاً منظمة، وإرادة فولاذية، وسلاحاً أشد وأفتك ما يكون السلاح، وكرامة تسترخص دونها الأرواح، ديست واستذلت وانقرضت وبادت، إنها دروس قاسية ولكنها لا يمكن أن تنسى أبداً.

وقد تكون هذه الدروس ~~من نوع آخر، إنها ليست منصبة من الخارج، وإنما~~ هي نابعة من المجتمع ذاته، هذه الدروس تتمثل أحياناً فيما يصيب الأمة إذا فسدت أخلاقها، وخمدت ضمائرها وتفسخت أفكارها، وتقاعست عن الواجب، وساد فيها الفجور والرذيلة والظلم والخنوع والكسل والتبلد، فإن لم تبادر الأمة فتقوّم ما فسد من الأخلاق، وتوقظ ما غفا من الضمائر، وترأب صدع المجتمع وتطرح الرذيلة، وتشحذ الهمم من أجل البناء، وتنشط الفكر وتقوي العزائم، وتصمد للظلم حتى ينزاح، وتستأصل الكسل، فإنها ــ إذا لم تبادر إلى ذلك كله ــ سائرة بخطاً حثيثة إلى الفناء والاندثار.

إن الأمم التي تريد الحياة هي وحدها التي تستطيع أن تصبر وتناضل، وتنتفع بالدروس والعظات التي تمر بها، فتكون بذلك أمة حية، خليقة بالبقاء والمجد، والأمم التي تتطلع إلى الحياة المثلى هي الأمم التي تستطيع التحمل والصمود، بصبر وجلد وعزم وثبات، لا تثنيها الأخطاء، ولا يفت في عزائمها الفشل، ولا يقف بينها وبين التقدم إلى غايتها، وبلوغ أهدافها، والحفاظ على وجودها، أي حائل وأية عقبة مهما بلغا من العتوّ والقوة.

الموضوع الثالث والثلاثون:

جلس عمر بن عبد العزيز، أمير المؤمنين ليلة، وعنده قوم، يتداولون في بعض شؤون الخلافة فغَشِيَ سراجُه، فقام إليه فأصلحه، فقيل له: يا أمير المؤمنين ألا نكفيك؟ فقال: ما ضرني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

اكتب موضوعاً حول هذه القصة، واذكر أن التواضع من أسمى صفات الناس.

بسط الموضوع:

عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العظيم أعدل بني مروان، وأتقاهم، وأرحمهم بالرعية، وأنصفهم للعباد، تولى الخلافة والناس قد أفسدهم الغنى الطائل، وفشت فيهم الرذائل، فوجد الأمور على عكس ما كان يتصور، حكام متسلطون ظالمون، وخزينة فارغة قد امتدت إليها أيدي الأمراء من البيت المالك، فلم تترك فيها إلا النذر اليسير، والخليفة الجديد في حيرة من أمره، كيف يستطيع أن يدبر المال، لتسيير شؤون الدولة، وما هي الوسائل الناجعة لكف ظلم حكام المقاطعات، وتسلطهم، وكيف يحدُّ من تدخل الأمراء في شؤون الخلافة، كلها أمور تستدعي سرعة البت في تعقل وإحكام.

ووجدَ الحل، قال الله تعالى:

﴿ وأمرُهُمْ شورى بينهم ﴾.

إذن فليُقْبِلْ إليه ذوو الرأي، وأهل المشورة، ولتعقد المجالس عنده في داره المتواضعة القديمة، لم ينتقل إلى قصر الخلافة، فهو وفيٌّ لهذه الدار التي نشأ فيها، وهو يأبى أن يحمِّل الأمة نفقات لا مبرر لها.

وفي ذات ليلة، وكان المجلس منعقداً للتداول في أمور هامة، فإذا النور يضعف، وتتضاءل شعلة السراج لنقص في الزيت، أو لاحتراق ذبالته، فينهض الخليفة الوقور ويصلحه، وهنا ــ كما يحدث في كل زمان ــ ينبري الحاضرون ليعبروا عن رغبتهم في القيام بهذه المهمة دونه، فيقول كلمته المشهورة، ليعلن لهم بأنه ــ وهو صاحب البيت ــ أولى بإصلاح سراجه وأجدر بخدمة ضيوفه ومستشاريه، فلا فرق هنا وفي كل مكان بين الخليفة وأي فرد من أفراد رعيته.

وما هو النقص الذي يلحق الخليفة إذا أصلح السراج وعاد إلى مجلسه، إنه لم يخسر شيئاً بل ربح احترام القوم، وتقديرهم، وإجلالهم، إنهم يحترمون فيه التواضع والحلم وسعة الصدر وكرم النفس، فهل بعد هذا مطمع، وهل الخليفة من طينة أخرى غير طينة الناس أجمعين، فلم الكبر والاستعلاء؟

وهناك أمر هام آخر، أليس الخليفة إماماً للأمة، أليس قدوة للناس، فلمَ لا يستفيد عمر من هذه الحادثة بالذات، ليلقن خاصته ومستشاريه درساً في التواضع، والبساطة، والنظر إلى الأمور نظرة واقعية سليمة، وتعريفهم أن الحاكم والمحكوم سواء، وأن الناس سواسية كأسنان المشط؟

لقد قال الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم:

﴿ واخفِضْ جناحَكَ لمن اتبعَكَ مِنَ المؤمنين ﴾.

فهل في صور الإنسانية صورة تعبّرْ عن خفضِ الجناح أوضحُ من الصورة التي كانَ عليها عمرُ بن عبد العزيز في هذه الليلة.

— إن العظمة لله وحده. وليس لأي إنسان مهما علا مقامه، وارتفعت منزلته، والخليفة هو فرد من أبناء الأمة التي اختارته ليكون حاكماً بأمرها، لا حاكماً بأمره.

كيف يتعالى الخادم على المخدوم، ويتطاول الوكيل على من وكَّله؛ وكيف يعجب بنفسه ويختال من يدرك أن التواضع شرف، وأن المتعالي مبغوض مكروه؟

قال الله تعالى:

﴿ ولا تمشِ في الأرضِ مَرَحاً إنكَ لن تخرقَ الأرضَ ولن تبلغَ الجبالَ طولاً ﴾.

رحمك الله يا عمر فلقد كنت في حياتك مشعلاً هادياً ونبراساً مرشداً، فقوَّمت المعوجَّ، وأرشدت إلى قويم النهج، فلم تظلم، ولم تحبَّ الظالمين، وكنت كما أنت وكما يجب أن تكون خليفةً عاملاً وقائداً رحيماً عادلاً.

الموضوع الرابع والثلاثون:

قال الشاعر:

في الجبنِ عارٌ وفي الإقدامِ مَكْرُمَةٌ
والمرءُ بالجبنِ لا ينجو مِنَ القدرِ

اكتب موضوعاً حول هذا البيت، وبيِّنْ أن الشجاع إنسان كريم النفس، وأن العارَ كلَّ العارِ في الجبن.

بسط الموضوع:

الشجاعة من أسمى الفضائل، بها تصان الكرامةُ، وتحفظ الحقوق، ويذاد عن المقدسات والحرمات، والشجاع امرؤ كريم النفس، يأبى الضيم، ويأنف من العار، ويبذل حياته في سبيل الدفاع عن وطنه وشرفه.

وكما يأبى الشجاع الضيم، ولا يتحمل الظلم، فإنه كذلك يأنف من أن يظلم أحداً، أو يعتدي على الآخرين:

قال عنترة مخاطباً ابنة عمه:

أثني عليَّ بما علمتِ فإنني ... سمحٌ مخالقتي إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمي باسلٌ ... مُرٌّ مذاقتُهُ كطعْمِ العلقم

«مخالقتي: معاشرتي»

والشجاع كامل المروءة، يأبى على نفسه أن تنعم بالسلامة والدعة إذا كان في

هذا العيش الناعم ما يلحق بها العار والمذلة، اذ يعتقد أن الرجل الشهم لم يخلق إلا لخوض المعارك دفاعاً عن نفسه، أو عن المظلومين من بني البشر، فهو يمتاز بالشهامة، وعلوّ النفس، والدفاع عن الآخرين، حتى لو لم تكن بينه وبينهم رابطة من نسب أو قرابة.

يَـفِرُّ الجبـانُ عَـنْ أبيـهِ وأمّـهِ ويحمي شجاعُ القومِ مَنْ لا يناسبه

على أن الشجاعة ليست في القتال، وخوض المعارك، ومجالدة الأعداء فحسب، بل هي أيضاً في كلمة جريئة صادقة يقولها الإنسان في موضعها، ورأي قويم نافع يجاهر به، ورد على مفتر كذاب، كل ذلك وأمثاله لا يقل أهمية عن اقتحام الوغى، والضرب في الثغور، والطعن في النحور.

والشجاعة فضيلة محمودة، وهي على أنواعها صفة ممتازة، فإذا جمع المرء الحلم والتعقل، إلى الشجاعة، كان ذلك أعظم وأسمى.

يقول المتنبي:

وكـلُّ شـجـاعـةٍ في المـرءِ تُـغْني ولا مـثـلَ الـشـجـاعـةِ في الحليمِ

أما الجبن فهو رذيلة من شر الرذائل، إنه يبعث في النفس الوهن والخور والأوهام، فتقعد عن السمو والانطلاق، وبعض الجبناء يحسبون ما هم فيه من الجبن والتقاعس تعقلاً ودهاء، لأنهم بذلك يبقون على حياتهم، ويحفظون سلامتهم التي يحرصون على دوامها. يقول المتنبي:

يـرى الجـبـنـاءُ أنَّ الجـبـنَ عقلٌ وتـلـك خـديـعـةُ الـطـبـعِ اللئيمِ

فحب السلامة يورث الجبن، والجبن يقعد بالمرء عن المعالي، ويمنعه من تسنم ذرا المجد، ويغريه بالتقاعس والكسل، يعيش في الأوهام، ويحيا حياة شقية، لأن وهمه المضطرب يخلق له أخطاراً لا وجود لها، فيرتعد فزعاً من لا شيء.

والجبن في جميع الأحوال سيِّىء غاية السوء، ونتائجه أسوأ النتائج، والتربية

الصحيحة وحدها هي التي تستطيع أن تصلح الجبان، وتبث فيه روح الشجاعة والعزيمة والثبات.

إن الجبن لعنة رهيبة، تصيب الفرد فتسهل عليه احتمال المذلة، وتهون عليه حملَ نير العبودية، فيوطِّن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والاحتمال والتجلد.

مَن يَهُنْ يَسهُلِ الهوانُ عليهِ　　ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

وصفوة القول: أن الشجاعة فضيلة، والشجاع إنسان كريم محترم محبوب وليس في العالم كلِّهِ فردٌ يحترم الجبانَ أو يعطف عليه، والأمة التي تتألف من أفراد شجعان لا يمكن أن تغلب، وهي إن هُزمت مرة فلن تهزم بعد ذلك أبداً، لأن شجاعتها تأبى عليها الخنوعَ والعبودية، وكل فرد فيها إنسان أبي شجاع يرحب بالموت الزؤام ولا يرضى بالمذلة والهوان.

غيرَ أنَّ الفتى يلاقي المنايا　　كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا

الموضوع الخامس والثلاثون:

قال الشاعر:

وعاجِزُ الرأي مِضْياعٌ لِفُرصَتِه   حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتبَ القَدَرا

اكتب موضوعاً حول هذا البيت، مُبَيِّناً أنَّ إضاعةَ الفرصة غُصّةٌ، وأنَّ الفرصةَ متى فاتتْ فلن تعودَ.

بسط الموضوع:

إن حياة الناس على الدوام بين مدٍّ وجزر، فمن انتهز فرصة المد توصل إلى هدفه المرجو، ونَعِمَ بما نال من مناعِمِ الحياة، ومن أضاعَها عاشَ حياة مترعة بالشقاء والآلام، فعلينا أن نحسن الاستفادة من الفرص السانحة، فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إضاعة الفُرصة غُصةٌ».

وقد لا تسنح الفرص إلا نادراً، فعلينا أن نغتنم سنوحها، وألا نتردد أو نحجم أمام شبح العقبات التي تذودنا عن الانتفاع بفرصنا، فإن الندم على فواتها دون الاستفادة منها لا يكاد يطاق.

إن حياة المرء ملأى بالفرص الطيبة، فإن كل درس في المدرسة، أو عمل مهما كان صغيراً، أو تحرير مقالة في أية صحيفة فرصة ذهبية، قد لا تقدر بثمن.

ولا يشكو من عدم سنوح الفرص إلا المتواكل الخامل، فما على المرء إلا أن يكون مستعداً، فإن الفرصة ستطرق بابه، فإذا وجدته غافياً بليداً انصرفت عنه إلى سواه، ممن يحسن اقتناصها وتطويعها، وفق مشيئته ومصلحته.

أعرف كثيرين ممن كانوا يعملون عملاً بسيطاً متواضعاً كان يدر عليهم ربحاً

معتدلاً، فما أغراهم هذا الربح المعتدل بالراحة والكسل، فلما سنحت لهم الفرصة لعمل أكبر، وثروة أنمى وأغزر لم يضيعوا الوقت في التردد السخيف، بل بادروا إلى مباشرة عمل أكبر، ففازوا، ونجحوا، بينما بقي رفاق لهم جامدين في مكانهم المتطامن الوادع الفقير.

وها هي ذي السنة الدراسية قد بدأت، وفي كل درس فرصة، وفي كل فرصة غُنم، فعلى الطالب ألا يقف جامداً، بل عليه أن يكون متيقظاً، لأن العيون المتيقظة لا يفوتها مرأى الفرص الذهبية والأذهان المتفتحة لا تعدم الاهتداء إليها.

إن كل ملاّح في أوروبا وغيرها كان يتساءل: ما عساه أن يكون وراء المحيط الأطلسي؟ غير أن رجلاً واحداً، هو كريستوف كولومبس خاض ذلك المحيط المجهول، واكتشف العالم الجديد.

وكثيرون من العلماء مدينون بأكثر ما اخترعوه، واكتشفوه للفرص الذهبية السانحة، فقد كان أرخميدس في الحمام، حين وجد حلا لقاعدة الوزن النوعي، لأنه حين طفا على وجه الماء حل المشكلة التي كانت قد استعصت عليه، إذ وجد أساسها في طفاوة جسمه.

وابن سينا، وابن رشد، وأديسون، وكثيرون غيرهم أحسنوا الاستفادة من الفرص التي سنحت لهم، خلال بحوثهم العلمية، وتم على أيديهم اختراع واكتشاف لكثيرمن المخترعات التي انتفعت بها الإنسانية أعظم الانتفاع.

ولا يغيب عن بالنا أن أعظم الفرص لا يعود لها أي نفع إذا لم يقدر المرء على أن ينتهزها فالرجل المترددُ ذو الإرادة الضعيفة، يفلت الفرصة، أو يأتي متأخراً عن موعدها.

إن كل دقيقة تمر بنا تهيء لنا فرصاً جديدة، فما على المرء إلا أن يكون حاذقاً متيقظاً جريئاً، ليقتنصها عند سنوحها، فالفرصة متى فاتت فلا يوجد في الأرض قوة تستطيع إعادتها، ولا يجد مضيعها متنفساً له إلا أن يقول: آه لو لم أضع فرصتي، آه لو فعلت كذا، ولكن هذه «الآه» لا تعيد له الفرصة الضائعة.

قال احد الادباء: إن الفرصة لا تسنح مرتين فاغتنم الفرصة عندما تسنح لك وإياك أن تحجم أو تتردد.

وقال الشاعر العربي:

إذا هَبَّتْ رياحُك فاغْتَنِمْها فإنَّ الخافقاتِ لها سُكون
وإن دَرَّتْ نِياقُكَ فاحْتَلِبْها فما تَدري الفصيلَ لِمَنَ يكونُ

الموضوع السادس والثلاثون:

قال المعري:

فلْتفْعَلِ النفسُ الجميلَ لأنهُ   خيرٌ وأحسنُ لا لأجلِ ثوابِها

اكتب حول هذا الموضوع؛ وبين أن الإنسان المثالي هو الذي يعمل المعروف، لأن عمل المعروف أمر مستحسن؛ وليس عمله المعروف لغرض الفائدة والثواب والمصلحة الذاتية التي تعود عليه من هذا العمل.

بسط الموضوع:

على المرء قبل كل شيء أن يفعل كل ما هو حسن وجميل، وأن يبذل كل عون أو مال — اذا كان يقدر على ذلك — لوجه الله، لا للثناء والمثوبة، وتأييداً لهذا المبدأ قال أحد الشعراء:

ليسَ الكريمُ الذي يُعطي عطيتَه   على الثناءِ وإنْ أَغْلى به الثَمَنا

بل الكريمُ الذي يُعْطي عطيتَه   لغيرشيءٍ سوى استحسانِهِ الحَسَنا

وأي شيء في الوجود أحسن من فعل الجميل، وإسداء المعروف، وعمل الخير، دون أن ينتظر المرء من وراء عمله مثوبة أو أجراً أو ثناء، لأن المحسن المجمل يجد من رضاء الضمير، وراحة الوجدان، واطمئنان النفس، ما يتضاءل إزاءه كل أجر أو مثوبة أو ثناء.

وقد تمر البشرية بفترة من الزمن، يتناكر فيها الناس، ويختلفون، ويتجافون،

ويتباعدون، فلا يعطف القوي على الضعيف، وتسود القطيعة، ويعم البلاء، وينقطع الرجاء، ويكثر الأذى، ويتفاقم الشر، ويرضى الناس بأقل القليل، ويعتبرون الكف عن الأذى هو أعظم الجميل فيقول شاعرهم:

إنّا لَفي زمنٍ تركُ القبيحِ به   مِنْ أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ

فهم لا يريدون من الناس إلا تركَ القبيح، فإن هم تركوه كان ذلك منهم أعظم الجميل، وأرفع الإحسان.

وكأن المعري بَرِمَ بما كان يراه من إقبال الأغنياء على البذل الكثير، ليحصلوا على أعظم قدر من الثناء، مما يرفع من قدرهم، ويكسبهم الظفر على منافسيهم، وهذا عند المعري غرض تافه، وتجارة خاسرة، ونهج في الحياة والأخلاق لا يدل على أصالة في الكرم، وصفاء في الضمير، ولهذا أعْلَنَ رأيه صريحاً في قوله:

فَلْتفعلِ النفسُ الجميلَ لأنه   خيرٌ وأحسنُ لا لأجلِ ثوابها

فالإنسان الشهم الكريم يتمتع بقدر واف من المروءة هو عند المعري ذلك الذي يفعل الجميل للجميل، ويصنع الخير لوجه الخير، ويعطف على البؤساء، ويرحم الضعفاء، بدافع العطف والرحمة؛ أما الذي يقيم الولائم للفقراء وذوي الحاجة والجائعين، ثم لا يخجل أن يأتي بالمصورين ليلتقطوا صوراً تذكارية للمحسن الكريم، وهو يرعى البائس؛ ويأسو اليتيم، ويكفل الأرملة والعاجز، لينشر هذا كله في أمهات الصحف، ويقرأه الناس في اليوم التالي، فيمتدحون المحسن العظيم، ويثنون على أريحيته، ويكبرون نفسه الخيرة المعطاء، فإن كل هذا وما شاكله تجارة ككل تجارة أخرى، بل هي تمتاز على سواها بقدر عظيم من النفاق، يغلفها ويخفيها، ولكنها لا تخفى على الله والناس.

ألقى تاجر كبير محاضرة قيمة في قاعة دار الثقافة في حلب ــ وقد توفي منذ أشهر ــ وبعد أيام أتاه الموظف المالي للدار، وطلب منه التوقيع على أربعين ليرة جائزة الدولة للمحاضرة، فأبى أن يأخذها وقال: ردوها إلى خزينة الأمة! إني متنازل عنها، فقيل له: خذها ووزعها على الفقراء، قال: لا، إنني عندما أريد الإحسان

إلى الفقراء، أدفع ما أريد إنفاقه من مالي، لا من مال الأمة، وفي السر لا في العلن. ولقد أكبرت هذا التاجر الطيب، لا لهذا المبلغ الضئيل الذي تعفف عن أخذه ـ معتقداً أنه قام بجهد ثقافي بسيط تجاه أمته التي أنجبته فهو لا يستحق عليه أجراً ـ وإنما اكبرته لروحه الخيرة الكريمة ونفسه الرفيعة السامية، ولم أسمع هذه القصة من الناس، بل من موظف الدار المختص بالشؤون المالية بالذات، فلم يكن غرض التاجر من رفض المبلغ ذيوع الصيت، أو تعطير السمعة، لأن الرجل رحمه الله كان عظيماً بنفسه، قوياً بايمانه، كريماً بشمائله.

قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿ويُطْعِمون الطعامَ على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾.

الموضوع السابع والثلاثون:

قال أحد المفكرين:

إنك تستطيع أن تقوم بأشق الأعمال وأصعبها ما لم تفقد حماستك، فإذا فقدتها عجزت عن أي شيء.

ناقش هذا القول وبين أننا يجب علينا ــ في كل الأحوال ــ ألا نفقد حماستنا وإلا فإننا سنفقد بفقدها كل قدرة على الإنتاج والإبداع.

بسط الموضوع:

إن الرجل الذي تتأجج في صدره نار الحماسة يَقْوَى تصوُّرُهُ، وتشتدُّ إرادته، وتعظم همته، إلى درجة أنه يرى في عمله الذي هو موضوع اهتمامه وحماسته محاسن ومميزات لا يراها الآخرون، ولهذا فإنه لا يبالي بما يقاسيه من العناء والمتاعب والمشاق والأخطار، وقد يبذل حياته، ويقدمها هبة لغرض حماية ما هو مهتم به ومتحمس له.

كان الفنان فتحي محمد في حالة شديدة من الفقر، يعيش ويعمل في غرفة صغيرة عارية، وذات يوم صنع نموذجاً من الطين، وحدث صقيع خلال الليل، فخشي الفنان أن يتجمد الماء الكائن بين شقوق التمثال، فيفسد تقاطيعه فلفه باللحاف والملاءة اللذين كان يدفع بهما عن نفسه ضراوة البرد، وفي الصباح قرعت عليه جارته الباب، ودخلت، فوجدته أصفر اللون، فاقد الحس، وأسعف ونجا، ولما يكد ينجو.

فعملنا يجب أن يستغرق كل اهتمامنا، والعامل المتحمس يستطيع أن يبعث الثقة والاطمئنان في نفوس الناس، ويجلب عقولهم، ويحملهم على احترامه وتقديره.

لقد خرج العرب من الجزيرة العربية بعدد قليل، وعُدد أقل، وأقوات أقل من القليل، ومع ذلك فقد حرروا سورية من الرومان، والعراق من الفرس، وامتدت فتوحاتهم حتى جبال (البرنيه) بين فرنسا وإسبانيا غرباً، ومدينة (كاشغر) في الصين شرقاً، ذلك لأن الحماسة لدعوتهم الإنسانية الخيرة لم تنقصهم فمبدأ التوحيد، والمساواة بين الناس، وغيرهما من المبادىء الرفيعة بثت فيهم من الحماسة ما جعلهم يقهرون أعتى الأمم وأقواها.

والحماسة هي التي مكنت وتمكن المتفوقين من أحراز الانتصارات الرائعة، فإن جنود خالد بن الوليد كانوا يمضون وراءه في الحروب بحماسة لا تعرف للهزيمة أو النكسة معنى.

والفرق عظيم بين من يعمل من كل قلبه، وبين أولئك الذين يعملون وهم قرفون، تبدو على سيمائهم السآمة، ويلفهم الضجر، فلا يكادون يشرعون في العمل، حتى تجد أمارات الكلال قد دبت فيهم، فتثاؤبهم لا ينقطع، وتأففهم متواصل، والفرق بين أولئك وهؤلاء كالفرق بين الانتصار الباهر والهزيمة المنكرة.

والحماسة تكسب جسمنا قوة ونشاطاً، وتزود إرادتنا بالقوة والقدرة على الإبداع، أما عدم المبالاة فصفة أقل ما يقال فيها أنها لا تقود إلى نجاح، بل هي لا تحرك في النفس أي ميل إلى العمل، أنها تثبط الهمم، وتوهي العزائم، وتغرس في النفس الخمول والاتكالية والكسل.

إن العقل المتحمس هو الذي يستطيع أن يبدع، وكلما اشتدت الحماسة في المرء رأيناه يندفع في العمل بقوة ونشاط، لأن الحماسة تجعل المرء متيقظاً عنيداً في تصميمه، قوياً في إرادته، وإنك لتجد كل عصب من أعصابه متحمساً لإنجاز العمل الذي أوكل إليه، بإتقان وإجادة تفوقان ما لدى غيره من الناس.

والحماسة في الشباب غيرُها في الكهول، فهي في الشباب شديدة الغليان، لأن الشباب لا يعترف بالهزيمة، ولا يقر بشيء اسمه الفشل، ويعتقد أنه قادر على القيام بأعظم الأعمال وأنبلها وأولاها بالخلود، فحماسة الشباب تذلل الصعاب، وتبدد المخاوف، وتثير في النفوس مشاعر التفوق والانتصار فتقدُّمُ العالم هو دائماً يعتمد على حماسة الشباب.

أما الحماسة في الكهول فليست في جميع الأحوال أقلَّ إنتاجاً مما هي في الشباب، لأنْ كثيرين من النابغين أخرجوا أروع إنتاجهم في كهواتهم؛ فأفلاطون أخرج خير كتبه وهو في الثمانين من عمره، ودرس أحد رؤساء الوزارات اللغة الفرنسية وهو في الستين من عمره، أما زهير بن أبي سلمى فقد نظم معلقته الخالدة وهو في الثمانين من عمره وفيها يقول:

سَئِمْتُ تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ
ثمانينَ حولاً لا أَبالَكَ يَسْأَمِ

وصفوة القول: إذا استطعت أن تحتفظ بالحماسة والاهتمام فيما تحاول أن تقوم به من أعمال، فإن أعظم النجاح لن يكون بعيداً عنك أبداً.

الموضوع الثامن والثلاثون:

قال أحد الحكماء:

إنما يفلحُ الرجلُ الذي يحترفُ الحِرفةَ التي خُلِقَ لها.

بسط الموضوع:

خير ما يفعله المرء هو أن يحترف الحرفة التي أعدته الطبيعة لها، وألا ينحرف عن خط موهبته. فإن الطبيعة تحسن الاختيار دائماً، فلو جعلت طبيعة عملك وفق ما أرادت الطبيعة، لكان ذلك أدعى إلى التوفيق والنجاح.

إن موهبة المرء هي التي يجب أن تقرر نوع العمل الذي عليه أن يعمله، أو الحرفة التي عليه أن يحترفها، فإذا استجاب الإنسان لموهبته، لا يكون قد حصل على العمل الملائم له فحسب، بل يكون قد أفسح المجال لموهبته أن تؤتي ثمرتها.

وقد يفضل المرء منا أن يشبع ميله من المهنة التي يختارها، ولكن قد يجد من الأهل والأصدقاء من يغريه بحرفة أخرى، ويقبح إلى حد بعيد المهن التي توافق ميله، فيضطر حينئذ إلى الانحراف عن خط ميله وموهبته، استجابة لرغبة الأهل والأصحاب، فيفقد بذلك الفرصة الثمينة التي لو استغلها لمكنته أن يكون ذا أثر عظيم في مجتمعه.

ويبدو أن كثيرين من الناس، في جميع أنحاء المعمورة، قد وضعوا في المكان الذي لا يلائم ميولهم ومواهبهم، وهذا الأمر الغريب نكاد نلمسه في كل شيء، فهناك من يعمل في التعليم وهو يكره هذه المهنة، ولا يصلح لها، كما أن آخرين يعملون في المحاماة وهم لو احترفوا التعليم لأصابوا نجاحاً منقطع النظير، كل يمكننا

أن نلمس هذا في الصناع، فهناك مثلاً من يعمل حذاءً وهو لو احترف النجارة لكان ذلك خيراً له، لأنه يميل إليها بطبعه.

والناس جميعاً يطلبون من الآخرين إجادة عملهم، إجادة تجعلهم مطمئنين إلى أن دراهمهم لم تضع سدى، وأنهم يطلبون من صاحب الحرفة أن يكون قديراً في عمله، قديراً في مهنته، كما أنهم يكرهون الحرفيين الذين لا يتقنون عملهم، أو لا يحبون العمل الذي يزاولونه.

ولا شك في أن لكل شخص استعداداً خاصاً لعمل ما، فمن الطبيعي أن نستجيب لهذا الاستعداد دون سواه، كما يجب علينا أن نسعى في الكشف عن ميولنا ومواهبنا، ولا ننتظرها حتى تعلن عن نفسها، وإذا تتبعنا حالات الفشل التي مني بها أفراد كثيرون، وجدنا في طليعة أسباب هذا الفشل هو محاولة الفاشلين ممارسة أعمال لم يخلقوا لها، ولم تعدهم الطبيعة لممارستها، وحين تضطرنا الظروف إلى مزاولة مهنة لا نصلح لها فعلينا أن نتخلى عنها في أول فرصة تسنح لنا.

الموضوع التاسع والثلاثون:

اكتب في الموضوع التالي:

مَنْ نقضَ عهدَهُ فقد أسْقَطَ كرامَتَهُ.

بسط الموضوع:

يمتاز الإنسان المتحضر بصفات تجعله صالحاً ليُكَوِّنَ مع سواه من الناس مجتمعاً زاهراً، وليحيا المرء في هذا المجتمع حياة كريمة فضلى.

وفي مقدمة هذه الصفات الوفاء بالعهد، فهو مقياس الرجولة، وعنوان السمو والكرامة، فمن تمسك بالوفاء علا شأنه، وسما مقامه، واحترمه الصغير والكبير، ومتى عرف الإنسان بالوفاء أقبل الناس على التعامل معه، لثقتهم به، واطمئنانهم إلى كلمته.

قال الله تعالى:

﴿ وأوفوا بالعهد إن العَهْدَ كان مسؤولاً ﴾.

فالوفاء بالعهد ضروري، إذ هو ينظم العلاقات التجارية والاجتماعية، فالتاجر الذي لا يفي بعهده يعرض نفسه للاحتقار والهوان، وكرامته للسقوط، وما دامت العلاقات بين الناس على اختلاف أنواعها وأشكالها تعتمد أول ما تعتمد على الوفاء بالعهد، وإنجاز الوعد، وتنفيذ الالتزامات، لهذا فإن هذه العلاقات لتسوء أشد ما يكون السوء عندما تنكث العهودُ، وتُنْقَضُ الوعود، ويصاب المجتمع بأضرار بالغة، أقلها سوء الائتمان، وتعطل الأعمال، وانتشار الشك والريبة في النفوس.

قال الله تعالى:

﴿ ومَنْ نَكَثَ فإنما يَنْكُثُ على نفسِهِ ﴾.

فليس نقض العهد بالأمر السهل اليسير، وهو يصيب الناكث بأشد الأضرار، ويحيق به من الخسارة ما لا يمكن تقديره، إذ إن المرء متى عرف بنكث العهد وعدم الوفاء بالوعد، انفض عنه الناس وتركوه يعاني آلام الحِرمان، ومتاعب الفاقة والهوان.

قال النبي ﷺ:

«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

فقد جرد النبي ﷺ ناقض العهد من دينه، وألحقه بالذين لا يعبدون الله، أولئك الذين لا ذمة لهم ولا عهد، وفي هذا تبصير لأولي الألباب، وحث على التقيد بالوعود، فكلمة الرجل كعهده، والعهد دين، فعلى الإنسان الكريم ألا يقول إلا الصدق، والا يَعِدَ إلا إذا كان واثقاً من قدرته على الوفاء.

قال الله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾.

وكما يكون نقض العهد في الأفراد مسقطاً لكرامتهم، فإنه في الحكومات كذلك، فإن الدولة إذا حافظت على القيام بالتزاماتها تجاه الدول الأخرى اكتسبت بذلك احترام الشعوب وتقديرها، وارتفعت مكانتها، وسمت منزلتها، أما إذا نكثت وغدرت ونقضت عهودها ولم تحقق وعودها، فإنها تخسر كرامتها وتصاب بالحقارة والازدراء، وتسقط مكانتها بين الدول والشعوب، فبنقضها مواثيقها استحقت لعنة الناس جميعاً.

وخير مثل نسوقه دليلاً يؤيد ما ذكرناه هو أن الدول الاستعمارية قطعت على

نفسها للشعوب المستعمرة آلاف الوعود والعهود، ولم تف بعهد واحد، ولم تنفذ وعداً واحداً، فعاد عليها غدرها بالهوان، وسقوط الكرامة، وثارت الشعوب عليها، وانتزعت منها حريتها واستقلالها عنوة وقهراً.

يجب أن يكون الوفاء رائداً لنا في جميع تصرفاتنا، إذ به تزداد الثقة، ويسود الاطمئنان، وتسير الأعمال سيراً سليماً.

والوفي بالعهد محبوب يتمتع باحترام الناس ومودتهم، قال بعض الحكماء:

«مَنْ نَكَثَ عَهدَهُ، وَمَنَعَ رِفْدَهُ؛ وأَظْهَرَ حِقْدَهُ؛ فلا خيرَ عنده».

ونحن ــ العربَ ــ مشهورون بحفظنا للعهود، ووفائنا بالوعود، لأن العربي يعتبر كلمته عهداً، ووعده حُكماً، لا مفر من تنفيذه مهما ساءت الظروف والأحوال، وخير مثال على ذلك قصة العربي الذي قصد النعمان بن المنذر في يوم بؤسه، فأمر بقتله، فقال العربي: يا أيها الملك ان لدي مالاً لبعض الناس، لا يعرف أحد مكانه فأذن لي بالذهاب لأرد المال إلى أصحابه، وأعود اليك، في الغد، لتنفيذ أمرك فيَّ وإني أعدك ألا أنقض عهدي، فأذن له، وفي اليوم الثاني عاد الرجل فعفا عنه، وأبطل عادته الدموية هذه.

قال الشاعر العربي:

ثَبتَتْ على حفظِ العهودِ قلوبُنا — إنَّ الوفاء سجيةُ الأحرارِ

الموضوع الأربعون:

على المرء أن يختص بنوع من العمل واحد، وأن ينهض به بكل قواه، لا أن يتحول إلى أعمال عديدة بدون اعتناء، فإن من يغرق مجهوداته في محاولات ومشاريع مختلفة ليس له أن يأمل النجاح.

ناقش هذا القول وأيّدْهُ.

بسط الموضوع:

الاختصاص في الأعمال مبدأ عملي عظيم، وقد أصبح اليوم أكثر رسوخاً في النفوس، وأعظم ما يتبدّى ذلك في عالم الطب، فالطبيب المختص في معالجة مرض من الأمراض نراه ناجحاً في عمله، ذلك لأنه كرّس كل قواه وجمعها في درس ومكافحة هذا المرض بالذات دون الانشغال بغيره من الأمراض، فاكتسب بذلك المعرفة الواسعة عنه، وعن مضاعفاته، وطرق معالجته، وغير ذلك من الأمور التي تحيط به.

وسيأتي يوم قريب أو بعيد، لا يبقى فيه طبيب واحد غير مختص، لأن الحكمة كل الحكمة تقضي بأن نوجه قوانا كلها إلى عمل معين، دون أن نبددها في أعمال مختلفة هنا وهناك، وإن لم نفعل ذلك فلن نجيد أي عمل، وسيكون أملنا في النجاح ضئيلاً.

ونجد في الحياة العملية أمثلة كثيرة تؤيد هذه الفكرة، فقد يختص إنسان ما بصنع نوع معين من الحلوى، لا يتعداه إلى سواه بأي حال من الأحوال، فيصبح فيما بعد أعظم بائع لهذا الصنف بالذات، يقصده الزبائن من كل ناحية، ليحصلوا

على ما يريدون من حلواه، ولو انتظروا ساعات، وتحملوا كل مشقة، ولو حاول هذا البائع أن يصنع أشياء أخرى من أنواع الحلوى لما لقي هذا الإقبال، ولما عاد ذلك عليه إلا بالربح اليسير، وقد يعلن إفلاسه بعد قليل من الزمن.

فالقاعدة الذهبية في وقتنا هذا هي أن يعمل المرء عملاً واحداً، يختص به دون سواه، وكل إنسان يدرك إدراكاً تاماً ما يحسنه من الأعمال، وما لا يحسنه منها، ولا عذر لمن يقول: يصعب علي أن أعرف الأمر الذي أنا أكثر استعداداً له من سواه، إذ ما من رجل يتمتع بأي مقدار من الذكاء والفطنة إلا ويعلم ماذا يصلح له من الأعمال، وما لا يصلح له.

وما من شك في أن أضعف مخلوق يستطيع أن يعمل عملاً، إذا جمع قواه حول موضوع واحد، في حين أن أقوى مخلوق إذا وزع قواه على مواضيع متعددة فلن يفلح فيها جميعاً، وخير مثال نسوقه على ذلك هو نقطة الماء التي تستطيع أن تذيب الصخر الأصم بتكرار سقوطها عليه، ولو سقطت هذه القطرات على أمكنة مختلفة من هذا الصخر لما تركت عليها أي أثر.

إن توزيع القوى آفة النجاح، فلو اختص مزارع بزراعة البطاطا مثلاً، وحصر كل قواه في الطرق الصالحة لإنباتها، واطلع اطلاعاً واسعاً على أمراضها، وطرق وقايتها من هذه الأمراض، لأحسن صنعاً، ولغدا في وقت قريب علماً من أعلام الإنتاج الزراعي، ولاكتسب احترام مواطنيه وإجلالهم، لأن الناس ــ كل الناس ــ يثقون بمثل هذا المزارع من العاملين الناجحين، ويحترمونه.

وقد يكون المرء على جانب عظيم من الذكاء والمهارة، غير أنه لا يتجه في حياته إلى عمل معين، فبينما تراه ذات يوم نقاشاً، إذا بك تجده بعد أيام يعمل نساجاً، وفي يوم آخر تراه بائع مرطبات، إن مثل هذا الإنسان لن ينجح أبداً لأنه يعيش في حالة من تفرق القوى تستنزف همته ونشاطه، وتقضي على كل أمل في نجاحه، ولا يلبث أن يزامله الفشل، ويلازمه الحرمان.

فعلى المرء أن يرسم لنفسه خطة عمله، ثم يمضي، دون أن يوزع قواه حول مواضيع عديدة، وأعمال أخرى مختلفة، وإلا فإنه لا يلبث أن يفقد عزيمته، وقد

يفقد معها حماسته، فلا يعود يصلح لشيء أبداً.

إن أشعة الشمس لا تستطيع أن تلهب قطعة من الورق ولو ظلت تسقط عليها يوماً كاملاً، ولكن إذا جمعنا هذه الأشعة في عدسة ووجهناها نحو هذه القطعة لرأيناها بعد لحظات قليلة، قد التهبت، وتصاعد منها الدخان.

وصفوة القول: إن المرء ليستطيع أن يظفر بالنجاح، فيما يعمل، شريطة أن يحصر قواه في هذا العمل الذي يريد النجاح فيه وأن ينصرف إليه بكل حواسه ومشاعره وأعصابه، فإنه بذلك يحرز قصب السبق على جميع منافسيه، ويترك لنفسه أثراً عظيماً يبقى خالداً على مدى الأ يام والأعوام.

الموضوع الحادي والأربعون:

قال الشاعر:

مَنْ يزرعِ الشرَّ يحصدْ في عواقِبِهِ ندامةً ولِحَصْدِ الزرعِ إبّانُ

اكتب موضوعاً حول هذا البيت وبين أن الجزاء يكون دائماً من جنس العمل، وكما تدين تدان، وأنك لا تجني من الشوك العنب.

بسط الموضوع:

لكل إنسان في هذه الحياة دور يمثله، وعمل يقوم به كسائر أفراد هذا الجنس البشري، فإذا كان عمل المرء خيِّراً ونافعاً انتفع به الناسُ وعمَّ الخير، وازدهر البلد، وشاعت البركة، وساد الوئام والسلام.

أما إذا كان المرء شريراً فاسداً فإنه لا يأتي بخير أبداً، وحينئذ ينعكس شره على الناس، ولا ينجو هو من مغبة شروره، بل يناله منها الشيء الكثير.

ولقد قال أحد الحكماء:

«الدنيا مزرعةٌ، ففيها الخير النافعُ وفيها السم الناقعُ، ولا حصادَ فيها بلا زرع».

نعم لا حصاد بلا زرع، فإذا جنى المرء في حيانه الأذى والآلام، وتوالت عليه الكوارث، وحاق به السوء فلا غرو أنه يحصد ما زرع، ويجني ما غرس، ويجمع ما بذر.

قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ فَمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يَرَهُ، وَمنْ يعملْ مثقالَ ذرةٍ شراً يَرَه ﴾.

وهذا القانون السماوي نافذ لا يتطرق إليه الخلل، فلنفعل الخير إذا كنا نريد الخير لأنفسنا، ولا يصدنَّنا عن فعل الخير قول بعض الناس: إن فاعل الخير كثيراً ما يقابل بنكران الجميل، فلقد قال الشاعر العربي:

ازرعْ جميلاً ولو في غيرِ موضعهِ فلا يضيعُ جميلٌ أينما زرعا

إن كل عمل نقوم به تعود نتائجه علينا، وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نحكم على الأمم، بنتيجة كالنتيجة التي نحكم بها على الأفراد، فالأمة التي يسود فيها عمل الشر، ويستشري فيها الغدر والكيد والأذى لن تسود أبداً، وسوف تلاقي من المشاكل والمصاعب ما تعجز عن تحمله، وتغدو غير صالحة للحياة، فلا ينقذها مما هي فيه إلا تغير ما في نفوس الأفراد، من إرادة البشر، ودناءة في الخلق، ولؤم في الطباع، وحينئذ يتبدل حالها ويرتفع شأنها.

قال الله تعالى:

﴿ إن الله لا يغيرُ ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.

وما دام الإنسان ــ أي إنسان ــ لا يحصد إلا ما زرع فن الحماقة أن يزرع الإنسان الشر، والأحمق الغبي وحده هو الذي لا يمسك عن الشر يده أو لسانه أو فكره، يقول الله تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صالحاً فلنفسِهِ ومَنْ أساء فعليها، ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى ﴾.

وقد يحدث أن يفعل الإنسانُ الخير، ولا يجني من وراء عمله إلا الشر، أو قد يكون العكس لكن هذا ليس قاعدة عامة، بل هو نادر، والنادر لا حكم له.

وقد يردد بعض الناس على مسامعنا القول المأثور «اتق شرّ من أحسنت إليه» داعياً بذلك إلى الحذر من الإحسان، والتزهيد فيه، ولكن هذا القول المأثور يعني: اتق شر من أحسنت اليه إذا كان لئيماً، فالكريم غير اللئيم، قال الشاعر المتنبي:

إذا أنـتَ أكـرمـتَ الـكـريـمَ مَـلَكْـتَهُ
وإن أنـتَ أكـرمـتَ اللـئـيـمَ تمـردا

وعلى كل الأحوال فليس من المنطق في شيء أن يعمد المرء إلى عمل الشر، ظاناً أنه لن ينال العقاب الذي يستحقه، فهذه القاعدة التي ذكرناها خلال البحث حتمية، حتى إنها في كثير من الأحوال لا تتحمل التأجيل.

حدثني زميل لي فقال: أعرف بائعاً غشاشاً، كنت من بعض ضحاياه، ولم أستطع أن أعيد إليه السلعة التي ابتعتها منه، لأنه كان شريراً، ويظهر أنه أعد العدة لما قد يعترضه، فاستخدم عنده أجيراً أشد منه شراً، يمتاز بقوة تفوق قوة البغل الجبلي، وبعد مدة مررت بمحله، فوجدته مغلقاً، فسألت جاره، وكان مطلعاً على قضيتي معه، فقال لي: لقد باع الدكان وانزوى في بيته هرباً من ملاحقة الدائنين، ذلك لأن سوء معاملته وغشه صرفا الناس جميعاً عن التعامل معه، فهوى في هوة الإفلاس، وهو اليوم لا يجد من يتصدق عليه بالرغيف، لسوء ما قدمت يداه.

وهذا قليل من كثير، فالابتعاذ، الابتعادَ عن ميادين الشر، ومواطن الإضرار بالناس، فلن ينجو الشرير المؤذي من مغبة شره وأذاه، ولو هرب إلى أقصى الأرض.

الموضوع الثاني والأربعون:

قال الشاعر إيليا أبو ماضي:

جُبِلَ الفقيرُ أخوكَ من طينٍ ومِنْ ماءٍ ومِنْ طينٍ جُبِلْتَ وماءِ
فَنَ القساوة أن تكونَ مُنَعَّمًا ويكونَ رهنَ مصائبٍ وبلاءِ

اكتبْ موضوعاً حول هذين البيتين، وبيّن أن أولئك الفقراء التعساء من مواطنينا الذين اسودت حظوظهم، فغمرهم الشقاء، وشملهم البلاء، هم اخوان لنا، وأنَّ الواجب القومي والإنساني يقتضينا أن نسعى إلى تخفيف ويلاتهم، وإسعاد حياتهم.

بسط الموضوع:

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«الناس سواسيةٌ كأسنان المشط، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

غير أن الحياة بعدت كل البعد عن التعاليم المثلى، وانعدمت فيها القيم الإنسانية والأخلاقية، فغدا الناس فيها بين أغنياء مترفين منعمين، وفقراء معدمين، وبيْن بَين، وهم الأكثرية في مجتمعنا، فالأولون يستزيدون من جمع المال، فلا يتركون وسيلة إلا لجؤوا إليها، ولا يلمحون باباً إلا اندسّوا منه، مُدَلَّهين بالمال، فهو لهم وسيلة وغاية، ويزيدون في حصائلهم ليستمروا في رخائهم، مكدسين المال فوق المال، وكأنهم نسوا قول الله تعالى:

﴿ والذين يكنِزونَ الذهبَ والفضةَ ولا ينفقونَها في سبيلِ الله فبشرْهمْ بعذابٍ أليم. يومَ يُحمْى عليها في نارِ جهنمَ فتكوى بها جباهُهم وجنوبُهُمْ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكنزون ﴾.

ويرزح المعدمون تحت وطأة الفاقة والحرمان، لا يكاد ما يصل إلى أيديهم كأجر لكدحهم المضني، يكفي لسد حاجاتهم المعيشية، يمنعهم فقرهم من العلم، ويبتعد بهم عوزهم عن التفكير في تطوير حياتهم.

فلو تراحم الناس لما حرم الفقير المعدم من الحياة الكريمة، ولكن الإنسان هو الذي بسبب الفوارق الاجتماعية، فكلمة الحظ في هذا بدعة، بدعة مزيفة غير إنسانية، بدعة وجدت لتعلل بيسر وبلاهة وجود هذه الفوارق، ولتمكن للطبقات المتخمة أن تجد تفسيراً مشروعاً لترفها، مع وجود آخرين مدقعين، يحلمون بيوم يصلون فيه إلى اللقمة الكريمة، نعم إنها ليست الحظوظ بل هو جشع الإنسان، وبعده عن إنسانيته، ومجافاته لتعاليم دينه، قال الله تعالى:

﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائلِ والمحروم ﴾.

ونحن جميعاً كأبناء شعب واحد من مختلف الطبقات، فقراء وأغنياء، حكاماً ومحكومين مثقفين وغير مثقفين، نحن جميعاً سبب بقاء هذه الفوارق الاجتماعية البعيدة المدى واستمرارها، لأننا نسهم كلنا في استمرارها، فإذا ما علت صيحة إلى الإصلاح انبرى لها الآخرون، يثيرون النكير، ويتذرعون بمختلف الذرائع لإسكاتها، وإذا ما طالبت فئة من الناس بالإصلاح اتهمتها فئات أخرى بالافتئات على حقوقها، فيخفت الصوت، وتضعف المطالبة ثم تنعدم.

إن الواجب الديني أولاً، والواجب الوطني والقومي ثانياً، والواجب الإنساني ثالثاً تحتم علينا أن ننبه الناس إلى إنسانيتهم، فنشعر المثقف بواجبه في الدعوة إلى التعاون والتواد والتراحم. قال النبي عليه السلام:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» .

ونشعر الغني بواجبه الإنساني نحو أبناء وطنه وقومه المحرومين من مناعم الحياة ومباهجها، هؤلاء الذين يشكلون سوادَ الشعب، إنهم العمال الكادحون، والجنود المناضلون، هم القوة المنتجة في ميدان العمل، بهم تدور المعامل، وتقوم الصناعات وتشاد المباني، وتشق الطرق، وتقام الساحات، ومن أجسادهم الممزقة أشلاء يبني الوطن سياجه في وجه الطامعين والغزاة، هم البناة والحماة، وهم كذلك المحرومون الذين يبيت بعضهم على الطوى.

أو ليس من الجور أن ينام مواطن وجاره إلى جانبه جائع، إنها قسوة ما بعدها قسوة إنها شريعة غاب.

أمِنَ الإنسانية ألاّ يجد الفقير المال لإجراء عملية جراحية، فيواجه الموت بقلب يقطر أسى ومرارة ويترك هذه الدنيا ساخطاً شاكياً أمره إلى الله، وهل يختلف وضع هذا الفقير الهالك عمن يحكم عليه مجتمعه بالموت.

إن من العدل أن ينال الفقير حقه في التداوي، ومن العدل أيضاً أن ينال الطبيب أجر عمله، فهو حقه، فإن عجز مواطن عن السداد حملت المؤسسات الشعبية التي يمولها الشعب نفسه، ويغذيها الناس جميعاً، أغنياؤهم وفقراؤهم، من كل حسب استطاعته، فيعمل الطبيب وهو مطمئن إلى مستقبله، وينصرف التاجر والمزارع إلى عمله كذلك، وهو مطمئن إلى أنه قام بما يجب عليه نحو أمته، فيزداد رزقه، وينعم باله، وتطيب أحواله، وبهذا يتبادل الناس المساعدة دون أن يكون في ذلك ما يمس كرامة المواطن المحتاج، أو يشعر بعجزه، فمؤسساته من صنع يديه، وأموالها من مدخراته وأمواله.

إن الأمم التي سبقتنا في مضمار الحضارة والتقدم ما سبقتنا، إلا لأنها شعرت بوحدة المجتمع فيها، حياة ومصيراً فسارت في طريق الحياة الفضلى، وعُدّتُها التكافل والتضامن، وسلاحها التواد والتراحم.

ولا يجب أن نضل الطريق، فلنا من عريق تاريخنا، وروائع تقاليدنا، ومحكم التعاليم الروحية التي نزلت على أنبيائنا نبراس، يسير بنا على طريق الخير والسعادة، ويقودنا إلى حيث الحياة الفضلى، إلى إنسانيتنا.

الموضوع الثالث والأربعون:

قال أحد المفكرين:

إن عدَم الثقة بالنفس هو السبب في أكثر ما يصيبنا من الفشل، فإن في إيقان المرء بقوته قوةً له، والذين لا ثقة لهم بأنفسهم، أو بقواهم، هم أضعف الناس، مهما كانوا أقوياء.

ناقش هذا القول وبين أن الرجال العظام، هم شديدو الثقة بأنفسهم

بسط الموضوع:

إن الذي يحترم نفسه يكون في الغالب شديد الثقة بها، مؤمناً بقدرتها على إحراز الفوز والظفر، في كل المعارك التي يخوضها، ذلك لأن الثقة بالنفس هي العنصر الأول الذي يبنى عليه كياننا، وتسمو فيه شخصيتنا.

إن الثقة بالنفس تزود المرء بقوة هائلة، تجعله لا يتردد أبداً فيما يسعى إليه من أهداف، فهو يستطيع أن ينهض بالأعمال الجبارة، بإيمان في النجاح لا يتزعزع لأنه واثق بنفسه، مؤمن بأنه قادر على النهوض بالأمر الذي ندب نفسه له.

والناس في كل مكان يحترمون من يثق بنفسه، ويرتاحون إليه، ويثقون به، لأنهم يعتقدون أن من لا يثق بنفسه لا يصلح بحال من الأحوال ليكون موضعاً لثقة الناس، وأن الذي يشك بمقدرة ذاته فلا غرابة في أن يشك فيه الآخرون، فالعجز دائماً يبدأ من الشخص نفسه، ومتى ضعفت ثقة الإنسان بنفسه أصبح اتكالياً وانزوى في زاوية النسيان ليعيش على هامش الحياة.

أعرف طالباً كان في الصف الأول في كلية الحقوق، وكان يدرس بهمة لا تعرف الكلل، وفي ذات يوم هزأ به أحد رفاقه وبالجهود الضائع الذي يبذله منصرفاً عن جميع المسرات، ومباهج الحياة، فرد قائلاً: «إنني مضطر أن أستعمل وقتي كله لأقوم بواجباتي، قياماً يكسبني الثقة عندما أصير عضواً في مجلس الأمة» فدوت في الغرفة ضحكة عالية سخريةً منه، أما هو فأضاف: أأنت في ريب مما أقول، تأكد انني لو لم أكن موقناً بمقدرتي على الوصول إلى عضوية المجلس بعد أربع سنوات لتركت الكلية منذ اليوم، واحتل هذا الشاب بعد خمس سنوات مقعده في مجلس الأمة.

فإذا أراد المرء أن يقوم بعمل ما في هذه الحياة فيجب أولاً أن يكون قوي الثقة بنفسه، وإن من وثق بنفسه لا يحتاج إلى قوى خارجية تدفعه إلى العمل، لانه قوي بذاته على القيام بكل عمل مهما كان صعباً وشاقاً، فالرجل الذي يثق بنفسه وبقدرته على النجاح لا يعتقد أن في الدنيا شيئاً مستحيلاً.

كنا نركب زورقاً بخارياً في نزهة إلى عرض البحر، وكانت الأمواج شديدة، فلما اشتد الريح، وتبللت ثيابنا بالرشاش المالح المتطاير، نصب البحار شراعاً من الخام على حافة الزورق، كان يعلو ويهبط، ويتمايل بشكل مخيف، فلما ساد الوجوم، وهلعت القلوب صاح البحار لا تتوقعوا شراً، فأنتم مع أبي محمود، ولن يصيب الزورق أذىً، وعادت الطمأنينة إلى النفوس الهالعة، لأنها وجدت الأمان في هذه الكلمة التي تنم عن الثقة بالنفس، والإيمان غير المحدود بها.

وقد يفشل الإنسان أكثر من مرة، فإذا كان شديد الثقة بنفسه عاود الكرةَ المرةَ بعد المرة، ولا بد من الظفر أخيراً. فلقد تستطيع أن تنجح في حياتك ولو كان كل الناس يعتقدون أنك غير ناجح، ولكنك لا تنجح أبداً إذا كنت تعتقد في نفسك أنك لن تنجح.

وإن من لا ثقة له بنفسه قصرت همته عن بلوغ ما يحلم به من رِغاب عِذاب، وعجزت عن تسنم ذرا النجاح والمجد، وعاش فقيراً مكدوداً، لا يحترمه أحد، ولا يفوز بثقة أحد، فهو ضعيف مستضعف، ولو كان يتمتع ببعض القوى الأخرى،

لأن هذه القوى كلها لا تجدي شيئاً، إذا كانت النفس خوارة ضعيفة عاجزة.

صفوة القول: على المرء أن يثق بنفسه، وأن يعتمد بعد الله عليها، ويؤمن بقدرتها على الوصول إلى الهدف الذي يبغيه، وبدُون ذلك لن يتمكن المرء من أن يقوم بأي عمل عظيم.

الموضوع الرابع والأربعون:

قال أحد المفكرين:

إن حُسنَ تهذيب المرء هو خير درع له، تقيه سوء آداب الآخرين، إنه يُكسبه كرامة يحترمها أشد الناس شراسة، أما سوء الأدب فإنه يجرِّىء أجبن الناس على رفع الكلفة ويزيل الهيبة.

ناقش هذا الموضوع:

بسط الموضوع:

باستطاعة المرء أن يستولي على قلوب الناس، وأن يشاركهم في خيراتهم، فيقدموا إليه كل ما يملكون، هبة خالصة، وليس عليه إلا أن يكون مهذباً.

قد يبدو هذا القول بعيداً عن الواقع نظرياً، أو على الأقل لا يصلح أساساً لهذه النتيجة التي تحدثنا عنها، ولكن الحياة علمتنا أن السلوك هو ثلاثة أرباع الحياة، والرجل اللطيف المهذب له من التأثير في النفس ما يتضاءل أمامه أي نوع آخر من أنواع الجمال والسحر، فهو يستطيع أن يفتن العقول بلطفه، وأن يسحر الألباب بدماثته، ويستطيع أي مهذب بابتسامته الصافية، وعباراته المهذبة أن يستل الأحقاد من الأفئدة الحاقدة، وأن يحول الأعداء الألداء إلى أصدقاء كرماء أوفياء.

كنا في رحلة لزيارة بعض الآثار، وكان الطريق وعراً مزعجاً، ولكنَّ أحد الأساتذة استطاع أن يحول أفكارنا جميعاً إلى نكاته اللطيفة، فلم نشعر بوعورة الطريق، ولا قساوة البرد، فكأنما كان حديثه يبعث الدفء في القلوب، فيسرى هذا الدفء إلى الأبدان، كما كان يصرف العقول والأبصار عما كنا نمر به من

طرق وعرة مزعجة، فلما عدنا اضطر هذا الأستاذ إلى البقاء والتخلف ساعات هناك، إذ كان في القلعة التي زرناها أخ له موظف هنا، فلما عدنا كانت العودة مبعث ألم وعذاب لا يطاق، وأحسسنا حينئذ بوعورة الطريق وسوء تعبيده.

والإنسان اللطيف المهذب يستطيع أن يأسر القلوب، ويسترقّ الناس، فهو يمتاز بذكاء نادر وصبر وذوق رفيع، فالمأمون الخليفة العباسي العظيم عطش ذات ليلة وعنده القاضي يحيى بن أكثم فامتنع أن يصيح بغلام يسقيه، فهو يخشى أن يوقظ ضيفه النائم، فينغص عليه نومه، فقام يمشي على أطراف أصابعه، حتى أتى موضع الماء، وكان بعيداً، فشرب ثم رجع، حتى صار إلى فراشه.

وأقدر الناس على استمالة القلوب هو من امتاز بظرفه، ورقته وتهذيبه، فالجمال الذي يتحلى به المهذب ليس تلك الوسامة التي قد يخفي وراءها نفساً قاتمة، ضالة مظلمة، بل هو جمال يعبر عن عواطف داخلية جذابة، إنها صفاء النية، وحب الآخرين، والرأفة بهم، والأخذ بيدهم، كل هذا وأكثر من هذا ما يتضمنه التهذيب الرفيع.

وفي وسع الكثير من الناس — والطلاب منهم بخاصة — أن تكون لهم الحظوة عند الآخرين، وأن يشقوا لانفسهم طريقاً سهلة معبدة، إذا تدرعوا باللطف والرقة والتهذيب، فالتهذيب وحده ثروة طائلة، بل هو خيرٌ من كل ثروة عداها، لأن المهذبين يجدون الأبواب أمامهم مفتوحة، ويلاقَوْن بالترحاب حيثما وجدوا، حتى لدى أشد الناس شراسة.

ومن مزايا الرجل المهذب أن يكون لطيفاً محتشماً مجاملاً، لا يَغْضَبُ ولا يُغْضِبُ أحداً، وهو لا يتسرع في أن يظن سوءاً في أحد، ولا يضمر السوء أبداً، ويلزم نفسه الملاينة، ويلطّف من حدتها، ويقهر عواطفه، وإذا فقد امرؤ كل شيء، ولكنه ظل محافظاً على تهذيبه، فإنه لا يكون قد فقد شيئاً مُهمّاً، ويكون في الواقع لا يزال يملك الشيء الأهم.

إن سلوكنا هو الذي يرفعنا، أو يخفضنا، وما من قوة يمكن أن تعادل قوة التهذيب، فهو ينجح دائماً حيث تفشل جميع القوى.

لقد جاء في القرآن الكريم:

﴿ ولو كنتَ فَظاً غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

وعندما ينفض الناس من حول المرء يكثر مبغضوه، ويتضاعف أعداؤه، وفي هذا ما فيه من شقاء الحياة ومتاعب العيش، وقد يلاقي سيء التهذيب من الأذى الشيء الكثير، فسوء التهذيب يجرِّىء الناس على إذلاله وإغضابه، حتى الجنباء فإنهم يجدون الشجاعة التي تدفعهم للرد على من اتصف بسوء الأدب.

إن حَسَنَ التهذيب يستطيع أن يصل إلى ما يبتغيه بلطفه ودماثة خلقه، وخير ما نورده كمثال لهذا الرأي أنه قيل في الأساطير: إن ريحاً هوجاء قالت يوماً للشمس: ألا تتمنين أيتها الشمس أن تكون لك قوتي وبأسي؟ فبوسعي أن أدمِّر المدن، وأن اقتلع الأشجار من جذورها؛ إن كل شيء يرتعد مني خوفاً ووجلاً، ومر في أثناء ذلك رجلٌ فقالت الشمس: هل تستطيعين أيتها الريح أن تحملي هذا الرجل على خلع معطفه فقالت الريح ليس أسهل من ذلك، قالت هذا، وأخذت تعصف والرجل يزداد التفافاً بمعطفه، حتى عجزت الريح، فقهقهت الشمس ساخرة، وأخذت ترتفع شيئاً فشيئاً، وترسل أشعتها فتدفىء الكون، كان الرجل يسير، وقد أخذ يسترد أنفاسه، واستراح قليلاً، ثم بدأ يشعر بدفء الجو، وما هي إلا دقائق حتى خلع معطفه، وانتصرت الشمس في حين غُلِبَتْ الريح على أمرها.

فالتهذيب يدفىء النفوس، ويبعث فيها الراحة والاطمئنان، ويفعل في القلوب فعل السحر الحلال.

الموضوع الخامس والأربعون:

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«إن الله يحب المتقن عمله».

اكتب موضوعاً في معنى هذا الحديث الشريف، وبين أن الإنسان إذا كان متقناً ما يصنع، مجيداً ما يقوم به من عمل إجادة يمتاز بها على الآخرين، فإن الناس يشقون طريقاً إليه، ولو انزوى في أقصى مكان

بسط الموضوع:

كل إنسان في هذه الحياة عضو عامل فيها، فالذين يتقاعسون عن العمل وينصرفون إلى البطالة والكسل هم أعداء الحياة وعالة بغيضة على العاملين من بني الإنسان.

وإن كل إنسان عامل يجب عليه أن يجيد عمله إجادة لم يسبقه إليها أحد، فالقاعدة التي يجب أن يسير عليها هي بلوغ الذروة في إتقان العمل، لأن الله يحب المتقن عمله، أما الناس فإنهم يرفعون المتقن عمله إلى أعلى مقام.

وإذا عرف إنسان بإتقان عمله، وإجادته، فإن الناس يطمئنون إلى صنعه ولا ينصرفون عنه، ويغدو إنساناً محترماً، ومواطناً لا يقل مرتبة عن أي عظيم في البلاد.

فإذا صمم المرء على صنع شيء أو إنجاز عمل، فعليه أن يفرغ فيه كل ما لديه من براعة وحذق ومهارة، بأمانة وإخلاص، بصرف النظر عن كل اعتبار، فلا

يجوز أن يكون للشخص الذي نصنع له الشيء، أو القيمة التي سيدفعها أي أثر في إجادة ما نصنعه، فإتقان العمل هو أفضل إعلان للدعاية لما يتم صنعه على أيدينا.

وكثيرون منا، عندما يريدون أن يشتروا ما يحتاجون إليه من المصنوعات، يقصدون دائماً الذين اشتهروا بجودة الصنع، وإتقان العمل، لأنهم اكتسبوا ثقة الجميع، ولهذا فإن الناس يحترمونهم، وهكذا ينثال عليهم الرزق من كل مكان.

أما ذلك الذي لا يتقن عمله، فليس لديه من سلاح يستعمله سوى الأقوال العذبة، لتوريط الزبائن واجتذابهم، واستعمال كلام ذي وجهين، والمغالاة في قيمة ما يصنعه، والتظاهر والتضليل، والادعاء الفارغ، وهذه الصفات كلها هي مظاهر متنوعة للتمويه والرياء والتزوير الناشئة عن عدم التفكير في إتقان العمل.

والطبيعة تعلن كل يوم عن إجادتها صنعَ ما تصنعه، بصرف النظر عن المكان والزمان، فالوردة التي تنبت في حديقة رئيس الجمهورية ليست أبهى منظراً، ولا أطيب شذًى من الوردة التي تنبت في كوخ فلاح فقير.

فعلينا أن نعمل ما نكلف عمله بملء عنايتنا وقوتنا واستقامتنا، سواء في ذلك العمل البسيط ذو الثمن البخس، والعمل الكبير الذي يدر الربح الوفير، فالمحامي الناجح هو الذي يولي قضاياه التي يوكل فيها، كلها، عنايته العظمى، بصرف النظر عن أهمية كل منها، لأن صاحب القضية يعتبر قضيته تستحق من العناية والاهتمام عين ما تستحقه أية قضية أخرى، مهما عظمت، وأن كل مقصر في بلوغ ذروة الإتقان يجازف بمستقبله، بل هو يدفن مستقبله بيديه.

كان الشاعر الجاهلي الخالد زهير بن أبي سلمى ينظم القصيدة في أربعة أشهر ويهذبها مما قد يكون فيها من ضعف في أربعة أشهر، ويعرضها على النقاد من أصحابه الشعراء في أربعة أشهر، ولهذا دعيت قصائده الحوليات لأن كل قصيدة منها يمر عليها حول كامل قبل أن يتناقلها الناس وقد قال أحد الشعراء:

لا تعرضَنَّ على الرواةِ قصيدة   ما لم تَكُنْ بالغتَ في تهذيبها
وإذا عرضْتَ الشعرَ غيرَ مهذَّب   عَدُّوه منك وساوساً تهذي بها

والتهاون والإهمال وعدم المبالاة في الإتقان هي الأسباب الحقيقية في فشل الألوف من الناس، فكم بين العمال والأساتذة ورجال الأعمال من فقدوا مراكزهم وموارد قوتهم، لعدم توخيهم الإتقانَ فيما يعملون.

فعلى المرء أن يكون مجيداً في كل أعماله، حريصاً على جودة إنتاجه، واقفاً على كل دقيقة من دقائق هذا العمل وذاك الإنتاج، باذلاً منتهى العناية والجهد في إتقان كل ما يصنعه، ولا يجوز أن يعتبر شيئاً من الأشياء التي تتعلق بعمله تافهاً، أو غير جدير بالاكتراث، كما لا يجوز أن يكون للوقت أو للتعب قيمة بالنسبة إلى الإحكام والإتقان، فالإتقان يجب أن يكون الهدف الأسمى، كما يجب أن نتعود التدقيق في عملنا، فإن المرء قلما يرى رجلاً ناجحاً إلا وهو مجيد متقن لعمله.

الموضوع السادس والأربعون:

قال أحد المفكرين:

الأخلاق قوة ونفوذ، وهي تكسبنا الأصدقاء وتوجدُ لنا المالَ وتجلبُ العونَ والحمايةَ، وتفتحُ طريقاً سهلاً أميناً إلى الثروةِ والشرفِ والسعادةِ.

اكتب موضوعاً في معنى هذا القول، وبين أن الأخلاق هي القوة التي تقف وراء المرءِ، لتعضده في كل شيء، ولاحظ أننا كلنا نثق بالرجل القويم الأخلاق.

بسط الموضوع:

في الحق أن من يبغي القوة يستطيع الحصول عليها عن طريق الأخلاق الفاضلة، ولا حاجة به ليجرب طريقاً آخر، وليثق كل امرىء بأن هذا الطريق ــ طريق الأخلاق الفاضلة ــ وإن لم يكن أسرع الطرق فهو ــ دون شك ــ أضمنها.

والرجل الفاضل هو ــ دائماً ــ موضع ثقة الناس على اختلاف طبقاتهم وميولهم، ففي إحدى الأزمات المالية ساد الذعر المالي، وتهافت الناس على المصارف يستردون ودائعهم، وقد سحبت كميات كبيرة من المال، وكان أحد المصارف يديره شاب فاضل، عرف بالخلق القويم والسيرة المستقيمة، فسألته كم سحب اليوم من مصرفك فقال: كان لدينا في الصباح نصف مليون ليرة فصار لدينا في المساء ما يقارب المليون، فقد كانت ثقة الناس بهذا المصرف الذي كان

يديره هذا الفاضل كافية ليطمئنوا إلى ودائعهم، حتى لو كان ذلك خلال أشد الأزمات المالية.

وأذكر أن أحد الضباط اشتهر بسموّ الخلق بين سائر الضباط والجنود وفي ذات ليلة اشتد الصقيع واضطر هذا الضابط أن يبيت مع بعض الجنود في العراء، وفي الصباح استيقظ دافئاً نشيطاً ثم نادى رجاله فلم يسمع مجيباً، وأجال بصره فيما حوله فرأى جثثهم الهامدة مغطاة بالصقيع ومعاطفهم الثقيلة كلها مطروحة فوقه، فلقد بذلوا حيلتهم فداء له.

فالصدق والاستقامة والوفاء وحسن المعاملة، وغيرها من الأخلاق الفاضلة تكسب صاحبها من العظمة، ما لا توصله اليها أية وسيلة أخرى، فهي وحدها أركان العظمة.

إن الناس دائماً يبحثون عن أشخاص شرفاء، يملأ الإخلاص قلوبهم، وضمائرهم نظيفة لم يلوثها الجشع والأنانية، يتصدون للدفاع عن الحق ولو اهتزت الدنيا، وارتجت الأرض، يتكلمون بالصدق غير هيابين ولا وجلين، لا يتكبرون ولا يتجبرون، ولا يترددون في قول (لا) عندما يجب أن يقولوها ولا يخجلون أن يقولوا: (لا أقدر أن أفعل هذا الأمر) إذا كانوا لا طاقة لهم به.

فلا غرابة إذا في أن نرى الناس على اختلاف طبقاتهم يضعون ثقتهم في أصحاب الأخلاق، فإن الأخلاق قوة لا يمكن تجاهلها، وإن نجاح الشبان يتوقف في الواقع على ما يتحلون به من الأخلاق أكثر مما يتوقف على ما اقتبسوه من العلم والمعرفة، وكثيرون ممن حكموا الشعوب استطاعوا أن يحتلوا القلوب بما كانوا يتحلون به من خلق العطف والشهامة، والألفة والنزاهة، وتركوا الحكم وأيديهم فارغة من المال، ولكنها أيد نقية.

دعي أحد رجال المجتمع إلى شهادة أمام إحدى المحاكم، فلما تقدم ليحلف اليمين حسب العادة التفت رئيسها إليه قائلاً: إن المحكمة لها من الثقة بصدقه ما يجعلها تكتفي بكلامه دون أن يقسم على صحة ما يقوله، لولا أن القانون للجميع وأن الجميع سواسية ولهذا السبب ترجو منه المحكمة أن يقسم.

وإذا كان في العالم قوة فعالة تحمل الناس على الشعور بتأثيرها، فإنما هي قوة الأخلاق، فقد يكون المرء فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، ولا مركز له في المجتمع، ومع ذلك نراه يحصل على نفوذ لا نعرف مصدره، ويضمن لنفسه احتراماً طيباً، ذلك لأنه عرف بالأخلاق الفاضلة الكريمة الطيبة.

يقول الشاعر العربي:

قد وَلَجْنا الحَياةَ مِنْ كلِّ بابٍ
فَوَجَدْنا الأخلاق بابَ الحياةِ

الموضوع السابع والأربعون:

مرَّ الحسنُ بن علي بإسكاف فقال: يا هذا اعملْ وكلْ، فإن الله يحب من يعملُ ويأكلُ، ولا يحبُ من يأكلُ ولا يعملُ.

بسط الموضوع:

العمل خير كله، فهو من الناحية الخَلْقية يقوي بدن الإنسان، ويصلب عضلاته، وينشط الدم في عروقه، ويمنحه المعرفة والحنكة والدراية، ويوقظ فيه حواسه، وهو من الناحية الخُلُقية يجعله يشعر أنه إنسان، فهو يدفعه في ميدان الحياة عزيزاً كريماً، إنساناً اكتملت مروءته.

وقد جاء في الحديث الشريف:

«إن الله يحبُ العبدَ المحترفَ، وإن الله يبغضُ الصحيحَ الفارغَ».

وقال العرب قديماً: «مَنْ لا يحترف لم يعتلف» وهذا المبدأ السامي هو ناموس الحياة، ففي الناس كثير من الذين لا يعملون فهم يعيشون حياة الحرمان والعوز، ذلك لأنهم خالفوا هذه القاعدة الحياتية التي تفرض نفسها فرضاً في جميع الظروف والأحوال.

وقد يدّعي أحد المتبطلين أن البطالة هي التي تحول بينه وبين العمل، وأنه لو وجد عملاً لما تقاعس عن القيام به خير قيام، فهذه الحجة مردودة، لأنني ما وجدت إنساناً مخلصاً في عمله قوياً على النهوض به، قادراً على الوفاء بما ألزم به نفسه من إجادة في الصنع، وسرعة في الإنجاز، وأمانة في المعامة إلا وأقبل عليه

الناس من كل جانب، لأن الناس ــ كل الناس ــ يعنيهم قبل كل شيء أن يحصلوا على خير العمل لقاء الدراهم التي يقدمونها ثمناً لهذا العمل.

وعلى كل متبطل ألا يتردد في قبول أي عمل يتيسر له، إذا كان من الأعمال التي يحسن القيام بها، وإن كان هذا العمل دون ما يستحقه منزلة ومرتباً، فإذا هو أبدى فيه أهلية واستعداداً، فلن يمضي وقت طويل حتى يسند اليه عمل أهم وأرفع.

وإذا كنت ترى أن المهنة التي تقوم بها لا تتناسب مع مكانتك، أو تنحط عن المستوى الذي تريده لنفسك، فلا تحاول أن تستبدلها فوراً، بل حاول أن ترفع مقام تلك المهنة إلى المستوى اللائق بك، وذلك بإظهارك فيها من الرجولة فوق ما يظهره الآخرون، واستعمل في عملك عقلك وقلبك وعزيمتك ونباهتك، وإذا بهذه المهنة التي كنت تراها لا ترقى إلى مكانتك قد كانت سبباً في شهرتك ورفعة شأنك.

أعرف عظماء كانوا في طفولتهم باعة صحف، وكلنا يعرف أن بائع الصحف المتجول رقيق الحال، لا يكاد يحصل على قوت يومه ــ منهم المخترع العظيم (أديسون) صاحب الاختراعات الألف، كان في الخامسة عشرة من عمره بائع صحف، ثم تمت أعظم المكتشفات والمخترعات على يديه.

فليعمل المرء ليكون إنساناً منتجاً فمن لا يعمل ــ وهو قادر على العمل ــ يَكُنْ عالة على العاملين وعبئاً ثقيلاً على الكادحين الشرفاء.

الموضوع الثامن والأربعون:

المروءة هي كمالُ الإنسانية.

اكتب موضوعاً تتحدث فيه عن المروءة وتحثُّ الناس عليها.

بسط الموضوع:

المروءة ــ كما قيل ــ هي كمال الإنسانية فمن اتصف بها كان إنساناً اجتمعت فيه صفات النبل والشمم والشهامة وغيرها، فهو يبغض النقائص التي تذري بالإنسان، ويجفو المتصف بها، ويتجنبها كما يتجنب السليمُ المريضَ.

وذو المروءة إنسان سَمَتْ نفسه، فهو وفيٌّ لأصدقائه وللناس جميعاً، لا يستغل الصداقة، ولا يجعل الآخرين مطية لأغراضه الخاصة، يقابل الجميل بالعرفان، فلا يضيع فيه المعروف، وإذا أسيء إليه نسي الإساءة، ودفعها بالتي هي أحسن، فإذا بالعدو يصبح ولياً حميماً.

وإذا كان ذو المروءة رئيساً عطف على مرءوسيه، وعاملهم بما توجبه قواعد الشرف والشهامة، فلا غدر ولا حقد، ولا ظلم ولا جور ولا استغلال ضعف المرءوس، وحاجته إلى المرتب، ولا سعياً وراء إرضاء الشهوات الذاتية، عن طريق سلطة الرئاسة المزود بها رسمياً، ولا هو يستطيل على الناس بالسلطة التي منحه إياها القانون، فهو قدوة لمرءوسيه في الشهامة والنبل والصدق والوفاء والشمم والإباء، والترفع عن الصغائر، يتبارى مرءوسوه في نيل رضاه، فيحاول كل منهم أن يتحلى بالمروءة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا كان ذو المروءة تاجراً عفَّ عن الكسب الحرام، فعرض السلع عرضاً صادقاً، سواء في ذلك مقدار السعر، أو مستوى الصنف من الجودة، يقنع بالقليل الذي يكفيه، ولا يطمع إلى ما لا حقَّ له فيه، فإذا رزق في يومه ما يسد الخلة، ويستر العيال. شكر الله على كل حال، وقفل إلى المنزل ليتعهد بنيه بالتّربية الإنسانية السامية، وفق ما تمليه عليه مروءته.

وقد حرص العرب على أن يكون للمروءة مكان سام في حياتهم، فهم يحترمون ذا المروءة، ويحتقرون اللؤم واللئيم، وقد أكثروا في ذلك حتى يخيل للمرء أنهم يريدون من وراء ذلك حماية ناشئتهم من اللؤم، فلا يجد سبيلاً إلى نفوسهم التي طبعتها المروءة بطابع الكمال الإنساني الرفيع.

واليوم نجد أنفسنا في حال لا نحسد عليها، فعلينا أن نغرس في الناس حب المروءة فإذا مَرُؤ المواطن ترفع عن الصغائر كلها، أعظم الترفع، وتنزه أعظم التنزه، وهذا الترفع والتنزه هما أنبل الأهداف وغاية الغايات.

الموضوع التاسع والأربعون:

قال أحد المفكرين:

إذا كنت تحب الحياة فلا تضيع الوقت سدى، لأن الوقت هو المادة المصنوعة منها الحياة.

ناقش هذا القول، وبين أن المحافظة على الوقت تنيل الإنسان فوائد أعظم جداً مما يتمناه، وأن تضييعه للوقت يجعله ينحط انحطاطاً عقلياً وأدبياً فوق ما نتصور.

بسط الموضوع:

نُقِش منذ زمن بعيد على ساعة شمسية في إحدى المدن هذه الكلمات: «إن الساعات تمر ولكنها مقيدة على حسابنا» وبما أن العمر معدود بالدقائق والثواني فإن الخسارة الحادثة في دقيقة لن يعوضها الزمان بأسره، فإذا ما أضعناها دون فائدة أضعنا جزءاً من حياتنا، منه ومن أمثاله من الدقائق يتألف العمر.

لقد قال الحكماء:

«إنه يمكن استرجاع الثروة المفقودة بالاجتهاد والاقتصاد، والمعرفة المفقودة بالدرس، والصحة المفقودة بالحمية والدواء، وأما الوقت المفقود فلا يمكن استرجاعه أبداً».

كنت في بعض الأيام أمر أمام صانع خياط وقت استراحة الظهر، فأراه

منصباً على الدراسة، وبعد أعوام كان هذا العامل يرتدي ثوب المحاماة بنجاح، فعجبت لأمره ولكن عجبي زال عندما تذكرت أنه كان يظل مكباً على الدرس، حين انصراف الآخرين إلى النوم.

فهذه الفضلات الزهيدة من الوقت، نقلت هذا الفتى من حياة ضيقة وعوز قد يستمر أمده سنين طويلة، إلى حياة رغيدة ومستوى اجتماعي رفيع.

وصاحب الموهبة العادية يجب عليه ألاَّ يدع دقيقة تمر دون أن يستغلها أنفع الاستغلال وأجداه، فالوقت هو المادة الخام التي نصنع منها حياتنا، لهذا ينبغي أن تكون كل أوقاتنا في النهار حافلة بالعمل النافع المثمر، ولنا من ساعات الليل متسع لراحتنا ومتعتنا ولهونا.

وهذا كله لا يعني ألاَّ يكون للمرء من وسائل التسلية ما يروح به عن نفسه عناء العمل، كلا! فليمض المرء بعض الوقت في ملهاة يميل إليها قلبه، ولعل هذه الملهاة تكون ذات نفع كبير، إذا أُحْسِنَ اختيارُها واصطفاؤها.

إن الثروة تجمع ـ كما يعلم الكثيرون ـ من القروش الموفرة تضم إلى بعضها، والأنهار الكبيرة بل المحيطات إنما تكونت من نقاط المطر المتساقط على سطح الأرض، فكيف لا تؤلف الدقائق والثواني المضاعة ثروة زمنية، يمكن استغلالها والاستفادة منها!؟

قال رجل للحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما:

«إني أنشر مُصحفي فأقرؤه في النهار كله».

فقال له:

«اقرأه بالغداة والعشي، ويكون يومك في صنعتك وما لا بد منه».

وروي عن أبي يوسف أنه قال:

«مات لي ولد فأمرت من يتولى دفنه، ولم أدَعْ مجلس أبي حنيفة خوفاً من أن يفوتني منه يوم».

وقال أحد المفكرين:

«إن الله عز وجل لا يعطي إلا دقيقة واحدة في وقت واحد، فهو لا يعطي الدقيقة الثانية إلا بعد أن يسترجع الأولى».

إن أحد رؤساء الجمهوريات درس الحقوق في أثناء اشتغاله موظفاً في دائرة من دوائر الدولة، وكثيرون اليوم يحصلون على شهادة الحقوق، وهم يعملون في الدوائر أو المعامل أو غيرها، مستفيدين من هذه الدقائق القليلة التي تؤلف أوقات فراغهم.

وإن أشد ما في إضاعة الوقت من ضرر ليس في خسارة الوقت نفسه، بل في خسارة الإنتاج النافع الذي قد نحصل عليه في هذا الوقت، كما أن الكسل يصيب الأعصاب بالصدأ.

إنَّ قطع خيط من السدى المعد للنسيج يتلف الثوب كله، ولهذا تعمد إدارة المصنع إلى معاقبة العامل المهمل الذي سبب هذه الخسارة، فلم لا يعاقب ذلك الذي يتلف خيوط ثوب الحياة.

ولقد قيل:

«إن الوقت من ذهب».

وهذا صحيح فكما أن من الجنون أن يطرح المرء ليرة في الهواء، لتذهب ضياعاً، كذلك يعد مجنوناً ذلك الذي يطوح بوقته دون أن يحسن استغلاله.

وصفوة القول: أن مَنْ يضيع الوقت فالوقت سيضيعه، وقيل في المثل:

«الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك».

الموضوع الخمسون:

قال أحدهم:

إن الفقر هائل وكثيراً ما يخمد فينا كل عزيمة، ولكنه في الواقع هو الذي يجعل الرجال يندفعون إلى الأمام في سبيل حياة أفضل وأنفع، وأما التقلب في الحياة اللذيذة الناعمة فإنه يجعل الناس يستغرقون في أحلام الكسل والخمول.

ناقش هذا القول وبين أن الفقر في أول حياة المرء قد يكون دافعاً له إلى تسنم ذرا النجاح والتفوق، وإن عدداً كبيراً من رجال الأعمال القابضين على زمام الاقتصاد في مجتمعنا بدؤوا حياتهم على مهاد الفقر.

بسط الموضوع:

كثيراً ما يكون الفقر في أول العمر خيراً وبركة، فالمصاعب التي يجدها المرء وهو يكد لتحصيل قوته، وتأمين الضروري من مقومات حياته تكسبه خبرة وتدريباً وشجاعة، تفيده في معاركه المقبلة ضد الفقر والعوز والحرمان.

والملاحظ أن الأشجار التي تنبت بين الصخور تصبح أقوى الأشجار وأعظمها شموخاً، والفتى الذي ينشأ في أحضان الفقر لا يمكن أن يهلك جوعاً، لأنه يملك الوسائل التي يدفع بها عن نفسه شر الجوع، أما الفتى الذي عاش يتقلب في أحضان النعيم، فإنه لا يستطيع أن يقف على رجليه أمام النكبات التي قد تفاجئه، دون أن يكون قد استعد لها أو هيأ نفسه لمجابهتها.

وكثيرون ممن ولدوا فقراء، ولازمتهم الفاقة منذ كانوا في المهد، وذاقوا طعم الحرمان حتى من كفايتهم من الخبز، استطاعوا أن يكدوا ويعملوا، حتى وصل بعضهم إلى درجات في المجتمع لم يبلغها بل لم يحلم بها أبناء الغنى والدلال، فلا شيء بدون جد وبالجد يستطيع المرء أن يتوصل إلى تحقيق أمنياته في حياة كريمة فضلى، هذا إذا كان المرء قوي الإرادة، ماضي العزم، لا يحفل بالمصاعب، ذا رأي صائب وبصيرة متقدة.

حدث في مأدبة أقيمت في إحدى المدن أن ثارت مناقشة حادة حول قضية من القضايا الهامة، فلما رأى رب المنزل تفاقم الجدال، التفت إلى أحد الخدم وسأله ــ متهكماً ــ أن يدلي برأيه في هذه القضية، ولشد ما كان دهش الحاضرين عندما سمعوا ذلك الخادم يفيض في الشرح والتفصيل، بطريقة أقنعت الجميع، وكان كلامه فصل الخطاب، فالتفت أحدهم إلى الخادم وخاطبه باحترام عظيم قائلاً: في أية مدرسة تلقيت دروسك؟ فأجاب: إنني قد درست يا مولاي في مدارس عديدة، ولكن المدرسة التي قضيت فيها أطول مدة، واكتسبت منها أعظم الفوائد هي مدرسة البؤس، نعم لقد أفاد البؤس هذا الخادم إذ جعله في ذات يوم أعظم المفكرين الثوريين في عصره، إنه جان جاك روسّو.

وأعرف رجلاً هو اليوم من كبار رجال الأعمال نشأ فقيراً أمياً، ولما التحق بالجندية فكر في أن يتعلم مبادىء القراءة والكتابة، فكان يدرس على حافة فراشه في المعسكر، ولم يكن لديه مال يشتري به مصباحاً أو زيتاً، وكان يضطر إلى التخلي عن مشترى ثوب يستدفىء به ليشتري قلم رصاص أو ورقاً، وكان عليه أن يقرأ ويكتب بين حديث وقهقهة وجلبة من عدد لا يقل عن مئة جندي، وقد تحدث عن نفسه فقال: آذكر أنني احتلت مرة لتوفير نصف ليرة، وصممت على أن اشتري بها سمكة في الصباح، وكان الجوع قد بلغ مني مبلغه، ولكنني لما خلعت ثيابي في الليل وجدت أن نصف الليرة قد ضاع، فغطيت رأسي بملاءتي الحقيرة وجعلت أبكي كالطفل.

وكثيرون ممن نشؤوا عمالاً فقراء كانوا يذهبون إلى أعمالهم في نشاط وهمة حتى

إذا سنحت لهم فرص من الفراغ استغلوها في الدراسة الخاصة، وحصلوا على أعلى الشهادات، وانتقلوا بعد ذلك إلى القضاء أو إلى أعمال حرة أخرى، فنالوا من التكريم والاحترام ما لا يحلم بمثله الآخرون من أبناء الترف.

ولهذا فإن حياة أمثال هؤلاء النابغين الأبطال الذين ترعرعوا في أحضان الفقر، تجعل الأشخاص المتوفرة لديهم وسائل التحصيل والاكتساب، ولا يجيدون أي عمل نافع، يطرقون برؤوسهم خجلاً.

وقد يقول أحد الشباب: إنه لا يملك رأس مال يستطيع به أن يباشر عملاً من الأعمال، إن مثل هذا القول لا يستند إلى ظل من المنطق، فليس جميع الناس المتفوقين كانوا يملكون المال ليشقوا به طريقهم، ألا يكفي الشاب مهما كان فقيراً أن يكون في حوزته القوة والإرادة والسمع والبصر والذكاء والفطنة، إنه ليس فقيراً من يملك كل هذا، ولا عذر لمن يعتذر بالفقر، وقد منحه الله من الوسائل ما تعجز جميع قوى الدنيا أن تمنحه بعضها.

لقد كان الفارابي، وهو فيلسوف من خيرة علمائنا، على جانب كبير من العوز والفاقة، فكان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف، ويستضيء بقنديل الحراس وبقي على ذلك إلى أن بلغ بلاط الخلفاء، فعظم شأنه، وظهر فضله، وطارت شهرته.

إن بين كبار رجال العالم اليوم عدداً ليس باليسير، نشؤوا على مهاد الفقر، وخاضوا معارك الدهر، غير متكلين إلا على الله، وعلى عزائمهم وقدرتهم الذاتية.

وليس لفتى مهما كان بائساً أن ييئس، ما دام يسعى إلى هدف معين لا يحيد عنه، فإن في الدنيا سبلاً للكسب والنجاح، أمام كل إنسان، شريطة أن يكون متذرعاً بالعزيمة الصادقة، والتصميم الأكيد، سواء في ذلك من نشأ في أحضان الفقر، ومن نشأ في مهاد النعيم، فإذا كان المرء مصمماً على النجاح والتفوق، فإن قوى العالم كلها لا تستطيع أن تصده عن هدفه، أو ترده عن غايته.

الموضوع الحادي والخمسون:

قال أحد المفكرين:

إذا شئت أن تكون فعَّالاً فأوجز، فشأن الأقوال شأن أشعة الشمس كلما كانت أقصر كانت أشد إحراقاً.

ناقش هذه الفكرة.

بسط الموضوع:

إن الإيجاز هو خير ما يؤثر في الناس، سواء ممن كان ملزماً بالخطابة والتحدث في الأمور العامة، كأعضاء مجلس النواب مثلاً، أو ممن كانت مهنته تستلزم اللين والفصاحة، وقوة العارضة وسلاسة القول، وإن الإيجاز في حقيقته منتهى الكمال في الأسلوب، وليس في استطاعة كلٍّ أن يحسن الإيجاز، فإذا كان الإيجاز سهل المأخذ، قريب المتناول، يفهمه المخاطب دون كبير عناء، ويستطيع أن يدرك ما بين الكلمات من معاني موجزة، كان ذلك أقرب إلى الفصاحة والبلاغة وأوقع في النفس.

فتعمّد الإيجاز وسر مباشرة إلى غرضك، وابدأ قريباً جداً من حيث تريد أن تنتهي، فالإيجاز روح الحكمة، فإذا أردت أن يستفيد منك السامعون فلخص كلامك في كلمات قليلة بينة، وأرسلها صافية سهلة واضحة، فإنها ستفعل فيهم فعل السحر، وقد تعبر في دقيقة واحدة عما لا يستطيع غيرك أن يعبر عنه في ساعات، وسيكون الأثر الذي يتركه كلامك الموجز أوقع ألف مرة من الكلام المطول المملول.

كان أحد رجال الأعمال يقول لزائريه:

«عليكم بالإيجاز فإن الوقت ثمين».

وإن المحافظة على المواقيت والاستقامة والإيجاز هي كلمات السر في هذه الحياة، وإياك أن تكتب رسالة طويلة، فإن رجل العمل ليس لديه وقت لمطالعتها، وإذا كان لك ما تقوله فاختصر ما استطعت. فما من قضية مهما كانت هامة لا يستطاع سردها في لحظات.

فالإيجازَ الإيجازَ، ولتقل ما تشاء، ولكن في كلمات قليلة. وسكينة وانتظام وترتيب. وليكن هدفك من كل ذلك ألا تهدر وقتك ووقت قرائك وسامعيك بلا طائل، وليكن الإيجاز وسيلتك إلى الإنجاز، فالأقوال المأثورة لم تؤد مفعولها في النفوس إلا لأنها في كلمات قليلة.

الموضوع الثاني والخمسون:

وقفت خطيباً في حفل تدعو المجتمعين فيه إلى مساعدة أهل قرية نكبها الزلزال فما تقول؟

الخطاب:

أيها السيدات والسادة:

أشكركم شكراً عظيماً على تحملكم مشاق الحضور، وتلبية هذه الدعوة التي قصد بها إغاثة الملهوف، وكشف كربة المكروب، وأعتقد أيها الاخوان أنكم سمعتم الكثيرَ الكثيرَ عما حل باخواننا ومواطنينا، فلقد سارت بأنباء مأساتهم الركبان، وتناقلتها أسلاك البرق، حتى غدت حديث الناس في كل مكان. ولا غرابة في ذلك فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كَرِهَ، فإذا عطف العالم الخارجي على المنكوبين من أبنائنا ومواطنينا، وامتدت أيدي المحسنين إليهم بالعون والمساعدة، فنحن بهذا البذل أولى، وبمساعدة هؤلاء المنكوبين التعساء أجدر وأحرى.

أيها الأخوات والإخوة:

إن هؤلاء المنكوبين هم اخواننا في الوطن، إنهم أهلنا وذوونا، فإذا قسا عليهم الزمان، وتناولتهم يد الحدثان، فلا يجوز أن يتركوا ليلاقوا أحداث الدهر وحدهم، فلنقف إلى جانبهم، نصد عنهم عاديات الدهر، بمالنا وأرواحنا وعرقنا فلقد أتلفت الزلازل دورهم، وهدمت بنيانهم، وقتلت النساء والأطفال، فراحوا تحت الأنقاض يستغيثون ولا مغيث، ويستصرخون المروءة ولا من يجيب.

إن هذه الكارثة أطاشت العقول، واطاحب بالألباب، وصاروا إلى ما قاله الله تعالى:

﴿ يومَ يفرُّ المرء من أخيهِ وأمه وأبيهِ وصاحبتهِ وبنيه لكلِّ امرىءٍ منهمْ يومئذٍ شأنٌ يغنيهِ ﴾.

زلازل كاسحة دمرت الدور والقصور، ودفنت الكبار والصغار، ومن نجا من الكارثة هام على وجهه عارياً فزعاً، يتسربل بُردَ الظلام، لا تقيه واقية من برد أو حر، ولا يدفع عنه أحد الشر والضر.

أخواتي وإخواني:

إن اخوانكم المنكوبين الذين نجوا من الكارثة يفترشون اليوم الغبراء، ويلتحفون بالسماء، وهم صائرون إلى الفناء إن لم تتداركهم رحمة الله، فدوا أيديكم اليهم، وأسرعوا بالعطف عليهم، وانتشلوهم من هوّة البؤس والعدم فأنتم الأجواد وقت العسرة والاخوان وقت الشدة.

لا يسألونَ أخاهمْ حينَ يندبُهُمْ ... للمكرماتِ على ما جاءَ بُرْهانا

اغمروهم بعطفكم، وعالجوهم ببركم، وامسحوا دموعهم بخيركم، تمسكوا عليهم حياتهم، وتصونوهم من ذل السؤال، وخطر الأوبئة والأمراض، وتدفعوا عنهم الجوع، والجوع كافر لا يرحم.

سيداتي سادتي:

لن يذهب ما ستنفقونه على هؤلاء التعساء سدى، فقد قال الله تعالى:

﴿ مثلُ الذينَ ينفقونَ أموالَهُمْ في سبيلِ الله كمثلِ حبةٍ أنبتتْ سبعَ سنابلَ في كل سنبلةٍ مئةُ حبةٍ والله يضاعفُ لِمنْ يشاءُ والله واسعٌ عليم ﴾ .

وقال الشاعر العربي:

مـن يفعلِ الخيرَ لا يعدَمْ جوازِيَهُ   لا يذهبُ العرفُ بينَ اللهِ والناسِ

فكل درهم تبذلونه في هذه السبيل يعود إليكم أضعافاً مضاعفة، فضلاً عما يتركه هذا العمل المبرور من أثر حميد في نفوس من أعنتم، فيتجهون إلى الله العلي القدير ضارعين، مبتهلين، متوسلين إليه أن يكلأكم ويحفظكم من كل سوء، ويخلف عليكم ما أنفقتم، فتكونون بذلك قد أنقذتم إخوانكم، وأرضيتم ربكم، واستجبتم لنداء ضمائركم.

قال رسول الله ﷺ:

«مثلُ المؤمنينَ في تراحُمِهِمْ وتوادِّهمْ وتعاطفِهمْ كمثلِ الجسدِ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحمى».

فهذا رسول الله يدعوكم إلى مد يد العون والمساعدة، ولن ينقذ هؤلاء إلا الإسراع في إرسال كل ما يساعدهم على الإبقاء على حياتهم، وكيف نستطيع أن نهنأ هنا، وننعم بجانب أبنائنا واخواننا وزوجاتنا، وعلى مقربة منا أطفال يتضورون جوعاً، ونساء أبيّات كريمات لا يجدن الستر ولا المأوى.

لست أريد أن أذكركم بأنكم آباء، لكم صغار تخافون عليهم عادية الدهر، فسارعوا إلى إنقاذ هؤلاء البائسين، لتلقوا خير الجزاء من بارئكم:

﴿ فمَنْ يَعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ﴾.

والله يحفظكم ويرعاكم. والسلام عليكم.

الموضوع الثالث والخمسون:

قال أحد الكتاب:

إن الفضل في نجاح الرجال المتفوقين يعود لثباتهم أكثر مما يعود لمواهبهم الطبيعية، وما يتسلحون به من قوة وجاه ومال، إن هذه الوسائل الأخيرة قوية، ولكن الثبات أقوى منها.

ناقش هذا القول.

بسط الموضوع:

الثبات عنصر رئيسي، وعامل أساسي من عوامل النجاح، فإن ما يبدو في أول الأمر مستحيلاً، يستطيع الثبات أن يجعله حقيقة، والنجاح ــ دائماً ــ حليف كل من هو أشد ثباتاً، فهو يزحزح كل صعوبة، ويذلل كل عقبة، فعلى المرء أن يعرف طبيعة عمله أولاً، ثم عليه أن يتخذ الثبات سلاحاً، ويواصل الجد، فإنه لا شك بالغ غايته، مدرك ما يصبو إليه، والفوز دائماً لمن يصبر ويثبت.

قيل: إن عنترة العبسي سأله أحد الأبطال الشجعان: كيف تنتصر دائماً على أقران هم أشد منك قوة، وأعظم شجاعة، فقال لمحدثه: خذ إبهامي بين أسنانك وأعطني إبهامك، وأخذ كل منهما يشد بأسنانه على إبهام الآخر، حتى صرخ الفارس طالباً منه أن يفلت إبهامه، فقال عنترة: هذا هو الجواب عن سؤالك، إنك لو ثبت ثواني معدودة لصرخت أنا مستسلماً، ولكني تذرعت بالثبات، فانتصرت.

وعندما يريد المرء أن ينجز عملاً ما فعليه أن ينصرف بملء قواه إلى هذا العمل، وأن يظل هذا العمل شاغلاً كل أفكاره، ومستغرقاً كل اهتمامه، فلا يقر

له قرار، حتى ينجزه، مستعيناً في ذلك بالثبات الذي يجعل نجاحه مؤكداً.

عندما اكتشف الدكتور «هارفي» الدورة الدموية، قال عنه زملاؤه الأطباء: إنه دجّال مغلوق الدماغ. ولكنه استمر في أبحاثه ثماني سنوات، حتى أعلن اكتشافه للدورة الدموية، واعترف رجال العلم بصحة اكتشافه العظيم.

وعندما أعلن كريستوف كولومبس أنه بإمكان المرء الوصول إلى الشرق، بالسفر بحراً إلى جهة الغرب، باعتبار الأرض كروية، قابل الناس أقواله بالاستخفاف والازدراء، وعارضه الكثيرون قائلين: كيف تكون الأرض مستديرة ولا تنسكب مياه البحيرات والبرك، وكيف يمشي الناس ورؤوسهم متجهة إلى الأسفل، وأقدامهم إلى الأعلى أشبه بالذباب؟ ولم يقبل أحد من البحارة أن يسافر مع هذا «المجنون» إلا مرغماً، وفي ٣ تشرين الأول من عام ١٤٩٢ رفع كولمبس علم إسبانيا على العالم الجديد.

فالمصاعب التي تعترض سبيل المرء في حياته كثيرة، لا يذللها إلا الثبات، وقد تمر على المرء لحظات، يدب اليأس فيها إلى نفسه، وتخور قواه، وتتلاشى آماله، رغم كل ما بذله من جهد وعناء، ولكن الرجل العظيم لا تثبط عزيمته بل يعود إلى متابعة جهاده وكفاحه، ولا بد من أن يتوج عمله بالنجاح، لأن جميع المصاعب تلقي سلاحها أمام الثبات.

كان طالب صيني قد وهنت عزيمته لتقصيره المتتابع، فألقى كتابه جانباً وهو يائس، ثم حانت منه التفاتة، فرأى امرأة مسكينة، تصقل قضيب حديد على حجر، لتصنع منه إبرة، فراعه ما رآه من صبَرها وثباتها، وعاد إلى الدرس بعزم أشد، وهو اليوم واحد من ثلاثة هم أعظم علماء الصين.

فالثبات هو سرُّ النجاح الذي ينعم به المتفوقون من أبناء البشر. إن «كارليل» مؤلف «تاريخ الثورة الفرنسية» بعد أن أنجز تأليف كتابه، وضع مسودته عند جار له وعمدت الخادمة إلى هذه المسودات، وأوقدت بها النار، فكان ذلك خطباً مؤلماً، ولكن (كارليل) شمر عن ساعد الجد، وأكب على العمل عدة أشهر، حتى وفق إلى اعادة تأليف كتابه من جديد.

إن الثبات هو الفضيلة العظمى التي يجب أن يتسلح بها الرجل المجاهد ومهما بالغ المرء، فلن يستطع تحديد أهمية الثبات، من الوجهة الاجتماعية، ولا تعيين منزلته في الأعمال والمشاريع الكبرى.

وإن عدم الثبات يكون ــ في غالب الأحيان ــ سبباً في الفشل، فيجعل الميسورَ اليوم متسولاً في الغد، ولا يمكن أن نستعرض انتصاراً واحداً تم بدون أن يكون الثبات أساسه ودعامته.

فما أعظم الثبات، إنه يمثل الإرادة التي لا تغلب.

الموضوع الرابع والخمسون:

جاء في الحديث الشريف:

آيـةُ المـنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَبَ، وإذا وعَدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤتمِنَ خانَ.

اكـتـب موضوعاً تتحدث فيه عن النفاق، وأثره السيء في الفرد والجماعة.

بسط الموضوع:

النفاق رذيلة من أسوأ الرذائل وأحطها، إنه لا يتمكن إلا من النفوس الدنيئة الغادرة الجبانة، هو منبع الكذب والغش والخداع، فالمنافقون هم الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، يظهرون المودة، ويبطنون ألدّ العداوة، والمنافق يظهر بألوان عدة، ومظاهر متنوعة، ولا يهمه أن يكون اليوم مع هذه الجماعة، وغداً مع خصومهم، لا يستجيب في ذلك إلا لصوت أنانيته.

يـومـا يمـانٍ إذا لاقـيـتُ ذا يمـنٍ   وإن لَـقـيـتُ مَـعَـدِّيّـاً فـعـدنـاني

يحالف من بيده الحكم، فإذا أفل نجمه خذله، وانصرف عنه إلى غيره، دون خجل أو حياء، حديثه رياء ودهان، يحتقره الناس، ويبتعدون عنه، فهو كالموبوء يفر منه كل إنسان، وينفض عنه كل من عرف نفاقه وغدره.

والمنافق غدار لئيم، فهو يظهر لك الصفاء والوفاء، فتطلعه على شؤونك وتنفض بين يديه جملة حالك، وتوقفه على جميع أسرارك، وتعلمه بكل دخائلك وأنت

مطمئن إلى وفائه وإخلاصه المزيفين، واثق به كل الثقة، معتمد على أنه مؤتمن، فإذا هو يخونك، ويغدر بك، ويمكن عدوك من مقاتلك بعد أن عرف مواضعها، ويوقع بك بلا رحمة ولا شفقة.

وهو يتلون حسب الظروف والأحوال، ولا يبالي أبداً أن يكون كالحرباء وبعد ذلك حذقاً ومهارة، وهو في الواقع خسة ودناءة، فبئس الخلق النفاق.

إذا حدث يعجبك قوله، وتعتقد أنه مخلص فيما يقول صادق فيما يعتقد، ولا يمر وقت طويل حتى تتكشف لك الحقيقة عن أفّاق كذاب منافق، وقد يكون حديثه أحبولة، يوقع فيها من يسوقه سوء حظه إلى شرك هذا المنافق اللئيم.

والمنافق يتميز بخلف الوعد، ذلك لأنه وضيع، لا تخجله النقيصة، وما وعوده إلا وعود عرقوب، أباطيل متلاحقة، وأكاذيب لا تنتهي.

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   وما مواعيدها إلا الأباطيل

والمنافق لا يؤتمن على شيء، فهو مراوغ غدار، يتراءى لك في وداعة الحمل وبراءة الطفل، ووفاء السموءل وصدق المؤمن، ثم تقبل الأيام بما يذهل العقل، ويطيش اللب، فينقلب الحمل أسداً ضارياً، والبراءة خسة، والوفاء غدراً، والصدق تزويراً وتمويهاً.

والنفاق كما يضر الفرد، وينحدر به إلى أحط المستويات، يضر الجماعة ويؤذي الأمة، وقد يكون سبباً في ضياعها وفنائها، فهو الذي يفرق الصفوف، ويبدد الجمع، ويمزق الشمل، ويفت في السواعد القادرة، ويضعف الهمم العالية، ويلاشي القوة الساحقة، وهو يشيع في الأمة الغش والجبن والنذالة، ويقودها إلى مهاوي الفساد.

والأمة التي يكثر فيها المنافقون تصرعها الفتن والمنازعات، ويفت في عضدها الخصام والشقاق، فإن لم تسرع في استئصال المنافقين من بين صفوفها تمكنوا منها بكيدهم فقضوا عليها القضاء الأخير.

وقد سفَّه القرآن المنافقين، ولعنهم وتوعدهم بأشد العذاب:

﴿ إنَّ المنافقين في الدرك الأسفلِ من النار﴾، ﴿ والله يعلمُ أنَّ المنافقين لكاذبون﴾، ﴿ وردَّ الله الذين نافقوا بغيظهم لم ينالوا خيراً ﴾.

وقال تعالى:

﴿ومِنَ الناسِ من يُعْجِبُكَ قولُهُ في الحياةِ الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على ما في قلبِهِ وهو ألَدُّ الخصام، وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسدَ فيها ويُهْلِكَ الحرثَ والنسلَ واللهُ لا يحبُّ الفسادَ ﴾.

وقد يتذرع المنافق بحجج مختلفة ليبرر نفاقه، وقد يكون جاهلاً خاملاً ضيق ذات اليد، فيتخذ من النفاق وسيلة لكسب العيش، وصد غائلة الجوع، فهو يوقع بين الناس، ويكون سبباً في سفك الدماء البريئة، وتعذيب الأنفس الكريمة، والتنكيل بأهل الصدق والأمانة والوفاء، وهذه ذرائع أشنع من النفاق وأدهى وأمر، فاللقمة النظيفة مُيسرة لكل عامل شريف، ومواطن كريم.

الموضوع الخامس والخمسون:

قال الشاعر:

ونفسَكَ أكرِمْها فإنَّكَ إنْ تهُنْ
عليكَ فلَنْ تَلْقى لها الدهرَ مُكْرِما

اكتب موضوعاً في معنى البيت السابق، وبيِّنْ أن من لا يحترم نفسه لا يستحق الاحترام، وإن من لا يكرم نفسه لا يكرم.

بسط الموضوع:

إن احترام، المرء نفسَهُ هو فوق كل شيء، لأن احترام النفس هو حجر الزاوية لكل فضيلة، ولا يمكن أن يكون المرء فاضلاً إذا كان مُهيناً لنفسه، لا يدفع عنها الضيم، ولا يسومها إلا الهوان.

إذا أنتَ لم تعرفْ لنفسِكَ حقَّها هواناً بها كانت على الناس أهوَنا

والناسُ ينظرون إلى الرجلِ، فإنْ وجدوهُ مكرماً نفسه، مترفعاً عن الدنايا، محترماً ذاته، أحسنوا به الظن، فاحترموه وكرَّموه، لأن الناس ــ ولهم الحق في ذلك ــ يحترمون الإنسان الذي يحترم نفسه، ولا يقيمون وزناً لمن لا يقيم لنفسه وزناً، لأنهم يعتقدون أن كل إنسان يعرف نفسه معرفة حقيقية، فهو وحده يستطيع أن يعطيها حقها من الاحترام، إذا كانت تستحق الاحترام، وهو وحده الذي يدرك عيوب نفسه ونقائصها، فينزلها المنزلة التي تستحقها.

إن احترام النفس هو أبرز مزايا الرجولة الصحيحة، فمن يحترم نفسه يرفض بإباء أن يعيش عالة على سواه، بل يقف منتصباً على قدميه، يترفع عن كل مساعدة عارضة، أو صدقة مهينة، لأن عزة النفس تجعله يترفع عن الصغار ولا

يلوي عنقه أمام من يريد به الهوان والازدراء.

كان أحد المحامين يرافع في قضية، أمام محكمة اشتهر رئيسها بالقسوة والبذاءة، فقال: إنني قد طالعت جميع ما لدي من كتب القانون فلم أجد قضية واحدة أيّد فيها المبدأ الذي يدافع عنه خصمي.

فرد عليه القاضي متهكماً: إذاً فإن مكتبتك القانونية ضيقة النطاق.

فأجابه المحامي بهدوء ورزانة قائلاً: لا أنكر يا سيدي أنني فقير، وأن مكتبتي صغيرة النطاق بحكم الأحوال القاهرة، فكتبي ليست عديدة ولكنها من نخبة الكتب، وقد طالعتها جميعها بتمعن وتدقيق، وأنني قد أعددت نفسي لهذه المهنة بدرس كتب قليلة مفيدة، فأنا لا أستحيي من فقري، بل لقد كنت استحيي من غناي ومن سلطتي لو كنت فظاً بذيئاً، فإذا لم أكن ذا مرتبة سامية، فأنا على الأقل شريف، وإذا فكرت يوماً في ألا أظل هكذا، فإن أمثلة عديدة تبرهن لي على أن الترقي المكتسب بطرق غير شريفة، وإن زاد المرء شهرة وظهوراً، فهو إنما يزيده احتقاراً لدى العموم.

فكف القاضي منذ ذلك اليوم عن ازدرائه لهذا المحامي حين وجده يحسن الدفاع عن نفسه ويرعى كرامتها وحرمتها.

إن احترام النفس يولد في المرء شعوراً بالقوة والعزة، أما أولئك الذين لا يبالون بكرامة أنفسهم وعزتها، فهم لم يعرفوا قط مزية الشمم النبيلة التي تتوقد في صدر الرجل الحر الكريم.

قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يغترِبْ يَحْسَبْ عَدُوّاً صديقَهُ
وَمَنْ لا يكرِّمْ نفسَهُ لا يكرَّمِ

فاحترام النفس وتكريمها والترفع بها عن الدنايا كل ذلك يبعد النفس عن الشرور والرذائل، ويجنبها التردي في مهاوي الانحطاط والفساد، فليكن احترامنا لأنفسنا درعاً متينة يقيها كل أذى، ويصونها من كل سوء.

الموضوع السادس والخمسون:

قال الشاعر:

واحذرْ مؤاخاةَ اللئيمِ فإنّهُ   يُبْدي القبيحَ وينكرُ المعروفا

اللئيمُ مخلوق جمع خلال السوء، فهو دنيء خبيث، غدار منافق، يقابل الإحسان بالإساءة. اكتب موضوعاً تحذر الآخرين منه، وتبعدهم عن شره ولؤمه.

بسط الموضوع:

أي مخلوق هذا الذي ينسب إليه اللؤم؟ إنه مخلوق طبع على الخسة والدناءة، وخلت نفسه من مقومات الشرف والكرامة، لا تجدي فيه الملاينة ولا الإكرام، بل هو يزداد على الملاينة خشونة وعلى الإكرام عداوة وكفراناً.

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكْتَه

وإنْ أنتَ أكْرَمتَ اللئيمَ تمَرَّدا

يسعى دائماً في إخفاء الحسنات، ولا يدخر وسعاً في تجسيم السيئات وإبرازها وإشاعتها، فإذا كنت تتمتع ببعض المزايا الرفيعة تغافل عنها وحاول إخفاءها وسترها وإنكارها، ولكنه يسارع إلى كشف المعايب، والإرشاد إليها، ليلحق الأذى بك إشباعاً لغريزة اللؤم المتأصلة في نفسه العفنة.

يستقبلك ببسمة صفراء باهتة، تنم عما في نفسه من عداوة وفساد، ومكر ودهاء، طريق الشر طريقه، فلا ينجو من أذاه أحد، إلا من رحم ربك.

وقد كرهت العرب اللؤم، واحتقرت اللئيم، ووضعت من قدره فقال شاعرهم:

إذا المرء لم يدنسْ من اللؤمِ عِرْضُهُ ... فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ

فإياكَ واللئيمَ، لا تعاشره، ولا تصاحبه، فإنه أفتك من الثعبان، وأغدر من النمر، وأشد مكراً من الذئب، فابتعد عنه ابتعادك عن الحريق المخوف والداء الساري.

ومصادر اللؤم عديدة ودواعيه معروفة فهو وليد سقوط النفس والنذالة، والجبن والطمع، والحقد، والأثرة، ودناءة الأصل، من هذه المصادر الكريهة ينشأ اللؤم فإذا آخيت اللئيم فانظر إلى أي المناهل الآسِنَةِ قصدت.

إن اللئيم لخسَّته وسقوط نفسه وعجزه، لا يستطيع أن يصل إلى أغراضه كما يصل الشرفاء العاملون، ولا يتمكن من إدراك رغائبه كما يفعل الكرام الشجعان، لهذا لا يجد وسيلة توصله إلى أغراضه سوى الخيانة والغدر والمكر والنفاق، فيصل إلى مبتغاه عن هذه الطرق والأساليب الساقطة القذرة.

إن مِنْ أكبر النعم على المرء أن ينجيه الله من اللؤم وشروره، فإنه بذلك يحظى باحترام الناس وتكريمهم ويظفر براحة الضمير والوجدان.

ومن يصرف الله عنه اللئام يكن سعيد الطالع، فإنه لا يفلح من صادقهم ولا يسمو من عاشرهم، ولا يلحق الأذى إلا بمن آخاهم وصاحبهم.

قد يعن لك مرة أن تحاول إصلاح اللئيم، أو الظفر بمودته الخالصة، لتنجو من عوائل دسائسه ومكائده، فتقدم إليه الجميل إثر الجميل، والمعروف بعد المعروف، وتنتظر منه أن يكف عن إيذائك، أو يخفف بعض ما يحيكه لك من الدسائس، وما يبيت لك من غدر، فلا يتحقق شيء من أملك، بل هو لا يزداد بعد كل ذلك إلا مكراً وغدراً وغلظة وفظاظة.

ومتى تمكن منك انقلب وحشاً ضارياً، لا يذكر معروفاً، ولا يعترف بجميل،

لا يراعي فيك ذمة ولا شرفاً، يجد كمال اللذة في شقائك، وشفاء النفس في عذابك، إذا قدر طغى وبغى وكفر واستكبر.

إنَّ الكريمَ إذا تمكَّنَ من أذىً ‏ أَنْسَتْهُ قُدرتُه الحقودَ فأقْلعا

وترى اللئيمَ إذا غدا ذا قدرة ‏ يطغى فلا يُبقي لصلحٍ مَوْضعا

الموضوع السابع والخمسون:

قال الشاعر:

تُريدينَ لقيانَ المعالي رخيصةً ولا بُدَّ دونَ الشهدِ من إبرِ النحل

اكتب موضوعاً تُبَيِّنُ فيه أن من طلب المجد لا بد من أن يتحمل في سبيل الوصول إليه آلام السعي ومتاعب الكدّ.

بسط الموضوع:

جُبل الانسان على أن يكون طموحاً، هدّافاً إلى المعالي، تواقاً إلى الوصول إلى معارج العز، ومراقي المجد، ولن يصل الإنسان إلى ما يصبو إليه، ولن يبلغ مطامحه وينال مآربه، إلا بالعمل والدأب، والجد والأخلاق الفاضلة.

فطريق العلا صعبة شاقة، وأهداف الإنسان وغاياته كثيرة تتجدد ما دامت حياته، فلكل مرحلة من مراحل العمر أهدافها ومراميها، ولكل نفس أمل بل آمال، وعلى الإنسان أن يحدد أهدافه وغاياته، وأن يكرس نفسه للمضي نحوها بقدم ثابتة ونفس متمرسة، وأن يعودها على تحمل المشاق وينمي فيها القدرة على تذليل الصعاب، فليس للسعي نهاية، وليس للمتاعب حد، فكل هدف يتم بلوغه تتفتحُ إثرَهُ آفاقُ أهداف جديدة، ولن تنتهي هذه الأهداف إلا بانتهاء الحياة، ومن يسلم بالعجز ويقعد، دون السعي أشبه بمن يحكم على نفسه بالموت، وعلى حياته بالنهاية.

وغايات الإنسان لا يجب أن تقف عند حد، كما يجب ألاّ يحول بينه وبين تحقيق أهدافه حائل، مهما اعترضه من مصاعب، ومهما امتلأت طريقه بالمتاعب،

فكل المتاعب والمصاعب ــ مهما عظمت ــ تبدو صغيرة تافهة عندما يبلغ المرء غايته، ويحقق الغرض الذي من أجله ناضل وسعى، وقد خلق الإنسان ليسعى، لا ليكون عالة على غيره، والحياة التي نحياها اليوم على يُسرها ورغدها تتطلب أن نبذل الجهد من أجل أية غاية، ولبلوغ أصغر هدف، ولا بد من أن يتناسب الجهد مع ما يطمح إليه الانسان من مراتب الحياة.

والطفل لو لم يمتد بشفتيه إلى ثدي أمه، يستنزف منها اللبن قوام غذائه، لما استمرت حياته ولو لم يعرض نفسه لخطر السقوط لما تعلم المشي، والجندي لو لم يعرض نفسه لخطر القتل لما نال شرف الحفاظ على استقلال الوطن، والعامل لو لم يكد ويشق لما نال شرف الإنتاج والإبداع.

ولم أر قط امرأ، قعد عن السعي وعجز عن العمل والنضال إلا داسته الحياة، ونبذته، لتلقي به على هامشها تافهاً محتقراً، فالحياة مركب صعب، وخضم متلاطم مترع بالمتاعب والمصاعب، لا يسلس قياده إلا للمجدين الصابرين، ولا ينقاد إلا للذين شحنت نفوسهم بالإرادة القوية وامتلأت بالعزيمة والمضاء.

جِدٌّ وكدٌّ، تعب وسهر، عزيمة وإرادة، وعناء وتصميم، وشجاعة وإقدام، هذه هي ركائز العمل في طريق الحياة والمجد، منها جميعاً يتكون السلاح الفعال لكل من أراد المضي في سبيل المجد والعلا، السلاح الذي يقوى وحده على تذليل المصاعب، وتحطيم العقبات التي تعترض سبيل المجدين، إنه السلاح الذي ينبثق من ذات الإنسان، وينبع من صميمه، فلكل ذات إنسانية سلاحها ينمو بنمو آمالها، ويضمر بضمورها، وما على الإنسان إلا أن يستعمل سلاحه في المجال المجدي وفي اللحظة المناسبة، حتى تنزاح من أمامه الموانع، وتتحطم على صخرة تصميمه الحواجز والمصاعب.

قال الشاعر:

جديرٌ بالعُلا من يَصْطَفيها ويَركبُ في مطالبها الصعابا

أما أولئك الذي يُخَيَّلُ إليهم أنهم واصلون إلى مراميهم بالأحلام والأماني، فلا

يبذلون من الجهد سوى التعبير عن الرغبة، والإعلان عن الأمل، ويخافون أن تعرق أجسادهم، أو تدمي أقدامهم من وعورة الطريق، فيخلدون إلى الكسل ويستسلمون لرقدة ينظرون خلالها إلى الرجال، وهم يتسابقون، أما أولئك فإنهم سيتعذبون طويلاً بمرارة الحرمان، ويكتوون بنار الخذلان، وترتسم الحياة أمامهم وَهْماً ذهبياً، وحلماً رائعاً بعيد المنال، والطريق مسدود أمام هؤلاء الجبناء المتقاعسين، وسبيل المجد محرم على العاجزين، وهما لا تفتحان أبوابها إلا لمن يُدمن الطَرْق ويجيد المثابرة ويتحمل العناء، فيمضي وقد وَطَّدَ العزم على تحمل الآلام، وروض نفسه على استصغار المكاره، يمضي وهو يصارع الزمن ويحطم الحواجز، فلا يجد اليأسُ إلى نفسه سبيلاً، إنه يشحن نفسَهُ كل يوم بعزم جديد، يدفعه ويحركه بعناد إلى الإمام، لا يرى في المتاعب والمصاعب إلا معارج إلى المجد، ومنافذ إلى الشرف والخلود، كلما اجتاز عقبة نظر إلى الأمام، فازداد عزيمة ومضاء، وكلما تخطى مرحلة ازداد عناداً وتصميماً، حتى يألف النضال، ويألفه المجد، وتتضاءل أمام قدرته وهمته أسمى الغايات والمرامي.

الموضوع الثامن والخمسون:

قال الشاعر:

لا تَنْهَ عنْ خُلقٍ وتأتيَ مثلَهُ   عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

اكتب موضوعاً يدور حول هذا البيت، وبين أن من يحاول اصلاح الآخرين، فليبدأ بإصلاح نفسه، ليكون قدوة لهم في الصلاح وحسن السيرة، واستشهد بقوله تعالى:

﴿ أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكم وأنتم تَتْلونَ الكتابَ أفلا تَعْقِلون ﴾.

ويقول المعري:

إذا فَعَلَ الفَتى ما عَنْهُ يَنْهى   فمِنْ جهَتينِ لا جهةٍ أساءَ

بسط الموضوع:

لكل امرىء خلقه وطبائعه، وقد تحسُنُ هذه الطبائع والأخلاق كما قد تسوء، ولكن أسوأ هذه الخلائق أن يرى الإنسان سيئات غيره، ويكتشف مواطن الضعف في أخلاقهم، ويتبين الطريق الصحيحة لتقويم فسادها، فينطلق لسانه بالوعظ والإرشاد، ويتحمس للدفاع عن المثل والأخلاق، ثم لا يلبث أن يفعل هو ما يأباه على الآخرين، ويبيح لنفسه ما يحرمه عليهم.

اجتنبْ أخلاقَ مَنْ لَمْ ترْضَهُ   لا تَعِبْهُ ثمَّ تَقْفو في الأثر

فهو يقف واعظاً ليقول: إن الكذب من أسوأ الخصال وأقبحها، إنه خصلة تشين صاحبها ويجب الإقلاع عنها، ولكنه مع ذلك لا يتورع عن الكذب، ويقول: إن التدخين عادة ذميمة لأنها تجلب الأذى وتضر بالصحة، ويجب الانصراف عنها، ورائحة التبغ تخرج من فيه كريهة مزعجة.

فما أحوج هذا الواعظ إلى وعظه، وما أحقه بإصلاح ذاته والانتباه إلى أخطائه، فإن لنفسه عليه حقاً من سديد نصحه أكبر من حق الآخرين عليه.

وأجدى لمدعي الإصلاح أن يبدأ بنفسه، فيطهرها مما يدنسها، وينقيها من شوائبها، ويسمو بها عما يرديها، ليكون قدوة لأولئك الذين يمنحهم الإرشاد والنصح، ومثالاً يحتذى، وواعظاً يقتدي غيره به، وقد رأوا فيه ما يدعوهم إليه، فإن الذي يدعو غيره إلى فضيله يفتقر هو إليها، وينقد أعمال الناس ثم يأتي ما يفعلون هو أحقهم بالنصح والإرشاد، ونفسه أحوج إلى التقويم.

يا له من واعظ عاجز وناصح منافق، يعرف النقيصة، ويدرك خطرها، ويسوءه فعلها إذا صدرت عن الآخرين، ولا يرى في صدورها عنه غضاضة ولا إثماً، يعرف الفضيلة فيدعو إليها، ويتحمس لها، وهو أول من يصد عنها ويعدل إلى ضدها.

إن مثل هذا المخلوق لو صمت وأقلع عن تخبطه لكان ذلك أجمل به؛ لأنه إنما يسيء إلي نفسه بفعله، ويدل على نقائصه بيده ويشير إلى قبائحه ببنانه.

يمتد لسانه مقصاً ماضياً إلى الآخرين، وأولى به لو يرده على ذاته فيعمله في أخلاقه تشذيباً وتهذيباً، حتى يخلصها من شوائبها، ويطهرها من أدرانها، إنه يعرف وينحرف، ويدرك ويقترف، ولئن كان غيره سيئاً من وجه فهو سيء من جهتين، ولقد تبدت للمعري فيلسوف الشعراء سوءات هؤلاء المدعين فنبه إلى خطرهم حين قال:

إذا فَعَلَ الفتى ما عَنْهُ يَنْهى فَمِنْ جِهَتَين لا جِهَةٍ أَساءَ

فليبدأ الانسان بنفسه ولينهها عن غيها، وليردعها عن نقائصها، فإذا انتهت

وارعوت، واستقامت واستوت، كان له أن ينبه الآخرين إلى ما في أخلاقهم من نقائص وأن ينهاهم عما يقبحها ويأمرهم بالفضل، لأنه يكون في حالته هذه أقدر على الإقناع بسديد رأيه وصحيح نصحه، فليس في أخلاقه مطعن لطاعن، ولا في طباعه منتقد لناقد.

ولقد قال الله تعالى في محكم تنزيله:

﴿ أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتنسَوْن أنْفُسكم وأنتمْ تتلونَ الكتابَ أفلا تعقلون ﴾.

فما أجدرنا باتباع قوله عزه وجل، والعمل بتعاليمه المرشدة الكريمة، فنصلح أنفسنا أولاً، ونجعل منها قدوة ونبراساً، ثم نلتفت إلى الآخرين، فندعوهم إلى الصلاح، وحسن الأخلاق، مزودين بما ندعوهم إليه، آخذين بما أمر الله به، وما قالت به الحكماء من أهل الرأي والفضل.

الموضوع التاسع والخمسون:

اكتب موضوعاً في القول الآتي لا يتجاوز خمسة عشر سطراً:

«الشباب عماد الأمة، وهم لن يستطيعوا أداء واجبهم نحو وطنهم إلا إذا تسلحوا بالعلم والخلق، وتعاون كل منهم مع الآخرين على رقيّ مجتمعه وتقدم بلاده».

بسط الموضوع:

الشباب هم الذين يمثلون جانب القوة في الأمة، فهم وجهها الشرق، ومفجرو طاقاتها ومحاورتطورها، بسواعدهم تتحقق رفعة الوطن ويسمو شأنه، أيامهم خير أيام الحياة، وأحفلها بالمنجزات الجبارة، والإنتاج الخيّر الكريم، تتجسد الإرادة المبدعة المنتجة في لمعان عيونهم، وقوة عضلاتهم، ويقظة ضمائرهم، ويقين قلوبهم، إنهم العمد التي يبنى عليها مجد الوطن، بل هم حجر الزاوية في بناء نهضة كل أمة، وتقدم كل مجتمع.

وهم لن يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم نحو وطنهم كاملاً ـــ رغم سموّ مشاعرهم وعظم إخلاصهم ـــ إلا إذا اتخذوا من العلم سلاحاً، يمكن أمتهم من شق طريقها في الحياة، ومن مباراة الأمم الراقية في تقدمها العلمي، فليمض الشباب إذن في معترك العلم، وليحملوا عبء النهضة الفكرية، وليكافحوا للوصول إلى انتصارات علمية ترفع من شأن أمتهم، وتسمو بها إلى أعلى مكان.

ومَنْ غير الشباب يستطيع أن يبذل من العرق والجهد في هذا السبيل ما يبذلون، ومَن غيرهم يستطيع أن يستقبل المصاعب والمتاعب والمخاطر دون أن

يتطرق الخور إلى نفوسهم او يحل الإعياء في عزائمهم؟

وليس العلم وحده بكافٍ لرفع مستوى الأمة وتقدمها، فهناك الأخلاق، بل قد تكون الأخلاق أمضى قوة، وأعمق أثراً من العلم في دفع الشباب إلى تحقيق مثله العليا في خدمة أمته ووطنه فإذا تجنب الشباب ما يفسد أخلاقهم، ويتلف صحتهم، ويطفيء جذوة السمو الخلقي في نفوسهم، تمكنوا من أن يمضوا في سبيلهم، دون أي انحراف عن خطة السير المثلى، ولا يتسنى لهم ذلك إلا إذا تمثلت فيهم الرجولة والإباء والشجاعة، وكل الصفات الخلقية الرفيعة الأخرى.

ولن يستطيع شاب أن يؤدي حق وطنه عليه إلا إذا تعاون مع الآخرين من مواطنيه، فهم يستطيعون معاً أن يقدموا من المنجزات ما يعجز عنه كل منهم منفرداً، فلا بد من التعاون بين جميع قوى الشباب في سبيل رفعة الأمة ومجدها وخلودها.

أسلوب الرسائل

المراسلة فنٌ رئيسي من فنون الإنشاء، أو لعلها أهمها جميعاً، وأقدمها، وأمسها بشؤون الناس في حياتهم اليومية، على اختلاف مستواهم الثقافي والاجتماعي.

وهي متنوعة الأغراض منها الرسائل المتبادلة بين الأهل والأقارب، أو بين الأصدقاء والأحباب، ومنها الرسائل التجارية، أو الرسمية، وتتفرع عن كل من هذه الأنواع أنواع أخرى لا حصر لها.

والرسالة الجيدة هي التي تكون خالية من التكلف، فلا التواء في معانيها، ولا غريب في ألفاظها، ولا ركاكة في أسلوبها، ولا غموض أو إبهام في أفكارها.

وخير الرسائل ما وفى بالغرض، فلا قصر ولا طول، ولا إيجاز ولا إسهاب،وإنما يُكْتَفى بالتعبير عما يريده الكاتب، وإيضاح الهدف من الرسالة، وتبيانه ما يجب تبيانه فيها.

ولا بد أن يراعي الكاتب غرض الرسائل، فرسائل التهنئة تختلف ألفاظاً ولهجة عن رسائل التعزية، ورسائل الاستعطاف والاعتذار تختلف كذلك عن رسائل العتاب واللوم والتأنيب، كما أن هناك فرقاً عظيماً بين الرسائل الرسمية التي تتبادلها الدوائر الحكومية، أو المؤسسات، وبين الرسائل التي تكون بين الأصدقاء والاهل والاخوان.

وكل ما أريد أن أوصي به المنشيء هو أن يكتب رسائلة ببساطة، فيسجل ما يعنُّ له، وما يشعر به، وما يفكر فيه بيسر وسلاسة، يكتب ما يريده ويوضح ما يبغيه دون أن يلتفت إلى تلك السخافات التي يفتتح بها بعض الناس رسائلهم التقليدية، من مقدمات سمجة أكل الدهر عليها وشرب، وجمل محشورة حشراً لا

روح فيها ولا جمال ولا صدق، عدا عن أنها لا تلائم في أغلب الأحيان روح العصر، ولا توائم أساليب المراسلة الراهنة.

فالبساطة والوضوح في المعاني والألفاظ، والرشاقة في الأسلوب، والعناية بالإفصاح عن غرض الرسالة، وبيان كل ما ينبغي بيانه دون غموض أو إبهام، كل ذلك يجعل الرسالة قيّمة جيدة.

الموضوع الستون:

اكتب رسالة إلى والدك المقيم في القرية تخبره عن سلوكك في المدرسة التي التحقت بها في المدينة، واصفاً ما ينتابك من لواعج الشوق والحنين، لفراق الأهل، والابتعاد عن جو القرية الحبيب.

والدي الكريم:

ألثم يديك الكريمتين، وأرجوه تعالى أن يُطيِّبَ أيامنا بوجودك، وأن يمتعك بالصحة والعافية، مع جميع أفراد العائلة، وأن يغمركم جميعاً بفيض من المسرات وبعد:

سيدي الوالد الكريم:

فأكتب إليك رسالتي هذه، ولما يمض على التحاقي بمدرستي الجديدة إلا أيام قلائل ولكنها على قلتها تبدو لي طويلة أليمة، لأنني بعيد عنكم وعن قريتي الحبيبة.

لا شك ــ يا والدي ــ في أن جو المدينة يختلف عن جو القرية، وقد يتأثر الشاب بهذا الجو الذي لم يألفه، فينساق في تيار المفاسد والشهوات والعبث والمجون كما وقع لكثير من الشبان الذين أعرفهم، وثق يا والدي بأن ابنك لم يغيره جو المدينة، بل ظل على عهدك به أميناً وفياً محافظاً على سلوكه وتهذيبه وخلقه، متمسكاً بالقيم التي طبعتنا عليها.

إنني منذ فارقت القرية، وتركت العمل في تربتنا الخصبة المعطاء، وحقولنا الممرعة الخيرة، اتجهت إلى حقل آخر، هو حقل العلم والمعرفة، وكما كنت أسقي تربة القرية بعرقي ودمي، فهأنذا أبذل كل ما في جهدي في هذا الحقل الجديد، لأجني أينع الثمرات وأفضل الإنتاج، ذلك لأنك غرست فيَّ منذ كنت طفلاً حُب

العمل، وقوة الإرادة والدأب، وهي الأسلحة الماضية التي تدك العقبات وتجتاح المصاعب.

لا أنكر عليك يا والدي أنني لقيت بعض المصاعب، في أول التحاقي بالمدرسة الجديدة، فلقد كان جو المدينة يختلف اختلافاً بيناً عن جو القرية، ولكن التربية القويمة التي أنشأتني عليها مكنتني من التغلب على كل هذه المصاعب، فعطف عليّ أساتذتي، والتف حولي رفاقي، فأحببتهم وألفتهم ونعمت بصحبتهم، واستعنت بهم في جلاء ما خفي عني، من مواد الدروس الصعبة، ووجدت لديهم كل عون ورعاية، وأنست بهم كما أنسوا بي، وغدونا وكأننا إخوة في أسرة واحدة.

والدي الكريم:

كنت أودُّ أن أتحدث طويلاً عن سير الدروس والمناهج، ومهارة الأساتذة وقدرتهم وتفانيهم في القيام بعملهم، ولكنني لا أجد لديَّ متسعاً من الوقت لكل ذلك، فأنا أكتب إليك هذه الرسالة بعد أن أنجزت كتابة وظائفي، وأتممت واجباتي في الحفظ والاستذكار، وها هي ذي الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل، كل ما حولي ساكن، خلا صريرَ هذا القلم، وخفقان هذا القلب الذي يتوثب في صدري، شوقاً إلى لقاء الأهل والأحباب، وتلهفاً إلى قريتي الحبيبة، مرتع طفولتي ومهوى فؤادي، قريتي التي لا أحن إلى أرضٍ سواها، ومهما طال البعد وامتد الفراق، فإنني مفتون بمعالم سحرها، وروعة جمالها، وبراءة أهلها.

إنني أشعر في هذه الساعة بالذات بالوحشة تجتاح نفسي، فلا يخفف من وقع ألمها إلا الأمل بقرب لقائكم، مع والدتي وإخوتي جميعاً، والتمتع بالحياة العائلية السعيدة التي كنت أحياها، دون أن أذوق مرارة الفرقة وشقاء الاغتراب.

وختاماً أرجو أن أفوز برضاك ودعاك، وأن أكون عند حسن ظنك، وتحياتي الخالصة لك ولوالدتي الكريمة وأخواتي وإخوتي الأعزاء، واسلموا لمن لا ينساكم.

ولدكم الوفي

سعيد

الموضوع الحادي والستون:

سافرت إلى بلد بعيد، وعلمت ــ وأنت هناك ــ أن أخاك يغضب أباك أحياناً، وهو إلى ذلك مقصر في دروسه اكتب إليه ناصحاً.

أخي العزيز: وفقك الله وسدد خطاك.

تحية عاطرة وبعد: فإنني شديد الشوق إليكم جميعاً، فلقد مضت سنوات وأنا بعيد عن البيت الذي فيه درجت، والأهل الذين في أحضانهم نشأت وترعرعت. وكل ما يبعث فيَّ الصبر والجلد اليومَ هو أني سأعود فأضم الصدر الذي ضمني، وألثم اليد التي اطعمتني وأنا قرير العين بجانب أولئك الذين لا تنام أعينهم قلقاً عليَّ.

أخي العزيز:

كيف حالك؟ أرجو أن تكون بخير، وأنك تعمل كل ما يرضي والديك، فلقد سمعت وأنا هنا في ديار الغربة، أنك أغضبت أباك، وأنه غير راض عنك، ولم أصدق هذا النبأ في أول الأمر، لأنني اعتبره غير ممكن، لما أعرفه فيك من حب لوالديك، وعطف عليهما، ولما تتحلى به من رفيع الأخلاق، وفاضل الصفات، ولكنني حين تأكدت من ذلك، وجدت من واجبي أن أبادر إلى الكتابة إليك، لتعمل على تدارك ما فرط من أمرك، وتلافي ما قصرت به في حق والدك، ولم أجد ذلك مستحيلاً فلكل جواد كبوة، ولكل سيف نبوة، فرضا الوالدين يا أخي أعظم ما يتقرب به الإنسان إلى ربه، وأنت تذكر قوله تعالى:

﴿ وقضى ربُّكَ ألا تعبدوا إلا إياهُ وبالوالدينِ إحساناً ﴾.

لهذا خصصتك بهذه الرسالة، لتبذل وسعك حتى تظفر برضا والدك، فتتجنب بذلك غضبه، وذلك أمر ليس بالعسير عليك، وأنت الفتى الشهم الذي تأبى عليه نفسه أن يعد في الأبناء العاقّين الذين يتنكرون لأبويهم، فيفسدون على أنفسهم حياتهم، وينغصون بذلك عيشهم، فيلازمهم الشقاء والبؤس والبلاء.

احرص على الاجتهاد ما استطعت، واصرف جهدك كله إلى التحصيل الجدي، فنحن كما تعلم لا ملجأ لنا إلا ما نحصل عليه من علم، فهو ثروتنا التي لا تنفد، لأن كل ثروة مهما تكن قيمتها فهي سريعة الزوال.

أطع أباك، والزم مدرستك، واعكف على دروسك، ودم واسلم لأخيك.

غسّان

نثر الشعر

ويطلق عليه بعضهم «حل الشعر» وهو شرح أبيات الشاعر، وبيان مراميه وأغراضه ومعاني ألفاظه.

وقد سلك الناس في نثر الشعر طرقاً تبدأ بنثر البيت، مع المحافظة على ألفاظه عينها، وهذا لا يعني شيئاً سوى أن هذه الألفاظ التي كانت منظومة مسبوكة منتظمة عمدنا إلى نثرها وبعثرتها، فأفسدنا نظامها وشوهنا انسجامها.

أو يعمد الناثر إلى البيت فيبدل بعض ألفاظه بمرادفاتها، ويبقي على بعضها الآخر، وأخيراً أن يعمد الناثر إلى البيت فينثره بألفاظ غير ألفاظه.

وهناك أبيات يتسع فيها المجال للناثر أن يزيد على المعنى، ومنها ما يضيق فيها المجال، وبخاصة إذا لم يكنْ لألفاظ البيت مرادفات.

وخير ما يعول عليه في نثر الشعر هو التدريب والتمرين، على أن يستمر ذلك مدة طويلة، حتى يصير نثر الشعر ملكة، فلا يجد الطالب بعد ذلك أية صعوبة، إذا رغب في ذلك.

وإليك نماذج مختلفة لشرح الأبيات:

قال المتنبي:

ذَلَّ من يغبطُ الذليلَ بعيشٍ ... ربَّ عيشٍ أَخَفُّ منه الحِمامُ

غَبطه: تمنى أن يكون مثله دون أن يتمنى زوال نعمته. الحمام: الموت.

الشرح: إن الحياة مع الهوان لا يتمناها إنسان عزيز ولا يريدها لنفسه امرؤ عاقل، فربَّ حياة ذليلة أهون منها الموت الزؤام.

قال المتنبي:

لا تعذُلِ المشتاقَ في أشْواقِهِ　　حتى يكونَ حَشاك في أحْشائه

الشرح: لا تلم المحب فيمن يهواه حتى يطوي القلبَ ما طواه.

قال أحد الشعراء:

لا يَمْتَطي المجدَ مَنْ لمْ يَركَبِ الخطَرا
ولا يَنالُ العلاَ مَنْ قَدَّمَ الحذَرا
ومَنْ أرادَ العُلا عَفْواً بلا تَعَبٍ
قضى وَلمْ يقْضِ منْ إدراكِها وَطَرا

لا يستطيع المرء أن يظفر بالمنصب الرفيع والمنزلة السامية إلا إذا اقتحم المخاطر، واستهان بالمصاعب، فإن طريق المجد شائكة وعرة، لا يذلل عقباتها إلا الجَلْدُ القوي الشجاع، أما الجبان فإنه لا يستطيع أبداً أن يكون إنساناً ماجداً كريماً، ذلك لأن المجد لا يأتي دون جدٍ وكدٍ، ومن ظن خلاف ذلك فإنه مخلوق عاجز خامل غارق في أوهامه وأحلامه.

قال المتنبي:

والظلمُ مِنْ شِيَمِ النفوسِ فانْ تجدْ　　ذا عِفَّةٍ فَلعِلَّةٍ لا يَظْلِم

الظلم خُلُقٌ فطرت عليه النفوس، فهو كامن فيها، وقد جبل الناس عليه، فمازج دمهم وروحهم، فإذا وجدتَ إنساناً يترفع عن الظلم، ويأبى أن يجور، فذاك لأنه يعجز عن ذلك، إما لخوفه أو لضعفه.

قال أبو تمام في مدح ابن حميد الطوسي:

تَرَدَّى ثيابَ الموتِ حُمْراً فما دَجا
لها الليلُ إلا وهِي مِنْ سُنْدُسٍ خُضر

لم تكسه السيوف قاني الدماء حتى كسته الجنة نسيج الفداء، فبُدِّل أحمرُ ثوبه باخضره، وكأس حمامه بكأس كوثره.

قال المتنبي:

وِمِنَ البلِيَّة عَذْلُ مَنْ لا يرْعَوي عـن غَـيِّه وخِطابُ مَنْ لا يَفهمُ

من أدهى ما يصيب المرء في حياته هو أن يبتلى بمخلوق ضالٍ غبي، إذا حاول أن يثنيه عن ضلاله أبى وامتنع عليه، لا يفيد فيه اللوم ولا يجدي، وإن حاول أن يكلمه مرشداً له لم يجد لديه أذناً واعية.

قال أحد الشعراء:

وأَصْـفَـحُ عَـنْ خِـلّي وأَعلَمُ أنّني متى أجزِهِ حِلماً على الجهلِ يَنْدَمِ

إذا أخطأ الصديق أو زلّ صفحت عن خطئه وتجاوزت عن زلته، لأنني واثق بأن الصفح عنه هو الذي يجعله يندم على ما فرط منه، ويحمله على تجنب الهفوات، والبعد عن الزلات.

قال المتنبي في مطلع قصيدة يمدح بها كافوراً الإخشيدي:

كَفى بكَ داء أنْ ترى الموتَ شافياً　　وحَسْبُ المنايا أنْ يَكُنَّ أمانيا
تَمنَّيْتَها لَمَّا تَمَنَّيْتَ أنْ ترى　　صَديقاً فأعْيَا أو عَدُواً مُداجيا
إذا كُنْتَ ترْضى أن تعيش بذِلَّةٍ　　فلا تَسْتعِدَّنَّ الحُسامَ اليمانيا
فما يَنْفعُ الأسْدَ الحياءُ مِن الطَّوى　　ولا تُتَّقى حتى تكونَ ضواريا
حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نأى
وَقدْ كانَ غَدَّاراً فَكُنْ أنتَ وافيا
وأعْلَمُ أنَّ البينَ يُشكيكَ بعده　　فَلَسْتَ فؤادي إن رأيتُكَ شاكيا
فإنَّ دُموعَ العينِ غُدْرٌ بربِّها　　إذا كُنَّ إثرَ الغادرينَ جواريا
إذا الجودُ لمْ يُرْزَقْ خَلاصاً مِنَ الأذى
فلا الحمدُ مكسوباً ولا المالُ باقيا
وللنفسِ أخلاقٌ تَدُلُّ على الفتى　　أكانَ سخاء ما أتى أمْ تَساخِيا
خُلِقْتُ ألوفاً لو رَجعتُ إلى الصبا　　لفارقتُ شيبي موجَعَ القلبِ باكيا

الشرح الأدبي:

١ ــ المناسبة والموضوع.　　٢ ــ خصائص الأسلوب في النص.

١ ــ كان المتنبي يحلم بآمال عذاب، ومطامع لا حد لها في الحكم والسيطرة والسلطة، ولقد كافح من أجل ذلك وقاتل، وخاطر بحياته مرات، ولكنه لم يتحقق له شيء من هذه المطامع والآمال، ادّعى النبوة وهو فتًى، فأخذ وسُجنَ وتَقرَّبَ من سَيف الدولةِ ومَدحَهُ بأروعِ شِعرهِ ولكنه لم يَجد عنده ما يبتغيه، إنه يطمح في أن يكون حاكماً لا محكوماً، فلم يساعده دهر اذن فليضرب في الأقطار العربية الأخرى. وهذا كافور أمير مصر وعزيزها يدعوه لزيارته وهو يرجىء الاستجابة

ويماطل في المضي إليه، والآن ــ وقد تمت القطيعة بينه وبين سيف الدولة ملك حلب ــ فليسعَ إلى كافور.

وها هو ذا في طريقه إليه، تحدوه مطامعه، وتمضي به إليه دوافع ذلك الطموح التي تسري في عروقه سريان دمه، فيمدحه بقصيدته اليائية التي سنشرح منها مقدمتها، دون ما خصص منها لمدح كافور.

أراد المتنبي أن يمدح كافوراً، فبدأ في التحدث عن نفسه، شأنه في هذه القصيدة شأنه في أغلب قصائده، إنه يشكو هذا الدهر، وقد بلغ منه اليأس مبلغه، وضاقت في وجهه مسالك الحياة، ومجَّ هذه الدنيا بعد أن ذاق مرها، دون حلوها، وعانى شرها دون أن ينعم بخيرها، فهو لا يؤثر البقاء فيها، بل هو يتمنى الموت علاجاً شافياً، ومخلصاً منقذاً، يضع حداً لآلامه وعذابه.

لقد نظر المتنبي إلى الحياة التي يحياها، فرآها عابسة قاتمة، وقد فارق أحب الناس إليه، سيف الدولة، حبيبه وسيده، فهو وإن كان في طريق إلى استقبال حياة جديدة، وعهد يحتمل أن يكون حافلاً بمعسول الآمال، ولكنه يشعر أن نفسه ما تزال تذكر أولئك الذين خلفهم وراءه في حلب. إن لقاءه كافوراً قد يحقق له أعذب الأماني، إذن فماله يتمنى الموت ويجده العلاج الوحيد الذي يضع حداً لشقائه؟ ذلك لأن الذين غادرهم قد أحبهم حباً صادقاً مقيماً، لا يمكن أن ينتزع من نفسه.

ويغمر اليأسُ صدر المتنبي لما حل به، فيفزع إلى الموت لينقذه مما هو فيه من شر وعذاب، ويعلل ذلك القنوط بأنه لم يعد يستطيع أن يجد الصديق الصدوق المخلص المصافي، ولا حتى العدو المجامل المحابي.

تمنَّيْتَها لما تمنَّيتَ أن ترى صديقاً فأعْيا أو عدواً مداجِيا

ثم يتوجه باللوم إلى ذاته فيقول: وما حاجتك إلى السلاح إذا كنت ترضى بالمذلة والهوان وتركن إلى حكم الأقوياء كأحقر جبان، فالسلاح لا يكون إلا في يد البطل الشجاع الذي يأبى الضيم ولا يصبر على الهوان، والأُسْدُ السارحة في جماتها لا تخيف أحداً إذا كانت مسالمة، لينة الظفر كليلة الناب، ولن ينفعها

طيبها ولا مسالمتها في دفع غائلة الجوع عنها، بل إن الهلاك جوعاً هو مصيره المحتوم، وإنه لا شيء يحفظ لهذه الضواري هيبتها وسلطانها، إلا شدتها وضراوتها واستعدادها لتمزيق فريستها في أية لحظة تقع أعينها عليها.

ويخاطب الشاعر قلبه مؤنباً زاجراً: لقد آحببتك أيها القلب المعذب قبل أن تحب أنت هذا الذي غدر بنا، وتنكر لنا ــ معرضاً بسيف الدولة ــ فلقد كان هذا الصديق هو كل ما يشغلني في الحياة، لقد أصفيته حُبيِّ، ووقفت عليه حياتي ومدائحي، ولكنه غدر، وتنكر، وكان لئيماً قاسياً أذاقني ألوان الهوان فلا تحْذُ حذوه في الغدر بي والتنكر لي، لأن اشتياقك إليه، ووفاءك له، وبقاءك على حبه ــ بعد كل الذي حدث ــ هو أشنعُ ألوان العقوق.

ثم يقول كمن يقر الأمر الواقع: إنه لا يملك السلطةَ المطلقةَ على قلبه، ولهذا فهو يعترف بأن قلبه المحب سيشكو من فراق سيف الدولة، وسيحن إليه، لأنه أليفه ونجيُّه وحبيبه، فماذا يصنع الشاعر بقلبه، إنه لا يجد سلاحاً لمعالجة هذا الأمر إلا التبرؤ من هذا القلب الكسير.

وأَعْـلـمُ أن الـبين يُشكيكَ بعده فـلستَ فؤادي إن رأيتك شاكياً

ثم يلتفت إلى دموعه التي هي طريق القلب إلى التعبير عما يعانيه، فينالها بالتقريع المر، لأنه يرى أن الدموع التي تسح اثر فـراق الغادرين، ليست أقل غدراً بصاحبها منهم، وهل يستحق الغادر ان تنهلّ لفراقه الدموع، وتسيل في وداعه العبرات؟

ولماذا البكاء على فراق من فارقهم، هل يأسف على العطاء الوافر الجزيل الذي كان يغرقه به سيف الدولة؟ كلا، فالجود إذا لم يكن نقياً خالصاً من المنِّ، بعيداً عن الاستغلال، مبرأ من الترفع فهو جود مزيف كريه، لا يجلب الحمد ولا يبقي على المال، وهل كان سيف الدولة كريماً حقاً؟ إن كل ما بدا منه يثبت أنه لم يكن كذلك، بل كان يتظاهر بالكرم، ويتطبع بالسخاء، ولم يكن الكرم فيه سجية، ولا السخاء طبعاً.

أما هو ــ أي الشاعر ــ فلم يكن كذلك، إنـه إنسان ألوف، لا ينسى أولئك

الذين عاشرهم، ولو لقي منهم الأذى والسوء، إن الشيب لذميم وفراقه مدعاة للسرور والفرح، والعودة إلى الشباب أمنية غالية، لم تتحقق، ولم يظفر بها أحد، ولكن لو قدّر للشاعر أن يفارق شيبه ليعود إلى الشباب الحبيب لكان ذلك الفراق موجعاً لقلبه، مستدراً لعبراته.

٢ ــ خصائص الأسلوب:

لقد فارق المتنبي سيف الدولة وهو لهذا الفراق كاره، ذلك لأنه أحب سيف الدولة أصدق الحب، ولهذا وجدناه في مطلع القصيدة يتمنى الموت لأنه يئس، والحياة واليأس لا يجتمعان، وحين يقول: كفى بك، وتمنيتها، فإنما هو يخاطب نفسه بطريق التجريد.

وهو ــ وقد أوتي الحكمة في شعره ــ يرى أن السلاح لا يجوز أن يحمله إلا الأبي الكريم الذي يجد في السلاح الوسيلة التي ترد عنه الضيم، وتدفع عنه الهوان، فالأسد العاجز المسالم لا يخشاه أحد، ثم يتوجه إلى قلبه، فينهاه ويزجره، ويهدده ويتوعده إن هو بقي على ولائه لسيف الدولة، وإخلاصه في حبه والتعلق به، ويعود ثانية إلى الحكمة مقرراً أن العطاء يجب أن يكون خالصاً من المنّ، وفاقاً لقوله تعالى:

﴿ ولا تُبْطِلوا صدقاتِكُمْ بالمنّ والأذى كالذي يُنفِقُ مَالَهُ رِئاءَ النّاسِ ﴾.

ولا ينسى أن يشير إلى نفسه قبل أن يشرع في مدح كافور، ليقول إنه خُلق كريماً ألوفاً وفياً محافظاً على الود.

والأبيات كلها ذاتُ تأثيرٍ عميقٍ في النفس، لما امتازت به من صدق في التعبير عن خوالج هذه النفس المعذبة، وما دامت عليه من انفعال إنساني صادق، ضد ذلك الذي غدر به، وتخلى عنه، كما تمتاز بهذا الجرس المفعم بالمرارة التي يكاد القارىء يحس بها، ويشعر بمذاقها الأليم.

ولم تخل الأبيات من الجناس غير التام، في قوله: «المنايا، أمانيا» والطباق في: «صديقاً، وعدواً، غداراً ووافياً».

أبيات وأقوال للاستشهاد

اعمَلِ الخيرَ ما استَطعتَ وإنْ كا ... نَ قليلاً فلنْ تُحيطَ بكُلِّهْ
ومتى تَفْعَلُ الكثيرَ من الخيـ ... ـرِ إذا كنتَ تاركاً لأقَلِّهْ؟
وأَحَبُّ آفاقِ البلادِ إلى الفتى ... أرضٌ ينالُ بها كريمَ المطلبِ
وإياكَ والأمرَ الذي إنْ توَسَّعَتْ ... مواردُهُ ضاقتْ عليكَ المصادرُ
فما حسنٌ أن يَعْذُرَ المرءُ نفسَه ... وليسَ لهُ مِنْ سائرِ الناسِ عاذرُ
لا تَطْلُبَنَّ معيشةً بمذلةٍ ... وارفعْ بنفسكَ عن دنيءِ المطلبِ
العلمُ كالقُفْلِ إنْ ألفيْتَهُ عَسِراً ... فخلِّهِ ثُمَّ عاوِدْهُ لِيَنْفَتِحا
إذا ذهبَ العتابُ فليسَ ودٌّ ... ويبقى الودُّ ما بقيَ العتابُ
أَعطِ القليلَ ولا تمْنَعْكَ قِلَّتُهُ ... فكلُّ ما سَدَّ فقراً فهوَ محمودُ
وقدْ فارقَ الناسُ الأَحبةَ قبْلَنا ... وأعْيا دواءُ الموتِ كلَّ طبيبِ
إذا الأمرُ أعْيا اليومَ فانظُرْ به غداً ... لعلَّ عسيراً في غدٍ يتيسَّرُ
أفاضلُ الناسِ أغراض لذا الزمنِ ... يخلو من الهَمّ أخلاهُمْ من الفِطَنِ
اجتنبْ أخلاقَ مَنْ لَمْ تَرْضَهُ ... لا تَعِبْهُ ثمَّ تَقْفو في الأثَر
إذا نحنُ أثْنينا عليكَ بِصالحٍ ... فأنتَ كما نُثْني وفوقَ الذي نثني
فإنما رَجُلُ الدنيا وواحِدُها ... مَن لا يُعوِّلُ في الدنيا على رَجُلِ
ولا خيرَ في حُسن الجسومِ ونُبْلها ... إذا لمْ تزنْ حُسنَ الجسوم عُقولُ

ذلَّ مَنْ يَغْبطُ الذليلَ بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منهُ الحمام

يهوى الثناءَ مقصرٌ ومبرزٌ حبُّ الثناءِ طبيعةُ الإنسانِ

إذا كانَ وجهُ العذرِ ليسَ ببيّنٍ فإنَّ اطراحَ العُذرِ خيرٌ من العذرِ

لا تُعْجبنَّ مَضيما[1] حُسْنُ بزّتهِ وهلْ تروقُ دفينا جَودَةُ الكفنِ

إذا كانَ الطباعُ طباعَ سوءٍ فليسَ بنافعٍ أدبُ الأديبِ

وإنَّ عَناءً أنْ تُفهِّم جاهلا فيحسبَ جَهْلاً أنه منكَ أفْهمُ

ولَمْ أجِبْهُ لاحْتِقاري لَهُ ومَنْ يَعضُّ الكَلبَ إن عَضّا

لقدْ ثبَتتْ في القلبِ منكِ مودةٌ كما ثَبتَتْ في الراحتينِ الأصابعُ

تَضْفو[2] على المحسودِ نعمةُ رَبِّه ويذوبُ منْ كمدٍ فُؤادُ الحاسدِ

صغارُ الناسِ أكثرُهمْ قبيحاً وليسَ لهمْ بصالحةٍ نُهوضُ

ألمْ تَر في سباعِ الطيرِ نسْراً يُسالِمُنا ويُؤذينا البَعوضُ

إذا أنتَ لم تحفظ لنفسكَ سرَّها فسرُّكَ عندَ الناس أفشى وأضيعُ

إن الطبيبَ بطبّه ودوائهِ لا يستطيعُ دفاعَ محذورٍ أتى

وأحسنُ الحالاتِ حالُ امرئٍ تطيبُ بعدَ الموتِ أخبارُهُ

إذا لم يكُنْ في منزلِ المرءِ حرةٌ مدبرةٌ ضاعتْ مروءةُ داره

ولا خيرَ في وُدٍّ إذا لم يَكُنْ لهُ على طولِ مرِّ الحادثاتِ بقاءْ

وما الفخرُ بالعظمِ الرميمِ وإنما فخارُ الذي يبغي الفخارَ بنفسِهِ

ما تنسجُ الأيدي يَبيدُ وإنما يبقى لنا ما تنسجُ الاخلاقُ

ربَّ علمٍ أضاعَهُ عدمُ الما ل وجهلٍ غطى عليهِ النعيمُ

إذا أنتَ حمّلتَ الخؤون أمانةً فإنكَ قد أسندْتَها شرَّ مُسندِ

(١) المَضيم: الذليل المهان.

(٢) تضفو: تتسع وتزيد.

جديرٌ بالعُلا مَنْ يصبها ... ويركبُ في مطالبها الصِعابا

لا بدَّ للشهدِ منْ نحلٍ يمنّعُهُ ... لا يجتني النفعَ مَنْ لم يحمل الضررا

ومَنْ أرادَ العلا عفواً بلا تعب ... قَضى ولم يَقْضِ من إدراكها وطرا

وإذا همَمتَ بأمرِ سوءٍ فاتئدْ ... وإذا هممتَ بأمرِ خيرٍ فاعْجلِ

ولا تأتِ أمراً لا ترجّي تمامَهُ ... ولا مورداً ما لم تجدْ حُسنَ مصدر

ولا تستشرْ في الأمرِ غيرَ مجرِّبٍ ... لأمثالِهِ أو حازمٍ متبصِّرِ

حبُّ السلامةِ يَثْني همَّ صاحبِهِ ... عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ

ولا تظهرَنْ ودَّ امرىءٍ قبلَ خُبره ... وبعدَ بلاءِ[1] المرءِ فاذمُمْ أواحمدِ

ولا خيرَ في ودِّ امرىءٍ متلونٍ ... إذا الريحُ مالتْ مالَ حيثُ تميلُ

وزنِ الكلامَ إذا نطقتَ ولا تكُن ... ثرثارةً في كلِّ نادٍ تخطُبُ

واحرصْ على حفظِ القلوبِ من الأذى ... فرجوعُها بعدَ التنافرِ يصعُبُ

يلقاكَ يحلِفُ أنهُ بكَ واثقٌ ... وإذا توارى عنكَ فهو العقربُ

يعطيكَ من طرفِ اللسان حلاوة ... ويروغُ منكَ كما يروغ الثعلب[2]

كلُّ المصائبِ قد تمُرُّ على الفتى ... فتهونُ غيرَ شماتةِ الحسادِ

لا تحسبِ المجدَ تمراً أنت آكله ... لن تبلغَ المجدَ حتى تَلعقَ الصبرا

فانهض إلى صَهَواتِ المجدِ معتلياً ... فالبازُ لم يرضَ إلاّ عاليَ الشجرِ

أرى الناسَ خلانَ الكريمِ ولا أرى ... بخيلاً له في العالمينَ خليلُ

لسنا – وإن أحسابنا كرُمَت – ... يوماً على الأحسابِ نَتَّكلُ

نَبْني كما كانت أوائلنا ... تبني ونَفْعَلُ مثلما فعلوا

إن المعلمَ والطبيبَ كلاهُما ... لا ينصحانِ إذا هما لم يُكْرَما

---

(١) بلاء: حسب.

(٢) راغ الثعلب ههنا وههنا مكراً وخديعة.

فـاصبرْ لدائكَ إنْ جفوتَ طبيبَه   واصـبرْ لجهلِكَ ان جفوتَ مُعلّما

إنـا لـقـومٌ أبـتْ أخـلاقُـنا شرفاً   إن نـبتدي بالأذى مَنْ ليس يؤذينا

فـانـفُـضـوا الـنـومَ وهُـبـوا للعلى   فـالـعلى وَقـف على مَـنْ لم يَـنَـم

ألا انهَضْ وسِرْ في سبيلِ الحياةِ   فـمَـنْ نـامَ لم تَـنْـتَـظِرْه الحـيـاه

تـقضي الرجولةُ أن نمُدَّ جسومَنا   جـسـراً فَـقُـلْ لـرفاقِنا أن يعبروا

أمـةُ الـعـربِ لـن تموتَ وإني   أتحـداكَ بـاسـمِـهـا يـا زمـانُ

كُـــنْ رحـيـمـــاً إنمـا الإنـ   ـسان ذو الـقـلـب الـرحـيـم

عودوا إلى البأسِ بعد اللينِ فهولكم   قـد يفعلُ البأس مالا تَفعلُ الخطب

أقوال مأثورة وحكم للاستشهاد بها

١- المكثارُ كحاطبِ ليلٍ

(أي لا يعرف أين يحتطب فهو يخبط على غير هدى).

٢- ليسَ الشديدُ من غلبَ الناسَ إنما الشديد من غلبَ نفسَهُ.

٣- الصبر على كتمانِ السرِّ أيسرُ مِنَ الندامةِ على إفشائهِ.

٤- شرارُ الناسِ الذينَ يُكرَمونَ اتقاءَ ألسنتِهِمْ.

٥- لا خيرَ في صُحْبةٍ من لا يرى لكَ مِن الحقِّ مثلَ الذي ترى له.

٦- الدالُّ على الخيرِ كفاعلهِ. (حديث شريف).

٧- ما لا ينبغي أن تَفعلَهُ احذرْ أن يخطُرَ ببالِكَ.

٨- لسانُ العاقلِ من وراء قلبهِ، فإذا أرادَ الكلام فكَّرَ، فإن كان لهُ قال، وإن كانَ عليه سكتَ.

وقلبُ الجاهل من وراءِ لسانهِ، فإن همَّ بالكلام تكلمَ به، لهُ أو عليهِ.

٩- إن البلاءَ كلَّ البلاءِ أن يكونَ الرأيُ لمن يملكُه دون من يُبصرُهُ.

١٠- ما أصعبَ على من استعبَدَتْهُ الشهواتُ أن يكونَ فاضلاً.

١١- إذا أعجبكَ ما يذكُرُهُ الناسُ من محاسِنكَ، فانظر فيما بَطَنَ من مساويكَ ولتَكُنْ معرفتُكَ بنفسِكَ أوثقَ عندكَ من مدحِ المادِحين لكَ.

١٢- من نَصَبَ نفسَهُ للناسِ إماماً فلْيبدأ بتهذيبِ نفسِهِ قبلَ تهذيبِ غيرِهِ.

١٣- الفرصةُ سريعةُ الفوت بطيئةُ العودِ.

١٤- ﴿ولا تنازَعوا فتَفْشلوا وتذهبَ ريحُكم﴾. (قرآن كريم).

١٥- لا تتركِ الأمرَ مقبلاً وتطلبُهُ مدبراً فإن ذلكَ منْ ضَعْفِ العقلِ وقِلةِ الرأي.

١٦- ﴿فاصفحِ الصفحَ الجميلَ﴾. (قرآن كريم).

١٧- ﴿وأوفُوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كان مسؤولاً﴾. (قرآن كريم).

١٨- ﴿إن الله يأمرُكم أن تُؤَدّوا الأماناتِ إلى أهْلِها﴾. (قرآن كريم).

١٩- ﴿وتعاوَنوا على البِرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾. (قرآن كريم).

٢٠- ﴿ادفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينكَ وبينه عداوة كأنهُ وَليٌّ حميمٌ﴾. (قرآن كريم).

٢١- ﴿لو كُنْتَ فظاً غليظَ القلبِ لانْفَضّوا من حَوْلِكَ﴾. (قرآن كريم).

٢٢- لا تلومَنَّ من أساء بِكَ الظنَّ إذا جعلتَ نفسَكَ هدفاً للتهمةِ. (قول مأثور).

٢٣- إياكَ ومعاداةَ الرجالِ فإنَّك لنْ تَعْدَمَ غضبةَ حليمٍ أو مفاجأةَ لئيمٍ.

٢٤- إياكَ والكسلَ والضجرَ، فإنَّكَ إذا كَسلْتَ لم تؤدِّ حقاً وإذا ضجرتَ لم تصبرْ على حقٍّ.

٢٥- ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا لا يسخرْ قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منْهنَّ، ولا تلمزوا أنفسَكم، ولا تنابَذوا بالألقاب ﴾. (قرآن كريم).

٢٦- ﴿ ولا تجسَّسوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً ﴾. (قرآن كريم).

٢٧- ﴿ أليسَ في جهنَّمَ مثوى للمتكبرينَ ﴾. (قرآن كريم).

٢٨- ﴿ فلما كشفْنا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يَدعُنا إلى ضُرٍّ مسَّهُ ﴾. (قرآن كريم).

٢٩- تَعْرِفُ حقارةَ المرء في كثرةِ كلامهِ فيما لا يَعْنيهِ وإخبارِهِ عمَّا لا يُسألُ عنهُ. (قول مأثور).

٣٠- العاقلُ من افتتحَ في كلِّ أمرٍ خاتمَتَهُ، وعَلِمَ من بدْء كلِّ شيء عاقِبَتَهُ. (قول مأثور).

٣١- مُنتهى المعرفةِ أن يَعرفَ المرء نَفْسَهُ. (قول مأثور).

٣٢- ﴿ لهُمْ قُلوبٌ لا يفقَهونَ بها، وَلَهُمْ أعينٌ لا يُبْصرونَ بها، ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها أولئكَ كالأنعامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئك هُمُ الغافلونَ ﴾. (قرآن كريم).

٣٣- ﴿ فإنَّها لا تعمي الأبصارُ ولكنْ تعمى القلوبُ التي في الصدور ﴾. (قرآن كريم).

٣٤- أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمَنكَ ولا تخُنْ من خانَكَ. (حديث شريف).

٣٥- لا تَحقِرَنَّ من المعروفِ شيئاً ولو أنْ تَلقى أخاك بوجهٍ طلْقٍ. (حديث شريف).

٣٦- ما أكرمَ شابٌ شيخاً لسنِّهِ إلا قَيَّض الله مَنْ يُكْرِمُهُ عِندَ سِنِّهِ.

٣٧- قلِ الحقَّ ولو على نَفْسِك. (حديث شريف).

٣٨- طوبى لمنْ شَغلهُ عَيبُهُ عن عُيوب الناسِ. (حديث شريف).

٣٩- مَنْ لمْ تُصلِحْهُ الكرامةُ أصلحَهُ الهوانُ. (قول مأثور).

٤٠- ﴿ إن تمْسَسْكُمْ حسنةٌ تَسُؤْهُمْ وإن تُصِبْكم سيئةٌ يفرحوا بها، وإن تصْبروا وتتَّقوا لا يضرّكُمْ كيدُهم شيئاً ﴾. (قرآن كريم).

٤١- إياكَ واخوانَ السوءِ، فإنهمْ يُحزنون من رافَقَهُمْ، ويخونونَ مَنْ صادَقَهُمْ. (قول مأثور).

٤٢- لسانُ العملِ أنطقُ من لسانِ القولِ، وجميلُ الفعلِ أزجرُ مِنْ حُسْنِ الوعظِ. (قول مأثور).

٤٣- من استَحْيا منَ الناس ولم يَستَحي من نفسِهِ فليسَ لنفسه عندهُ قدْرٌ.

٤٤- ﴿ وليسَ عليكُمْ جناحٌ فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمَّدَت قلوبُكُمْ ﴾. (قرآن كريم).

٤٥- ﴿ أفمَنْ أسسَ بُنيانَهُ على تقوى من اللهِ ورضوانٍ خيرٌ أم منْ

أسَّسَ بنيانَهُ على شفا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ به في نارِ جَهنَّمَ﴾. (قرآن كريم).

٤٦- ﴿ وما يَستوي البحرانِ هذا عذبٌ فُراتٌ سائغٌ شرابُهُ، وهذا مِلحٌ أجاجٌ ﴾. (قرآن كريم).

٤٧- ﴿ وأنْ ليس للإنسانِ إلا ما سعى، وأنَّ سَعيهُ سوف يُرى، ثم يُجزاهُ الجزاءَ الأوفى ﴾. (قرآن كريم).

٤٨- ﴿ ولا تَحسبَنَّ الله غافلاً عما يعملُ الظالمونَ ﴾. (قرآن كريم).

٤٩- ﴿ إن الذينَ يأكلونَ أموالَ اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونِهمْ ناراً وسيَصلونَ سعيراً ﴾. (قرآن كريم).

٥٠- أولى الأشياء أن يتعلَّمها الأحداثُ الأشياءُ التي إذا صاروا رجالاً احتاجوا إليها. (قول مأثور).

٥١- ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا اجْتَنبوا كثيراً منَ الظنِّ إنَّ بعضَ الظنِّ إثمٌ، ولا تجسَّسُوا ولا يَغتَبْ بعضُكم بعضاً أيحبُّ أحدُكم أنْ يأكلَ لحمَ أخيهِ مَيتاً فكرهتموهُ واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ توابٌ رحيمٌ ﴾. (قرآن كريم).

٥٢- ﴿ إنَّ أكْرَمَكُم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾. (قرآن كريم).

٥٣- الخلقُ كلُّهُمْ عيالُ اللهِ وأحبُّهُم إلى اللهِ أنفعهُمْ لعيالِه. (حديث شريف).

أمثال للاستشهاد بها

١- إنَّ الحبيبَ إلى الاخوانِ ذو المال.

٢- إنَّ أخاكَ مَنْ آساك

يضرب في الحث على مراعاة الاخوان والأخذ بيدهم.

٣- إنه ليعلمُ من أينَ تؤكلُ الكَتِفُ

يضرب في المجرب المحنّك.

٤- إياكَ وما يُعتذَرُ منهُ.

٥- إياكِ أعني واسمَعي يا جارةُ

يضرب لمن يخاطب شخصاً وهو يريد غيره تعريضاً.

٦- إن كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً

يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه.

٧- إذا تخاصمَ اللصانِ ظهرَ المسروقْ.

٨- بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضٍ

يضرب في الشرين يختار أهونها.

٩- بلغَ السكينُ العظمَ

يضرب لمن جاوز الحد.

١٠- بعدَ البلاء يكونُ الثناءُ.

١١- تركُ الذنبِ أيسرُ منْ طلبِ التوبةِ.

١٢- تجوعُ الحرةُ ولا تأكلُ بثدْيَيْها

أي لا تكون مرضعاً: يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب.

١٣- تلدغُ العقربُ وتَصيءُ

صاءت العقرب أي صوتت: يظليم ويتظلم.

١٤- ترى الفتيانَ كالنخلِ وما يُدريكَ ما الدخلُ

يضرب لذي المنظر لا خير فيه.

١٥- حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصِمّ.

١٦- الحاجةُ تَفتِقُ الحيلةَ.

١٧- خالف تُذْكَرْ.

١٨- رماهُ الله بثالثةِ الأثافيّ

الأثافيّ جمع أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر وهما اثنتان وثالثتها الجبل والمراد بها الداهية العظيمة.

١٩- رُبَّ مَلومٍ لا ذنبَ لهُ.

٢٠- حَسنٌ في كلِّ عينٍ مَنْ تودُّ

يضرب لمن يرى الشيء كاملاً لأنه يحبه.

٢١- أُريدُ حبوَهُ ويُريدُ قَتلي

يضرب لمن تريد به خيراً ويريد بك كل سوء.

٢٢- سكتَ ألفاً ونَطقَ خلفاً

الخلف: الرديء من كل شيء. يضرب لمن يسكت عن القول وغيره ثم ينطق أو يعمل ما لا قيمة له.

٢٣- الظَفرُ بالضعيفِ هزيمةٌ

يضرب لمن يستضعف الضعيف ويذله.

٢٤- لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً

يضرب لمن يوعظ فلا يقبل ولا يفهم.

٢٥- كلامٌ كالعسلِ وفعلٌ كالأَسلِ

الأَسل الرماح يضرب لمن قوله جميل وفعله سيء.

٢٦- كالمستجيرِ من الرمضاءِ بالنارِ

الرمضاء شدة الحر: يضرب لمن يستجير من شدة بشدة أسوأ منها.

٢٧- انْصُرْ أخاكَ ظالماً أو مظلوماً

أي إذا كان ظالماً فانصره برده عن ظلمه، يضرب في وجوب الوفاء والنصح للاخوان.

٢٨- اليدُ العليا خَيرٌ من اليدِ السفلى

وهو حديث شريف ويضرب لتفضيل المتصدق على من يتناول الصدقة.

٢٩- شرٌّ من الموتِ ما يُتمنى مَعَهُ الموتُ.

٣٠- صدرُكَ أوسعُ لسرِّكَ.

٣١- طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلُ.

٣٢- أعطِ القوسَ باريها

يضرب لمن يصلح للأمر الذي تقلده.

٣٣- عندَ الامتحانِ يُكرمُ المرءُ أو يُهانُ.

٣٤- الصيفَ ضيعتِ اللبنَ

يضرب لمن يطلب شيئاً بعد أن فوته على نفسه.

٣٥- قبلَ الرِّماءِ تُملأُ الكنائنُ

يضرب في الاستعداد للأمر قبل الشروع فيه.

٣٦- كلُّ فتاة بأبيها معجبةٌ

يضرب في إعجاب الرجل برهطه وجماعته.

٣٧- كأنَّ على رؤوسِهِمُ الطيرُ

يضرب لجماعة ساد فيهم الصمت والسكون.

٣٨- لو ذاتُ سِوارٍ لطمتني

يضرب في الوضيع يقع منه العدوان على الكريم.

٣٩- لعلَّ له عذراً وأنتَ تلومُ.

٤٠- لكلِّ مقامٍ مقالٌ

يضرب للإشارة إلى وضع الأمور في مواضعها وقول الشيء في محله ووقته.

٤١- لا تهرِفْ بما لا تعرفُ

يضرب لمن يخوض في الحديث عن أمور لا يعرفها.

٤٢- لا ناقتي فيها ولا جملي

يضرب لمن يشير إلى أنه لا علاقة له في الأمر.

٤٣- لا في العيرِ ولا النفيرِ

يضرب في الوضيع ليس فيه شيء من خلال الشرف.

٤٤- ما أشبهَ الليلةَ بالبارحةِ

يضرب للأمرين يشبه أولهما ثانيهما.

٤٥- ما كل بيضاءَ شحمةٌ

يضرب لمن ينبه إلى ضرورة التمييز بين ما هو حسن وبين ما هو قبيح.

٤٦- يَدُكَ منك وإن كانتْ شلاءَ

يضرب فيمن يلزمك خيره وشره.

٤٧- أمنعُ من عُقاب الجوّ

يضرب للعزيز لا يطاله أحد.

٤٨- وافق شنّ طبقةَ

يضرب في تمام المشاكلة والاتفاق.

٤٩- يداك أوكَتا، وفوكَ نَفخَ

يضرب لمن يجني على نفسه.

(وَكَى القربةَ وكياً: شدها بالوكاء وهو رباط القربة).

٥٠- القرشُ الأبيضُ ينفعُ في اليومِ الأسودِ.

٥١- ربَّ رميةٍ من غيرِ رامٍ

يضرب للمخطىء يصيب أحياناً.

٥٢- إن البغاثَ بأرضِنا يستنسرُ

يضرب للضعيف يصير قوياً إذا ضعف مَنْ حولَهُ.

٥٣- جَوِّعْ كَلْبكَ يَتْبعْكَ

يضرب فيما يجب أن يعامل به اللئام.

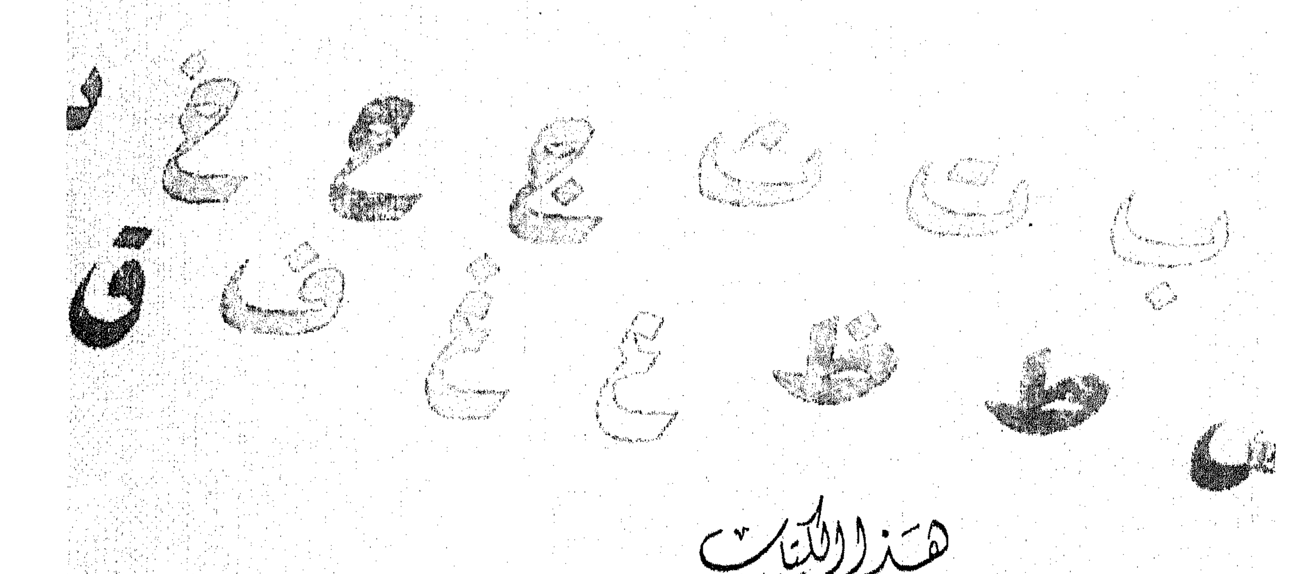


المحتوى









هذا الكتاب

هذه هي الطبعة الخامسة من «الانشاء السهل» بين يديك وستجد فيها كل فن من فنون الكتابة بأسلوب سهل شيق.

اهداني اليه طول ممارستي في التدريس وقد كان هدفي فيما كتبت من موضوعات أن تكون متنوعة في بعضها خيال وفي بعضها الآخر حكم تتخلل الكتاب دون ان تنحرف به عن هدفه التعليمي.

والإنشاء السهل يناسب كل ذوق وينسجم مع كل نفس ويتحول بالقارىء من فن الى فن ويستدرجه من حديث الى حديث دون أن يتداخله ملل.

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية